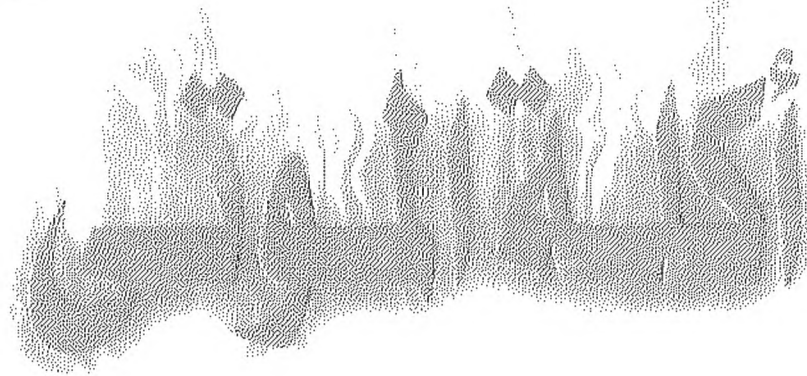


روایت  
الملاح



مایکل کرایتون

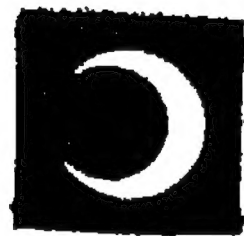


الطبعة الثانية



اهداءات ٢٠٠٢

أسرة المرحوم/شارل كرتيه  
الاسكندرية



BIBLIOTHECA ALEXANDRINA  
مكتبة الإسكندرية

# روايات الله

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA  
مكتبة الإسكندرية (إهداء)

رقم التسجيل ٧٧٠٤٧

مجلة شهرية لنشر القصص العالمية

الطبعة الثانية  
(١٩٩٩)



8/3.54

لا

ا

# أكلت الموت

عن مخطوطة  
ابن فضلان

بقام

مايكل كرايتون

ترجمة

تيسير كامل



دار التهلا

« لا تمدح النهار حتى ياتي المساء ،  
ولا المرأة حتى تحرق ، ولا السيف حتى  
يجرب ، ولا الصبية حتى تتزوج ، ولا الجليد  
حتى تعبره ، ولا تمدح شرابا حتى تشرب  
منه » .

مثل شعبي من امثال الفايكنج  
« وجد الشر منذ اقدم العصور »  
مثل عربي



## تقديم

**تقديم روايات الهلال للقارئ العربي رواية « أكلة الموتى »**  
 « Eaters of » ، التي حققت في أوروبا والولايات المتحدة أعلى  
 أرقام التوزيع ، ويصدق على هذه الرواية القول : « هذه بضاعتنا  
 ردت إلينا .. » ، فهي إعادة صياغة مخطوط الرحالة العربي ابن  
 فضلان بأسلوب روائي عصري ، يحافظ على الوقائع والاحداث التي  
 سجلها في رسالته ..

وكان الاولى بأولئك الذين لا يملون الحديث عن ذخائر التراث  
 العربي ، أن يقوموا بجهد مشابه لما قام به الكاتب الأمريكي مايكل  
 كريشون Michal Critchon ويقدمون التراث في ثوب جديد وصياغة  
 معاصرة ..

فما زالت كتابة الرحالة العرب تبحث عن من يقدمها ، وهي تكاد  
 تكون المراجع الوحيدة التي تنقل القرون الوسطى ، وما زالت  
 مؤلفات الرحالة العرب عيون العالم المعاصر على هذه المرحلة  
 التاريخية ، عندما كان العلم مزدهرا في بلادنا ، وهذا ما دفع امام  
 المستشرقين الروس كراتشكوفسكى الى القول : « أنه لولا العرب لما  
 قام علم الجغرافيا » ..

وتصف رسالة ابن فضلان بلاد الروس والبلغار والأتراك واصقاع  
 الشمال النائية ، وهي المصدر الرئيسي لتاريخ الشمال المسجل  
 في وقت لم تكن تعرف فيه هذه الدول القراءة والكتابة ..

وكان ابن فضلان أحد افراد البعثة التي أوفدها الخليفة العباسي  
 المقتدر الى بلاد الصقالبة « الروس » لمساعدتهم في مواجهة تحرشات  
 دولة الخزر اليهودية ، فيذكر ابن فضلان : « أن ملك الصقالبة المش  
 ابن بلطوار طلب بعثة لكي تفقهه في الدين وتعرفه شرائع الاسلام ،  
 وتبنى له مسجدا وتقيم له حصنا ضد ملوك الخزر الذين يعتدون على  
 قومه ويفرضون عليهم الضرائب ، وكان ملك الخزر يخطب من يشاء  
 من بنات ملك الصقالبة ويتزوجها غصبا ، والخزري يهودى وابنة  
 الصقلي مسلمة ! » ..

وقد رحل الوفد من بغداد يوم الخميس ١١ صفر عام ١٣٠٩ هـ ( ٢١ يونيو ١٩٢١ م ) ، وعبر نهر جيحون ووصل الى بخارى ثم توغل حتى وصل الى نهر الفولجا ، وهناك اختطفه جماعة من الفايكنج وأخذوه الى الشمال الاسكندنافي ، وعند عودته سجل وصف الرحلة بكل أحداثها في رسالته الى الخليفة ..

وبقيت أقسام من الرحلة مجهولة ، ولكنها طبعت في الغرب ، وترجمت ، ولم تصل الى خزائننا العربية ..

حتى نشر وحقق مخطوط ابن فضلان الدكتور سامي الدهان في دمشق عام ١٩٥٩ ، وحققها في ذات الوقت الدكتور بير فراوس دولوس ، الأستاذ في جامعة أوسلو بالنرويج ، وأخيرا بعث فيها الحياة الكاتب الأمريكي كريشون عندما صاغها بأسلوب روائي شيق . وجعل القصة على كل لسان ..

ويقول كريشون : « يعد مخطوط ابن فضلان أقدم تسجيل معروف كتبه شاهد عيان عن حياة الشعب الاسكندنافي ، وهو بذلك وثيقة فريدة من نوعها ، تصف بدقة متناهية أحداثا وقعت منذ ما يزيد عن ألف عام » ..

وقدم المؤلف عملا جذابا بعد أن أمسك بالخط الروائي للرحلة وقدم من خلالها العادات والتقاليد التي كان يعيشها مجتمع الشمال .



## مقدمة بقلم : مصطفى نبيل

تقدم مخطوطة ابن فضلان اقدم وصف معروف لشاهد عيان حول حياة النايكنج ومجتمعهم . وهذه المخطوطة وثيقة نادرة ، تصنف بتفصيل حتى حوادث وقعت منذ اكثر من ألف عام . ومن الطبيعي ألا تكون قد بقيت كاملة غير منقوصة عبر هذه الحقبة الطويلة جدا من الزمن . فلهذه المخطوطة تاريخها الخاص ، وهو تاريخ ليس اقل شأنا واثارة من النص ذاته .

### اصل ومنشأ المخطوطة

في يونية من عام ٩٢١ ميلادية أرسل خليفة بغداد أحد افراد حاشيته ، وهو احمد ابن فضلان سفيرا الى ملك البلغار . وقد امضى ابن فضلان ثلاثة أعوام في رحلته دون أن ينجز مهمته ، لانه وهو في طريقه الى بلاد البلغار التقى بمجموعة من رجال الشمال وكان له بينهم مغامرات عديدة .

وعندما عاد اخيرا الى بغداد ، سجل ابن فضلان تجاربه ومغامراته على شكل تقرير رسمي قدمه الى البلاط . الا ان تلك المخطوطة الاصلية اختفت منذ زمن طويل ، ولكي نعيد تجميعها وبناءها من جديد كان علينا ان نعتمد على مقاطع متفرقة حفظت في مصادر لاحقة .

وأفضل هذه المصادر المعروفة هو معجم جغرافي عربي كتبه ياقوت ابن عبد الله الحموي في فترة ما من القرن الثالث عشر . يضمن ياقوت معجمه عددا كبيرا من المقاطع المروية من تقرير ابن فضلان ، الذي كان قد مضى عليه آنذاك قرابة الثلاثمائة عام . فلا بد من الافتراض ان ياقوت كان يعتمد على نسخة من الاصل . الا ان هذه الفقرات القليلة نسبيا على أي حال قد اعيدت ترجمتها مرات عديدة من قبل علماء كثيرين حديثين .

كما اكتشف مقطع آخر في روسيا في عام ١٨١٧ ونشر باللغة الألمانية من قبل أكاديمية القديس بطرسبرج في عام ١٨٢٣ . ويتضمن هذا المقطع مقاطع معينة نشرت سابقا من قبل ج . ل . راسميوسن في عام ١٨١٤ . وقد اعتمد راسميوسن على مخطوطة وجددها في كوبنهاجن ، ثم اختفت منذ ذلك الحين ، وهي مخطوطة يشك كثيرا في أصلها ، كما كان هناك ترجمات سويدية وفرنسية وإنجليزية ، أيضا في تلك الفترة ، إلا أنها جميعا غير صحيحة إلى حد الأسف الظاهر ، ولا تقدم أي معلومات جديدة .

وفي عام ١٨٧٨ تم اكتشاف مخطوطتين جديدتين في المجموعة الأثرية العائدة للسير جون امرسون . والسير جون ، الذي كان سفير بريطانيا في القسطنطينية ، كان واحدا من أولئك الجامعين الشرهين الذين كانت جماعتهم للاقتناء تتجاوز بكثير اهتمامهم بالآثار المكتسبة . وقد اكتشفت المخطوطتان بعد وفاته ، ولا يعرف أحد متى حصل عليهما .

أحد هاتين المخطوطتين هي مخطوطة جغرافية بالعربية كتبها أحمد الطوسي ، يرجع تاريخها إلى عام ١٠٤٧ ميلادية . وهذا ما يجعل مخطوطة الطوسي أقرب زمنا من كل المخطوطات الأخرى لمخطوطة ابن فضلان الأصلية ، التي يفترض أنها كتبت حوالي الفترة بين عامي ٩٢٤ - ٩٢٦ ميلادية . إلا أن العلماء يعتبرون مخطوطة الطوسي أقل المصادر أهلا للثقة : فالنص مليء بالأخطاء الفاضحة وانعدام الاتساق الداخلي ، ورغم أنها تقتبس بشكل مطول من « ابن الفقيه » الذي زار بلاد الشمال ، فإن مراجع كثيرة تتردد في قبول هذه المخطوطة .

أما المخطوطة الثانية فهي مخطوطة أمين الرازي ، المؤرخة تقريبا حوالي الفترة ما بين عامي ١٥٥٨ - ١٥٦٥ ميلادية . وهي مكتوبة باللاتينية ، وحسب قول كاتبها فقد ترجمت مباشرة من النص العربي لابن فضلان . وتتضمن مخطوطة الرازي بعض المعلومات عن أتراك الأوغوز ، كما تتضمن فقرات عديدة تتعلق بالمعارك ضد وحوش الضباب ليست موجودة في المصادر الأخرى .

وفي عام ١٩٣٤ اكتشف مخطوط أخير مكتوب بلاتينية العصور



الوسطى وجد في دير كسيموس قرب ثيسالونيكيا شمالي اليونان .  
وتحوى مخطوطة كسيموس بعض المعلومات والتعليقات الاضافية  
عن علاقات ابن فضلان بالخليفة وعن مفامراته مع مخلوقات بلاد  
الشمال . الا ان كاتب مخطوطة كسيموس وتاريخها كليهما غير  
مؤكدين .

ان جميع هذه الترجمات العديدة ، والتي ظهرت عبر فترة تزيد  
عن الالف عام ، ونشرت بالعربية واللاتينية والالمانية والفرنسية  
والدنمركية والسويدية والانجليزية ، لهو مهمة ذات ابعاد هائلة .  
ولا يمكن ان يقدم على مثل هذه المهمة الا واسع المعرفة . فقد جمع  
بيرفراوس دولوس استاذ الادب المقارن في جامعة اوسلو في  
النرويج كل المصادر المعروفة وبدأ بتنفيذ مهمة الترجمة الهائلة ،  
تلك المهمة التي شغلته حتى وفاته عام ١٩٥٧ . وقد نشرت اجزاء  
من ترجماته في مجلة وقائع المتحف الوطني في اوسلو في عامي ١٩٥٩  
- ١٩٦٠ ، لكنها لم تثر الكثير من الاهتمام العلمي ، او من اهتمام  
العلماء ، ربما لان تلك المجلة محدودة الانتشار .

لقد كانت ترجمة فراوس دولوس ترجمة حرفية في المقدمة التي  
كتبها فراوس دولوس شخصيا لترجماته اشار الى انه « من طبيعة  
اللغات ان لا تكون الترجمات الجميلة ( دائما ) صحيحة ، وان الترجمة  
الصحيحة تكتشف جمالها الخاص بها دونما مساعدة » .

في أثناء اعدادى لهذه النسخة الكاملة والمنقطة لترجمة فراوس  
- دولوس ، قمت باجراء بعض التغييرات او التنقيحات . فقد  
حذفت بعض المقاطع المكررة ، وقد بينت هذا في سياق النص .  
كما اننى غيرت بنية الفقرات ، بادئا كلام كل متحدث اقتبس منه  
مباشرة بفقرة جديدة ، متبعا بذلك الاعراف الحديثة في الكتابة .  
كما حذفت اشارات اللفظ عن الاسماء العربية واخيرا . غيرت احيانا  
النص الاصلى غالبا بتغيير مواقع الجمل الثانوية او الوصفية بحيث  
يصبح المعنى اكثر قربا للفهم والادراك .

### الفايكنج

هناك تباين واضح بين الصورة التي يرسمها ابن فضلان للفايكنج  
وبين النظرة الاوروبية التقليدية لهؤلاء الناس . فاولى اوصاف

الفايكنج الأوروبية سجلها رجال الدين . اذ كانوا الشهود الوحيدين الذين كانوا يستطيعون الكتابة في تلك الايام ، وقد نظروا الى رجال الشمال الوثنيين نظرة رعب خاص . وهذا مقطع مفرط القلوب التقليدي ، اقتبس « د . م . ولسون » عن كاتب ايرلندي من كتاب القرن الثاني عشر .

« وبكلمة موجزة ، رغم انه كان هناك مائة رأس معمم بحديد الفولاذ فوق كل عنق ، ومائة لسان لاسع ، حاضر البديهة ، بارد ، لا يصدا ، صفيق وقع في كل رأس ، ومائة صوت ثرثار عال لا يتوقف في كل لسان فلم تكن تستطيع ان تعيد او تروى ، او تعدد او تخبر . بما عاناه الايرلنديون جميعا ، رجلا ونساء ، عامة ورجال دين ، شيبا وشبابا ، نبلاء وأشقياء ، من الادى ومن الايداء والاضطهاد . وفي كل بيت ، من قبل هؤلاء الناس الاشداء ، الهائجين الغاضبين ، والوثنيين تماما » .

يميز العلماء المعاصرون ويعترفون بأن مثل هذه الروايات التي تجمد الدم في العروق عن غزوات الفايكنج ؟ مبالغ فيها الى حد كبير . ومع ذلك فان الكتاب الاوربيين ما زالوا يميلون الى استبعاد الاسكندنافيين واسقاطهم باعتبارهم برابرة دمويين غير ذوى اهمية بالنسبة الى التيار الرئيسى للثقافة الغربية والافكار الغربية ، وغالبا ما كان يحصل هذا على حساب منطق ما . قد نجد تالوت راسى يكتب مثلا :

« ربما كان دور الفايكنج ما بين القرنين الثامن والحداى عشر أكثر تأثيرا بالفعل من أى مجموعة بشرية مفردة فى أوروبا الغربية » .

وهكذا كان الفايكنج رحالة عظاما ، كما انجزوا مقامرات بارزة فى عالم الملاحة وكانت مدنهم مراكز عظيمة للتجارة ، وكان فهم أصيلا مبدعا ومؤثرا . وقد تباهوا بأدبهم الرفيع وثقافتهم المتطورة .. هل كانت حقًا حضارة ؟ . اعتقد انه لابد من الاعتراف بانها لم تكن كذلك .

فلمسة الانسانية ، والتي هى علامة الحضارة كانت غائبة تماما .. وكلما زاد انتباهنا حين قراءة هذه الافكار ازداد وضوح عدم



منطقيتها . وفى الواقع لابد وأن يتساءل واحد منا : لماذا يشمر العلماء الاوربيون عالى الثقافة الاذكىاء بأنهم احرار فى اسقاط الفايكنج من حسابهم وبما لا يتجاوز الايماء العابرة ؟ ولماذا الانشغال بالقضية اللغوية حول ما اذا كان للفايكنج حضارة ام لا ؟ فالوضع واضح سهل الفهم بمجرد أن يعترف الواحد منا ويميز الانحياز الاوربى طويل الامد والتابع من الآراء التقليدية عن فترات ما قبل التاريخ الاوربى !

فكل طفل غربى يذهب الى المدرسة يلحن بأسهاب أن الشرق الأدنى هو مهد الحضارة ، وأن أولى الحضارات قد برزت ونهضت فى مصر وفيما بين النهرين ، يفذيها نهر النيل واحواض نهري دجلة والفرات . ومن هنا انتشرت الحضارة الى كريت واليونان ، ومن ثم الى روما وأخيرا الى برايرة شمالى اوريا .

أما ما الذى كان هؤلاء البرابرة يفعلونه بينما كانوا ينتظرون وصول الحضارة اليهم فغير معروف ، ولم يكن هذا السؤال يثار غالبا . فالتأكيد كان على عملية امتصاص هذه الحضارات وتمثلها وهى العملية التى لخصها الكاتب « كوردن تشايلدن » بأنها طمس البربرية الاوربية بواسطة الحضارة الشرقية . ولقد تبنى العلماء المعاصرون هذا الراى كما فعل العلماء الرومان واليونان قبلهم . يقول جفرى بيبى : ينظر الى تاريخ اوريا الشمالية والشرقية وقيم من الغرب والجنوب مع كل المفاهيم المسبقة لرجال اعتبروا انفسهم متحضرين ينظرون من عل الى رجال اعتبروهم برابرة .

من وجهة النظر هذه يكون الاسكندنافيون فعلا وبكل وضوح ابعاد الناس عن منبع الحضارة ومنطقيا آخر من يكتسبها ، وبناء على ذلك ربما كانوا يعتبرون آخر البرابرة ، أو شوكة مزعجة فى جاضرة تلك المناطق الاوربية الاخرى ، التى تحاول أن تستوعب حضارة الشرق وحكمته .

وتكمن المشكلة فى أن هذا الراى عن فترة ما قبل التاريخ الاوربى قد تم اسقاطه خلال الخمسة عشر سنة الماضية اذ أن تطور تقنيات تحديد التاريخ الصحيح بواسطة الكربون قد أدى الى فوضى كبيرة فى الترتيب الزمنى الماضى ، ذلك الترتيب الذى كان يدعم الآراء القديمة القائمة على اساس الانتشار « انتشار الضوء » . ويبدو

الان انه مما لا شك فيه ان الاوربيين كانوا يبنون قبورا هائلة ( ميفالينية ) قبل ان يبنى المصريون اهراماتهم ، و « استون هينج » Stone Henge أقدم من حضارة اليونان ( الميسينية ) ، كما ان دراسة المعادن واستعمالها في أوربا ربما سبق تطور مهارات تصنيع المعادن في اليونان وطراودة .

لم يميز بعد معنى هذه الاكتشافات ولكنه قطعاً من المستحيل الان ان نعتبر أوربي ما قبل التاريخ متوحشين ينتظرون بخصول بركات الحضارة الشرقية . بل على العكس من ذلك فانه يبدو ان الاوربيين قد نموا مهارات تنظيمية من المكانة بما يكفي لتصنيع أحجار هائلة الحجم ، كما يبدو انه كان لهم معرفة فلكية كافية لبناء « استون هينج » الذي هو أول مرصد في العالم .

وهكذا فان الانحياز الاوربي نحو الشرق المتحضر لا بد وان تثار حوله الاسئلة . وفي الحقيقة فان مفهوم البربرية الاوربية يجد ذاته يحتاج الى اعادة نظر فيه . فاذا اخذنا كل هذا بعين الاعتبار نجد ان هذه البقايا البربرية ، الى الفايكنج ، يكتسبون أهمية جديدة ، وعندها نستطيع ان نعيد دراسة ما هو معروف عن اسكندنافيين القرن العاشر .

اولا يجب ان نميز او نعترف بان الفايكنج لم يكونوا أبدا مجموعة موحدة بشكل واضح ، فما رآه الاوربيون لم يكن سوى مجموعات متناثرة ومنغلقة من جوالى البحار اتوا من منطقة جغرافية واسعة - فاسكندنافيا اكبر من البرتغال واسبانيا وفرنسا مجتمعة - وكانوا يبحرون من دويلاتهم الاقطاعية المنغلقة بغرض التجارة او القرصنة او كليهما ، فقلما كان الفايكنج يميزوا بين هذه وتلك . لكن ذلك ميل مشترك بين كثير من جوالى البحار بدءا من اليونانيين الى الاليزابثيين .

وفي الواقع فانه بالنسبة لشعب كان يفتقر الى الحضارة ولم يكن يشعر بالحاجة الى ان ينظر الى ما وراء المعركة القسادية فان الفايكنج يظهرون سلوكا هادفا ومنضبطا الى أبعد حدود الانضباط ، وكبرهان على تجارتهم واسعة الانتشار فان مقاطع اللغة العربية تبدأ بالظهور في اسكندنافيا بدءا من عام ٦٩٢ . وفي خلال الـ ٤٠٠ عام التالية امتدت رقعة انتشار القراصنة التجار من الفايكنج حتى وصلت

الى الارض الجديدة غربا ( نيو فاوند لاند ) وامتدت جنوبا حتى وصلت الى صقلية واليونان حيث ترك الفايكنج نحو منهم على اسود ( دلوس ) ، وشرقا حتى جبال الاورال في روسيا ، حيث تم اتصال تجارهم ، بالقوافل القادمة من طريق الحرير الى الصين . لم يكن الفايكنج بناء امبراطوريات ، ومن المؤلف القول ان تأثيرهم غير هذه المنطقة الواسعة لم يكن دائما او لم يترك اثرا دائما ، ولكنه دام بما فيه الكفاية ليورث اسماء اماكن لكثير من المناطق في انجلترا ، بينما أعطوا لروسيا اسم الامة نفسها . وذلك من اسم القبيلة الشمالية ( روس ) ، اما بالنسبة للأثر الاكثر وضوحا لفنهم الوثني ، ولطاعتهم التي لا تعرف الملل ولنظام القيم عندهم فان مخطوطة ابن فضلان تبين لنا كم من القيم الشمالية التقليدية قد تم الاحتفاظ بها حتى يومنا هذا . وفي الحقيقة فان هناك شيئا مألوفا الى حد كبير وشبهها بالرؤية المعاصرة لطريقة حياة الفايكنج كما ان فيها شيئا يحبها الى نفس القارىء بعمق .

### لمحة عن المؤلف

لا بد من كلمة عن ابن فضلان ، ذلك الرجل الذى يتحدث الينا بصوت متميز واضح ، رغم مضي اكثر من ألف عام ، ورغم مصافى الناقلين والمترجمين المنتمين الى عدد كبير من التقاليد الثقافية واللغوية .

لا تكاد نعرف عنه شخصا أى شيء . من الواضح انه كان متعلما مثقفا ، ومن تجاربه يبدو انه لم يكن متقدما فى السن . وهو يكتب بشكل لا لبس فيه مبينا أنه من معارف الخليفة الذى لم يكن يحبه كثيرا . ( لم يكن وحيدا فى هذا المجال ، لان هذا الخليفة - المقتدر - قد أطيح به مرتين ثم قتله واحد من ضباطه ) .

اما عن مجتمعه فانا نعرف اكثر من ذلك . فقد كانت بغداد ، مدينة السلام ، فى القرن العاشر الميلادى ، اكثر مدن الدنيا حضارة . وكان يعيش اكثر من مليون مواطن ضمن اسوارها الدائرة المشهورة . وكانت بغداد مركز الاستقطاب والاثارة الفكرى والسياسى ، يحيط بكل ذلك جو من الرشاقة والاناقة والبهاء

الخارقة للعادة . فكانت هناك حدائق معطرة ، وغابات ظليلة باردة ، كما كانت هناك الثروات المقدسة لامبراطورية مترامية الاطراف .

كان عرب بغداد مسلمين شديدي الايمان وكانوا على صلة بالشعوب تنظر وتتصرف وتفكر بطرق تختلف عن طرقهم . وكان العرب في الواقع اقل شعوب ذلك الزمان اقلية ، وهذا ما جعلهم مراقبين متفوقين للثقافات الاجنبية .

وواضح ان ابن فضلان ذكى دقيق الملاحظة فهو مهتم بكل الحياة اليومية ومعتقدات الشعب الذي يلتقى به . وكثير ما شاهده قد صدمه على انه سوقى ، بدىء وبربرى ، ولكنه لا يهدر وقته في اظهار استمزازة ، فما ان يعبر عن اعتراضه حتى يعود الى ملاحظاته التي لا تغفل شيئا . وهو يدون ما يراه بحد من العجرفة تشير الالعجاب .

قد يبدو أسلوبه في تدوين مشاهداته ذاتيا بالنسبة للمقاييس الغربية ، فهو لا يروى لنا قصة كما تعودنا أن نسمع القصص . ونحن ميالون لان ننسى ان حسنا الدرامي يرجع في اصوله الى تقاليد شفوية - وهو عرض حي مباشر يقدمه شاعر امام جمهور غالبا ما كان قلنا نافذ الصبر ، او ربما خاملا يغلبه النعاس بعد وجبة دسمة . فاقدم حكاياتنا ، كاللياذة وملحمة بيولف واغنية رولاند ، كانت جميعها مهياة لتغنى من بين مغنيين كانت مهمتهم الاساسية والتزامهم الاول التسلية والترفيه .

لكن ابن فضلان كان كاتباً ، ولم يكن هدفه الرئيسى التسلية ، كما لم يكن تمجيد راع يصفى اليه او تأكيد اساطير المجتمع الذي يعيش فيه . بل على العكس من ذلك ، كان ابن فضلان سفيرا يقدم تقريرا ، فلهجته هي لهجة محاسب ضرائب ، لا لهجة شاعر ، ولهجة عالم مهتم بالاصول الانسانية ، لا لهجة كاتب مسرحى . وهو في الواقع يستخف غالبا باكثر العناصر اثارة في روايته بدلا من ان يدعها تتداخل بسرده الواضح المسطح .

ويبدو ان هذه المزية ، مزية المراقبة البعيدة عن الذاتية ، تصبح احيانا مزعجة الى حد نمجز معه في التعرف على نوع من الملاحظين الخارقين للعادة كان ابن فضلان . فلمئات السنين تلت ابن فضلان كان العرف بين الرحالة ان يكتبوا احداثا خيالية عن



أعاجيب الأعاجم - كالحیوانات الناطقة والرجال المجنحين الذين يطیرون ، ولقاءات بأقراص البحر وأحادى القرن . وحتى مائتى عام مضت ، كان الاوربيون ، والذين كانوا فى غير هذه الاحوال اناسا واعين ، يملأون صحفهم ومجلاتهم بكلام هراء عن القردة الافريقية التى كانت تشن الحرب على المزارعين وغير ذلك .

اما ابن فضلان فانه لا يترك العنان لخياله . فكل كلمة تردده صدى صدق ، وحتى حين يدون ما سمع به سمعا فانه حريص على أن يبين ذلك . وهو حريص بنفس القوة أن يحدد متى يكون شاهد عيان : ولهذا يستعمل جملة « رايت بعينى الاثنتين .. رايت بام عينى » مرارا وتكرارا .

وفى النهاية ، فان خاصية الصدق المطلق هى التى تجعل روايته مرعبة الى هذا الحد . اما فيما يتعلق بلقائه بوحوش الضباب ، او « بأكلة الموتى » كما يسميهم ، فان قصته مروية بنفس تلك العناية بالتفاصيل ، ونفس ذلك الشك الواعى الذى يميز كل أجزاء المخطوطة الاخرى .

وعلى اية حال ، فالقارئ قادر على ان يصدر حكمه بنفسه .

والرجلان نمتقاها بالجبار حتى ماتت ثم وافتى  
 واسعدوا بالنار ثم مشى القمعة فى قناه الى السفينة و  
 من حطب السفينة فبذره واحدة بين الآخرين على باب أسسه وهو عريان  
 ن احرق الحطب المعيا الذى تحت السفينة ثم وافتى الناس بالحطب والقمعة ومع  
 القمعة تضئته نذ الحطب راسها فيقهره ذلك الحطب وينخذ النار في الحطب  
 نذ الحطب الجبار للدار بجمه ما فيها  
 عظيم سمعه ولا يه  
 نمرذج من المخطوطة البو

## الفصل الاول

### يوم ان غادرنا مدينة السلام

الحمد لله الرحمن الرحيم ، سيد العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين سيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم وحفظه في سلام دائم مقيم وصلى عليه الى يوم الدين .

وبعد فهذا كتاب احمد بن فضلان بن العباس بن الرشيد بن الحمد ، وهو وكيل لحمد بن سليمان سفير المقتدر الى ملك الصقالبة ، يروى فيه ما كان قد رآه في بلاد الاتراك وبلاد الهوزار وبلاد الصقالبة وبلاد الباسكر وبلاد الروس وبلاد اهل الشمال ، وما عرّفه من تاريخ ملوكهم والطرق التي يتعرفون حسبها في الكثير من شئون حياتهم .

وصلت رسالة المش بن بلطوار ملك الصقالبة ، الى أمير المؤمنين المقتدر . وقد طلب فيها أن يرسل من يستطيع أن يشقّفه في أمور الدين وأن يفقهه في الدين ويعرفه شسعاثر الاسلام ، وأن يبني له مسجدا وأن يشيد له منبرا يحمل رسالة الاسلام حتى يعتنقها شعبه في كل أرجاء المملكة ، وليقدم له النصيحة ايضا في مجال بناء الحصون والتحصينات ضد ملوك الخزر من اليهود الذين يعتدون على قومه . وقد رجا الخليفة أن يقدم له هذه الاشياء ، وكان الوسيط في هذه القضية هو دادر الحرامى .

لم يكن أمير المؤمنين المقتدر ، خليفة قويا عادلا ، لكنه كان أسير ملذاته وخطب ضباطه المتملقة الذين كانوا يسخرون منه ويطلقون النكات عليه خلف ظهره . أما أنا فلم أكن واحدا من هذه الجماعة ، كما لم أكن من المقربين الى الخليفة بصورة خاصة وذلك للسبب الذى سأذكره :

كان يعيش في مدينة السلام تاجر متقدم السن اسمه ابن قارن وكان رغم غناه في كل شيء يفتقر الى قلب كريم والى حب الانسان .

كان يخزن ذهبه وأيضا وبنفس الطريقة زوجته الشابة ، التي لم يكن قد رآها أحد ، ولكن الكل تحدث عن جمالها الذي كان يفوق كل وصف . وفي أحد الايام أرسلني الخليفة لاسلم رسالة لابن قارن ، فحضرت الى بيت التاجر واستأذنت بالدخول اليه ومعى رسالتي مختومة . وحتى هذا اليوم لا أعرف شيئا عن محتوى هذه الرسالة ، ولكن ليس هذا هو المهم .

كان التاجر خارج البيت يقضى بعض الاعمال . اوضحت للحاجب اننى يجب على ان أنتظر عودته لان الخليفة قد أمرنى بأن اسلم الرسالة باليد . وهكذا سمح لى البواب بالدخول الى البيت ، وهو الامر الذى استغرق بعض الوقت ، فباب البيت محصن بعدد كبير من الاقفال والقضبان والاعمدة كما هو مألوف فى منازل البخلاء . وبعد طول انتظار ادخلت البيت وانتظرت طيلة النهار ، حيث اشتد على الجوع والعطش ، ولكن لم يقدم لى أية مرطبات من قبل خدم التاجر العفن .

وفى آخر الظهيرة ، وبينما كل شيء حولى فى البيت ساكن والخدم نيام ، غالبنى النعاس انا ايضا . وفجأة رايت أمامى شبحا ملفعا بالبياض ، امرأة شابة جميلة عرفت فيها الزوجة التى لم يرها رجل أبدا . لم تنطق ببنت شفة الا انها قادتنى بإيماءة منها الى غرفة أخرى وهناك أقفلت على الباب . واستمتعت بها حالا وبلا انتظار ، وهى فى ذلك المجال لم تكن بحاجة الى أى تشجيع ، فقد كان زوجها عجوزا ، ولا شك مهملا ايضا . وهكذا مضى الظهر وبعد الظهر بسرعة كبيرة حتى سمعنا رب البيت يعود اليه . وفى الحال نهضت الزوجة وغادرت الغرفة ، ولم تكن قد نطقت بكلمة واحدة فى حضورى ، بينما تركت انا لأرتب ثيابى بسرعة وقلق .

كان يمكن ان أصاب بالهلع والخوف والجزع بالتأكيد لولا تلك الاقفال الكثيرة التى اعاقت دخول البخيل الى داره . ووجدنى التاجر ابن قارن فى الغرفة المجاورة ورماني بنظرة اشتباه وريبة متسائلا لم لست فى باحة الدار حيث ينتظر الرسل عادة . أجبته بأننى كنت جائعا واننى قد أفهمى على فقمت أبحث عن الطعام والظل . كانت تلك كذبة مفضوحة ولم يصدقها أبدا ، فاشتكى الى الخليفة الذى كما علمت سر للأمر فى سريره ولكنه اضطر لان

يلبس وجهه المبوس أمام الناس . وهكذا فحينما طلب حاكم الصقالبة بعثة من الخليفة ، أصر هذا الحاقد ابن قارن على أن أرسل أنا إلى هذه المهمة ، وهكذا كان .

كان من ضمن جماعتنا سفير ملك الصقالبة الذي كان يدعى عبد الله بن بسطو الهزاري ، والذي كان رجلا متعبا صاخبا ثرثارا . وكان هناك أيضا تاقن التركي وبارس الصقلي . كان كلاهما مرشدا في رحلتنا ، وفي الجماعة كنت أنا واحد منها أيضا . وكنا نحمل الهدايا للحاكم ولزوجته وأطفاله ولقاداته . كما كنا نحمل بعض العقاقير التي وضعت تحت رعاية سوسق الراسي . فكانت مجموعتنا اذن مشكلة على هذا النحو .

وهكذا انطلقنا يوم الخميس الحادي عشر من صفر سنة ٣٠٩ ( ٢١ يونية ٩٢١ ) انطلقنا من مدينة السلام ( بغداد ) . توقفنا يوما واحدا في نهر وان ، ومن هناك انطلقنا بسرعة حتى وصلنا إلىسكره حيث توقفنا لمدة ثلاثة أيام . ثم تحركنا قدما ودون أي التفاتات حتى وصلنا حلوان . وهناك بقينا يومين انطلقنا بعدها إلى قرمسين حيث مكثنا يومين أيضا . ثم انطلقنا في رحلتنا حتى وصلنا همدان حيث بقينا ثلاثة أيام . ومن هناك انطلقنا إلى صوى حيث بقينا يومين ومنها إلى رى حيث بقينا أحد عشر يوما بانتظار أحمد ابن علي شقيق الراسي لأنه كان في « حوار الرى » . ثم ذهبنا إلى « حوار الرى » وبقينا هناك ثلاثة أيام .

( هذا المقطع يقدم لنا صورة عن وصف ابن فضلان للرحلة والاسفار . وربما كان ربع المخطوطة أو يزيد مكتوبا بهذه الطريقة ، ساردا ببساطة أسماء المناطق وإقامته فيها وعدد الأيام التي قضاها في كل منها . لهذا فإن معظم هذه المادة قد تم حذفها ) .

( وواضح أن رفاق ابن فضلان كانوا مسافرين صوب الشمال وانهم في آخر المطاف اضطروا أن يتوقفوا بسبب الشتاء . )

كانت إقامتنا في الجرجانية طويلة ، فقد مكثنا هناك بعض أيام شهر رجب ( نوفمبر ) وطيلة شهر شعبان ورمضان وشوال . وكان سبب إقامتنا الطويلة هذه البرد وقساوته . وقد قيل لى أن رجلين أخذوا الجمال إلى الغابات ليأتيا بالحطب . ويبدو أنهما نسيا أن يأخذا قاذحة وفتيلا معهما ، ولهذا ناما طيلة الليل بدون نار .



وعندما أصبحنا في اليوم التالي وجدا أن الجمال قد تجمدت  
وتصلبت بسبب البرد .

والحق انى رايت سوق وشوارع الجرجانية مهجورة بسبب  
البرد ، فكان الواحد يستطيع أن يلذع الشوارع دون أن يلتقى  
بأى انسان . ومرة ، وبينما كنت خارجا من الحمام ، دخلت الى  
بيتى ونظرت الى لحيتى رايتها كتلة من الجليد وكان على أن افركها  
قريبا من النار . ولقد أمضيت ليلى ونهارى فى بيت كان ضمن بيت  
آخر حيث اقيمت خيمة تركية مصنوعة من اللباد ، كما لففت انا  
نفسى بثياب كثيرة وسجاجيد أيضا . ولكن رغم كل هذا كان خدائى  
غالبا ما يلتصقان بالوسادة ليلا .

فى هذا البرد القارس كنت أرى الارض تشكل أحيانا بعض  
الشقوق الهائلة ، وربما كنت تقع على شجرة هائلة قديمة وقد  
انشطرت نصفين بسبب هذه الشقوق .

فى حوالى منتصف شوال من عام ٣٠٩ ( فبراير ٩٢٢ ) بدأ  
الطقس يتغير كما بدأ النهر يدوب وبدأنا نجمع الأشياء الضرورية  
لرحلتنا ، فاشترينا جمالا تركية وقوارب جلدية مصنوعة من جلد  
الجمال وذلك استعدادا لعبور الانهار التى كان علينا أن نعبرها فى  
بلاد الأتراك .

كما جمعنا زادا ومؤونة من الخبز والدخن ( أو الجاروس ) واللحم  
المقدد يكفينا لثلاثة أشهر . ولقد نصحننا معارفنا فى المدينة الى  
لبس الكثير من الثياب وخزن الحاجيات قدر حاجتنا اليها . كما  
وصفوا لنا المشاق المقبلة علينا بتعابير مخيفة ، وكنا نعتقد بأنهم  
كانوا يبالغون فى قصتهم ، الا اننا حين جابهنا هذه المشاق وجدناها  
اعظم بكثير مما وصفوا .

ارتدى كل منا معطفا وفوق ذلك المعطف معطفا وفوق ذلك المعطف  
قفطانا وفوق القفطان عباءة وفوق هذا وذاك ارتدى كل منا خوذة  
من اللباد لم يكن يطل منها الا العينان . كما ارتدى كل منا تحت  
كل ذلك زوجا من الثياب الداخلية فوقها سروال كما ارتدى خفين  
يعلوهما حذاءان . فعندما كان الواحد منا يريد أن يعتلى جملة  
لم يكن يستطيع حراكا لكثرة ثيابه .

كان الفقيه والمعلم والرهط الذين سافروا معنا من بغداد قيد  
تركونا الان خشية دخول هذا البلد الجديد وهكذا فقد انطلقنا انا  
والسفير وصهره وحاجباه تاقن وباريس لوحدنا (١) .

اصبحت القافلة الان جاهزة للانطلاق استأجرنا مرشدا لنا من  
سكان المدينة كان اسمه قلاووظ . ثم ، معتمدين على الله القوى  
العزیز ، انطلقنا يوم الاثنين الثالث من ذي القعدة عام ٣٠٩  
( الثالث من آذار ٩٢٢ ) من بلدة الجرجانية .

وفي نفس ذلك اليوم توقفنا في البلدة المسماة زامكان اى بوابة  
بلاد الترك . وفي الصباح الباكر من اليوم التالي تقدمنا الى جت ،  
وهناك تساقط علينا من الثلج ما جعل الجمال تفوض فيه حتى  
الركب ، فتوقفنا هناك يومين .

ثم اسرعنا الخطا باتجاه مباشر صوب ارض الاتراك دون ان نلتقي  
باحد فوق هذا الجرف المستوى الاجرد . وغدنا الرجال طيلة  
عشرة ايام من البرد القارس والعواصف الثلجية التى لم تنقطع والتي  
اذا ما قورن برد خوارزم بها بدا وكأنه ايام صيف جميلة ، الى حد  
اننا نسبنا كل مشاقنا السابقة وكنا على وشك ان نتخلى عن  
مهمتنا كلها .

وفي احد الايام حينما كنا نتعرض لطقس من أشد ما عرفناه  
برودة كان الحاجب تاقن يركب بمحاذاتى ، وبجانبه احد الاتراك  
الذى كان يحدثه بالتركية . ضحك تاقن وقال لى : « هذا التركى  
يسأل : ماذا سيفعل الله بنا ؟ فهو يقتلنا من البرد . لو عرفنا ماذا  
يريد لقدمناه له » .

وعندها قات : « قل له ان الله يريد ان يقول « لا اله الا الله »  
ضحك وقال : « لو كنت اعرف ذلك لقلته » .

(١) خلال المخطوطة لا يبدو ابن فضلان دقيقا في وصف حجم وتشكيل مجموعته .  
وسواء كان هذا الاهمال يعكس افتراض ابن فضلان ان القارئ يعرف تشكيلة القافلة  
او انه كان نتيجة فقدان بعض فقرات النص ، فانه لا احد يستطيع ان يكون متاكدا من  
السبب وقد تكون الاعراف الاجتماعية عاملا في هذا ، لان ابن فضلان لا يبين ابدا ان  
مجموعته كانت تتجاوز عددا ، من الافراد قليلا ، بينما كانت في الواقع تعد مئة رجل او  
تزيد ، كما كانت تعد ضعف ذلك العدد من الخيول والجمال . لكن ابن فضلان لا يمد  
حرفيا الى العبيد والخدم واعضاء القافلة الاقل قيمة كاعضاء حقيقيين - في هذه البعثة .

ثم دخلنا فى غابة فوجدنا كميات كبيرة من الخشب الجاف فتوقفنا واشعل افراد القافلة النار وتدفأنا ثم خلعنا ثيابنا ونشرناها لتجف .

( من الواضح ان جماعة ابن فضلان قد بدأت تدخل الان فى منطقة دافئة لانه لا يشير من الان فصاعدا الى البرد القارس ) .

انطلقنا ثانية واستمرينا فى الرحيل كل يوم بدءا من منتصف الليل وحتى وقت صلاة الظهر ، حين كنا نبطيء السير ثم نتوقف نهائيا . بعد ان مضى علينا خمس عشرة ليلة على هذه الوتيرة من الترحال وصلنا الى جبل كبير عليه صخور كثيرة ضخمة هائلة ، كما وجدنا ينابيع ماء تنطلق من الصخور ويستقر ماؤها فى برك . ومن هذا المكان عبرنا الارض حتى وصلنا الى قبيلة تركية تسمى قبيلة اللاوغوز .

## الفصل الثانى

### تقاليد وطرق حياة الاتراك الاوغوز

الاوغوز قبائل رحل لهم بيوت من الشعر واللباد . يقيمون لفترة من الزمن فى مكان ما ثم يرحلون عنه الى مكان آخر . وبيوتهم موضوعة هنا وهناك طبقا لعادات القبائل الرحل . ومع انهم يعيشون حياة قاسية فانهم يشبهون الحمر التى ضلت . فليس بينهم وبين الله اية روابط دينية . وهم لا يصلون أبدا ولكنهم بدلا من ذلك يدعون رؤساء قبائلهم آلهة ، وحين يستشير أحدهم رئيس قبيلته حول أمر من الامور فانه يخاطبه قائلا « الهى ماذا افعل بهذا الامر او ذاك ؟ » .

وتصرفاتهم وممارساتهم تركز على المشورة فيما بين بعضهم البعض وحسب . ولقد سمعتهم يقولون « لا اله الا الله ومحمد رسول الله » ولكنهم يقولون هذا ليتقربوا من المسلمين لا لانهم يعتقدون به .

ويدعى حاكم الاتراك الاوغوز « يابغو » . وهو الاسم الذى يطلق على الحاكم كما . ان كل شخص يحكم هذه القبيلة يحمل هذا الاسم .

ولا يفتسل الاوغوز ابدا ، لا بعد التبرز ولا بعد التبول ، كما انهم لا يستحمون بعد الجنابة ولا فى اى مناسبة من المناسبات . فهم لا يستعملون الماء ابدا وخاصة فى الشتاء ولا يستطيع التجار او اتباع محمد ان يتوضؤوا بحضورهم الا ليلا حين لا يراهم الاتراك ، لانهم كانوا يفضبون ويقولون « هذا الرجل يرغب فى ان يسحرنا لانه يغير نفسه بالماء » ، وكانوا يجبرونه على دفع غرامة . ولا يستطيع اى من اتباع محمد ان يدخل بلاد الاتراك الا اذا وافق احد الاوغوز ان يستضيفه ، حيث يمكث معه ويقدم له الثياب والحلى من بلاد الاسلام ، ويجلب لزوجته بعض التوابل والدخن والزبيب والجوز . وعندما يصل المسلم الى بيت مضيفه ، يقيم له هذا الاخير خيمة ويقدم له الاغنام لكى يذبحها المسلم بنفسه . فالاتراك لا يذبحون ابدا ولكنهم يضربون الفم على رأسها حتى تموت .

ونساء الاوغوز لا يتحجبن ابدا بحضور رجالهن او الرجال الآخرين . كما لا تغطى المرأة ايا من اجزاء جسدها فى حضور اى شخص . فقد توقفنا فى احد الايام عند تركى وكنا جالسين فى خيمته . وكانت زوجة الرجل حاضرة . وبينما كنا نتبادل اطراف الحديث كشفت المرأة عن فرجها وحكته ، وقد رايناها تفعل ذلك فغطينا أعيننا وقلنا « استغفر الله العظيم » . عند ذلك ضحك زوجها وقال للمترجم « قل لهم اننا نكشفه بحضوركم فافضل ان ترونه علنا من ان تنالوه سرا » .

والزنا غير معروف بينهم ابدا فكل من يكتشفونه زانيا يقتلونه فيقربون غصنى شجرتين ثم يربطونه بالفصنين ويتركون الشجرتين تستقيمان مرة ثانية بحيث يشطر الرجل الذى ربط الى الشجرتين الى شطرين .

كما ان الاتراك يعتبرون عادة ممارسة اللواط خطيئة رهيبة . فقد حدث مرة ان تاجرا اتى ليقيم مع عشيرة كوداركن . وقد اقام مع مضيفه بعض الوقت ليشتري الفم . وكان للمضيف ابن امزد



فيحاول الضيف دون ياس أن يفوى الصبي حتى جعله يخضع لمشيئته . وفي تلك اللحظة دخل المضيف التركي وضبطهما بالجزم المشهود .

أراد الاتراك أن يقتلوا التاجر ومن ثم الصبي لهذا الجرم ، ولكن بعد توسلات كثيرة سمح للتاجر أن يفتدى نفسه . فدفع لمضيفه أربعمئة رأس من الغنم لقاء ما قبله بابنه ثم غادر التاجر بلاد الاتراك على جناح السرعة .

وينتف الاتراك لحاهم باستثناء الشوارب .

وعادات الزواج عندهم هي كالتالي : يطلب احدهم يد انثى من عائلة اخرى مقابل ( مهر ) قدره كذا وغالبا ما يتضمن المهر هذا جمالا ودوابا وأشياء اخرى . ولا يستطيع احد أن يتخذ لنفسه زوجة حتى يكون قد وفى بالتزامه الذى التزم به وتفاهم مع رجال تلك العائلة . فاذا ما وفى بهذا الالتزام فانه يأتى اليهم بدون رفاق دونما ضجيج أو لغط ويدخل المنزل الذى تقيم فيه العروس ويضاجعها ( يأخذها ) بحضور والدها وامها واخوتها فلا يمنعونه من ذلك .

واذا مات رجل له زوجة واطفال فان اكبر ابنائه يتخذها زوجة له ان لم تكن امه .

واذا مرض احد الاتراك وكان له عبيد ، فانهم يعتنون به ولا يقترب اى من افراد عائلته منه طيلة فترة مرضه . اذ تقام له خيمة منفصلة عن بيوت الآخرين ولا يغادرها حتى يموت أو يشفى اما ان كان عبدا أو رجلا فقيرا فانهم يتركونه فى الصحراء ويتابعون طريقهم .

وحين يموت احد الوجهاء يحفرون له حفرة كبيرة على شكل بيت ويذهبون اليه ويلبسونه قرطقا كما يلبسونه حزامه وقوسه ويضعون كأس شرب خشبية فيها مشروب مسكر فى يده . ثم يأخذون كل ممتلكاته ويضعونها فى ذلك البيت . ثم يضعونه هو نفسه فيه ايضا ثم يبنون بيتا آخر فوقه وينشئون فوقه قبة مصنوعة من الطين .

ثم يقتلون الخيول . يقتلون مئة أو مئتين ، حسب ما كان يملك منها ، وفى موقع القبر . ثم يأكلون لحمها ما عدا الرأس والحوافر والجلد والذيل التى يعلقونها على أعمدة خشبية ويقولون « هذه مراكبه التى سيركبها فى طريقه الى الفردوس » .

أما ان كان بطلا وقتل الكثير من الأعداء ، فانهم ينحتون تماثيل خشبية بعدد أولئك الذين قتلهم ويضعونها على قبره ، ويقولون « هؤلاء هم حجابهم الذين يقومون على خدمته فى الجنة » .

وهم أحيانا يؤجلون قتل خيوله ليوم أو يومين ، الى ان يحضهم احد شيوخهم قائلا « لقد رايت الميت فى نومى وقال لى : اصغ الى : انت ترانى ها هنا وقد تجاوزنى رفاقى حين دهمت قدمائى عن ان تلحق بهم . اننى لا أستطيع اللحاق بهم فبقيت وحيدا » . فى هذه الحالة يذبح الناس خيوله ويعلقونها فوق قبره ، وبعد يوم أو يومين يأتى اليهم نفس ذلك الشيخ ويقول « لقد رايت الميت فى حلمه وقال لى : قل لاهلى اننى قد نجوت من مأساتى » .

وهكذا يحافظ الشيخ على تقاليد الاوغوز ، اذ بغير هذه الوسيلة قد تنشأ الرغبة عند الأحياء بابقاء خيول الميت (١) .

وبعد طول انتظار عاودنا الرحيل عبر المملكة التركية . وفى صبيحة احد الايام التقينا بتركى . كان قبيح الشكل قذر المظهر وقبح الخلق وضيع الطبع . قال « قفوا » . فتوقفت القافلة اجمعها اطاعة لامره . ثم قال « لا يتقدم اى منكم » . قلنا له « نحن اصدقاء الكوداركن » . فبدأ يضحك ساخرا وهو يقول « ومن هو الكوداركن ؟ اننى احدى على لحيته » .

لم يدر اى منا ماذا يفعل حيال هذه الكلمات ، ثم صاح التركى قائلا « بكند » أى « خبز » فى لغة خوارزم . قدمت له بضع أرغفة من الخبز . فأخذها وقال « يمكنكم استئناف رجليتكم الان ! اننى أشفق عليكم » . وصلنا الى مقاطعة القائد العسكرى الذى كان اسمه اترك ابن القاطجان ، الذى بنى لنا خياما تركية لنقيم بها . وكان له نفسه مؤسسة ضخمة فيها الكثير من المنازل والخدم .

وقد ساق لنا الغنم لنذبحها كما وضع الخيول تحت تصرفنا

(١) يعتقد فارزان احد المعجبين بأبن فضلان بان هذه الفقرة الأخيرة تكشف عن حى عالم انسانى حديث لا يسجل عادات شعب من الشعوب فحسب وانما يسجل أيضا آلية الفعل والية التصرف ليثبت هذه الماديات . فالمعنى الاقتصادى لقتل خيول قائد قبلى رحال هو المبادل القريب من ضريبة الموت الحديثة ، أى أن هذا المعنى يبيل لتعطيل تراكم الثروة الموروثة فى عائلة ما . ورغم أنه مطلب دينى فان ما كان يمكن لهذا التصرف ان يكون ممارسة جماهيرية اكثر مما هو فى الوقت الراهن ويبين ابن فضلان بمهارة بالغة كيف كانت تفرض هذه الممارسة على المترددين .

لتركبها . ويتحدث الامراك عنه كأفضل فرسانهم ، وفي الحقيقة  
رأته في يوم من الايام ، عندما كان يتسابق معنا على فرسه ، وحين  
طارت اوزة فوق رءوسنا ، رأته يشد قوسه ثم يوجه فرسه الى  
ما تحت الاوزة ويطلق عليها سهمه ويصيبها ويقتلها .

قدمت له بزة من « الميرف » كما قدمت له زوجا من النعال من  
الجلد الاحمر ، ومعطفا من البروكار . وخمس معاطف من الحرير  
فتقبلها بفيض من تعابير المديح الحارة ، ورفع طرف معطفه البروكار  
الذي ارتداه لكي يعرض ثيابه الشرف ( التكريم ) التي قدمتها له  
لتوى . عندها رأيت أن القرطبي الذي كان يرتديه تحت معطف  
البروكار كان ممزقا قلدا ولكن علمت أن من عاداتهم أن لا يخلع  
الرداء الذي يرتديه ملامسا جسده حتى يفنى ذلك الرداء من تلقاء  
ذاته . وفي الحقيقة كان قد نتف كل لحيته وحتى شاربيه بدا  
لنا على صورة الخصى . ومع ذلك ، فكما لاحظت ، كان في الواقع  
أفضل فرسانهم .

كنت اعتقد أن هذه الهدايا الجميلة لابد وأن تكسبنا صداقته ،  
الا أن الامر لم يكن كذلك ، فقد كان رجلا خداعا مأكرا .

ففي أحد الايام ارسل في طلب القادة المقربين اليه ، وأعنى  
بذلك ترهان وينال وكلنر . كان ترهان الاكثر تأثرا بينهم ، كان  
كسيحا أعمى وذا يد مشوهة . استدعاهم ثم قال لهم « هؤلاء هم  
رسل ملك العرب لزعيم البلفار ، وأرى أنه لا يجوز لي أن اتركهم  
يمرون دون استشارتكم » .

عندها تحدث ترهان فقال « هذه قضية لم نر لها مثيلا من  
قبل . فلم يحدث أن اجتاز سفير السلطان بلادنا منذ أن كنا نحن  
وأجدادنا هنا . وانه ( استشتم ) مكيدة يدبرها لنا السلطان . فقد  
ارسل هؤلاء الرجال في الواقع الى قبائل الهوزار ليحركها ضدنا .  
فالأفضل أن نشطر أجساد هؤلاء السفراء الى شطرين وناخذ كل  
ما معهم » .

وأضاف مستشار آخر : « كلا فالأفضل أن نأخذ كل ما معهم  
ونتركهم عراة ثم يعودوا من حيث أتوا » .  
وقال آخر : « كلا فنحن لنأسرى عند ملك الهوزار فواجبنا أن  
نرسل هؤلاء لنفتديهم بهم » .

واستمروا في نقاش هذه الامور بينهم سبعة ايام بلياليها ، بينما نحن في حالة شبيهة بحالة الاموات حتى وافقوا اخيرا على فتح الطريق والسماح لنا بالمرور . قدمنا لترهان حلة شرف او تكريم مؤلفا من ( جبتين ) من « الميرف » وبعض التوابل والدخن وبعض أرغفة الخبز .

ثم استأنفنا رحلتنا حتى وصلنا الى نهر باجند . وهناك استقلينا قواربنا الجلدية التي صنعت من جلد الجمال بعد ان نشرناها وحملنا عليها بضائنا التي انزلناها عن الجمال التركية . وعندما كان يمتلئ القارب كانت تجلس فيه مجموعة من خمسة او ستة اشخاص ، يحملون بأيديهم اغصان اشجار يستعملونها كمجاديف ثم ياخذون بالتجديف بينما الماء تحمل القارب وتعزله في دوائر لولبية . واخيرا عبرنا . اما فيما يتعلق بالخيول والجمال فقد عبرت النهر سابعة لوحدها .

من الضروري جدا حين عبور نهر من الانهار ان تنقل اول الامر مجموعة من المحاربين مع اسلحتهم عبر النهر قبل كل القافلة حتى تقام نقطة حراسة وحماية لصد هجوم الباسكر بينما تقوم باقى القافلة بعبور النهر .

وهكذا عبرنا نهر باجندى ثم نهرا آخر يسمى غام بنفس الطريقة التى عبرنا بها النهر الاول . ثم عبرنا نهر اوديل وادرن ووارز واحتى ووبنا ، وكلها انهار كبيرة .

حتى وصلنا قبائل البسكنز . كان هؤلاء ينصبون خيامهم قرب بحيرة هادئة وكأنها البحر . وهم قوم سمر غامقو السمرة . كما انهم شعب قوى يخلق رجاله لحاهم . وهم فقراء بالمقارنة مع قبائل الاوغوز ، لاني رايت بين الاوغوز من كان يمتلك عشرة آلاف مبن الخيول ومائة الف من الفم . لكن قبائل البسكنز كانوا فقراء ولم نمكث بينهم غير يوم واحد .

ثم انطلقنا حتى وصلنا نهر جيحون . وهو اكبر واعرض واسرع نهر زائناه . وفي الحقيقة رايت بنفسى كيف كانت القوارب الجلدية تنقلب فيه راسا على عقب ويفرق كل من كان فيها . كثير من افراد جماعتنا ماتوا كما ان كثيرا من الجمال والخيول نفقت غرقا . عبرنا هذا النهر بصعوبة فائقة ثم غدينا الترحال لعدة ايام اخر وعبرنا



نهر سيحون ، ثم نهر آزن ثم نهر باجاج ثم نهر سمر ثم نهر كنال  
ثم نهر سوح ثم نهر كيقلو . وفيها النهاية وصلنا الى بلاد الباسكر .  
( تتضمن مخطوطة ياقوت وصفا قصيرا لمكوث ابن فضلان بين  
الباسكر ، الا ان العديد من العلماء يشكون في صدق هذه المقاطع .  
اما الوصف الحقيقي فهو غامض الى حد الغرابة قدر ما هو ممل ،  
وهو يتضمن بشكل رئيسي قوائم بأسماء الاسياد والنبلاء الذين  
التقى بهم . ويرى ابن فضلان نفسه ان الباسكر لا يستحقون ان  
يهتم بهم ، وهي بحد ذاتها جملة لا يمكن ان تصدر عن هذا الرحالة  
الذي لا يشبع فضوله ) .

واخيرا تركنا ارض الباسكر وعبرنا نهر جرمسان ثم نهر اورن  
ثم نهر اورم ثم نهر تيج ثم نهر امباش ثم نهر غاوش . وبين الانهار  
التي ذكرنا كان هناك بين كل نهر ونهر رحلة يوم او يومين او ثلاثة  
او اربعة ايام في كل حالة .

ثم وصلنا الى بلاد البلغار ، التي تبدأ عند شواطئ نهر الفولجا .

## الفصل الثالث

### اول اللقائات مع اهل بلاد الشمال

لقد رايت بام عيني كيف وصل رجال الشمال مع عتادهم ،  
واقاموا خيامهم على شاطئ نهر الفولجا (١) . لم ار في حياتي قط  
اناسا مردة كهؤلاء : فكلهم طوال كاشجار النخيل ، محمر و الوجنات  
موردوها . ولا يرتدون الشلحات ولا القفطان لكن الرجال منهم  
يرتدون ثوبا من القماش الخشن مردود الى احد الجانبين بحيث تبقى  
احدى اليدين حرة .

(١) في الواقع كانت الكلمة التي عبر بها ابن فضلان عن هؤلاء هي ( الروس ) ،  
وهو اسم قبيلة معينة من اهل الشمال . خلال النص يسمى احيانا الاسكندنافيين  
بالاشارة الى اسمائهم القبلية الخاصة ، ويسمى احيانا الفرنجة كتعبير عن الاصل  
( او المرق ) . ويحصر المؤرخون الآن استعمال تعبير الفرنجة بالاشارة الى المرتبة  
الاسكندنافية الذين استخدمتهم الامبراطورية البيزنطية . ومنعا لكل اختلاط ، قم في  
هذه الترجمة استعمال تعبيرى « اهل الشمال » و « رجال الروس » في كل مكان منها .

ويحمل كل من أهل الشمال فأسا وخنجرا وسيفا ، ولا تراهـم أبدا بغير هذه الأسلحة . وسيوفهم عريضة ذات خيوط مموجة وفرنجية الصنع . ومن رءوس أظافرهم حتى أعناقهم ترى الرجال منهم موشمين بصور الأشجار ، والأحياء والأشياء الأخرى . أما النساء منهم فيحملن على صدورهن صنادوقا صغيرا من الحديد والنحاس أو الفضة أو الذهب حسب غنى وثروات أزواجهن . كما يحملن خاتما مثبتا على هذه الصناديق وفوق الخاتم خنجرا ، والكل مثبت إلى صدورهن . وحول أعناقهن يلبسن الاطواق الذهبية والفضية .

انهم أقدر خلق الله . فهم لا ينظفون أنفسهم بعد الذهاب إلى المرحاض ، ولا يفسلون أنفسهم بعد الجنابة أكثر مما تفعل الحمر الشاردة .

وهم يأتون من بلادهم ويرسون سفنهم في الفولجا ، وهو نهر عظيم ، ثم يبنون على ضفتيه بيوتا خشبية . وفي كل من هذه البيوت يعيش عشرة أو عشرون أو أقل أو أكثر من ذلك . ولكل رجل مصطبة يجلس عليها برفقة البنات الجميلات اللواتي يعرضهن للبيع . وأحيانا يقوم بالاستمتاع بأحداهن بينما صديق له يتمتع النظر . وأحيانا يقوم عدد منهم بالقيام بنفس المتعة في وقت واحد وكل على مرأى من جميع الآخرين .

وبين وقت وآخر يلجأ تاجر إلى أحد هذه البيوت ليشتري فتاة فيجد سيدها مشغولا بعناقها ولا يكف عن ذلك حتى يقضى وطره . وهم لا يرون في هذا أمرا مشيرا للاستفراب .

وفي كل صباح تأتي جارية وتحضر معها طشتا من الماء وتضعه أمام سيدها . ويبدأ السيد بفسل وجهه ويديه ثم شعره الذي يمشطه فوق الوعاء . وبعدها ينظف أنفه ثم يبصق في الطست ، ينقل كل ذلك إلى الماء أمامه . وعندما ينتهى تحمل الفتاة الطست إلى الرجل الذي يليه والذي يقوم بنفس العمل . وهكذا تستمر بنقل الطست من رجل إلى آخر حتى يكون كل من في البيت قد مخط وبصق في الطست وغسل وجهه وشعره .

هذه هي طبيعة الأمور بين أهل الشمال كما رايتها بأم عيني . ومع ذلك فحين حللنا بينهم كان هناك بعض الشعور بعدم الرضى بين هؤلاء المردة ، والسبب يعود لما يلي :

كان رئيسهم الكبير وهو رجل اسمه وغلف قد وقع مريضا ، فأقيمت له خيمة مرض على مسافة من المعسكر وترك معه الخبز والماء . لم يقترب منه أو يكلمه أحد ، كما لم يزره أحد طيلة الفترة . ولم تعد عبيده ، لأن أهل الشمال يعتقدون أن الإنسان يجب أن يشفى من أى مرض يصيبه بقوته وقدرته . وكان الكثيرون بينهم يعتقدون أن وغلف لن يعود للانضمام اليهم في معسكرهم وأنه سوف يموت .

ولهذا تم اختيار واحد منهم ، وهو نبيل شاب يدعى بيولف ، اختير ليكون زعيمهم الجديد ، ولكنه لم يقبل طالما أن الزعيم المريض مازال حيا . كان هذا هو سبب الاضطراب حين حلولنا بينهم . إلا أنه مع ذلك لم تكن هناك أى من مظاهر الاسى أو البكاء بين الناس المعسكرين على نهر الفولجا .

ويعلق أهل الشمال أهمية كبيرة على واجبات المضيف . فهم يحييون كل زائر بحرارة وكرم ويقدمون له الماء واللباس ، كما يتبارى الكبار والنبلاء بينهم لكسب شرف أعظم التكريم . وقد حضر أعضاء قافلتنا أمام بيولف وأقيمت على شرفنا وليمة كبيرة ترأسها بيولف نفسه . وكان رجلا طويلا قويا ذا جلد وشعر ولحية بيضاء ناصعة البياض . وكانت له هبة الزعيم .

واعترافا بكرم الوليمة أكل رجالنا بشكل مثير للنظر ، ومع ذلك فقد كان الطعام كريها كما أن تقاليد الوليمة كانت تتضمن الكثير من التراشق بالطعام والشراب ، والكثير من الضحك والمرح . وكان مألوفاً في وسط هذه الوليمة الوقحة أن نبلا من نبلائهم يلهو بجارية على مرأى من جميع أتباعه .

حين رأيت كل ذلك أدت وجهى وقلت « استغفر الله رب العالمين » فضحك رجال الشمال طويلا لخرجى . وقد ترجم لى أحدهم بما معناه أنهم يعتقدون بأن الله ينظر بكثير من العطف الى مثل هذه الملذات المكشوفة . وقد قال لى « أنتم العرب مثل عجائز النساء ، انكم ترتجفون لمنظر الحياة » .

فقلت مجيبا « إنما أنا ضيف بينكم وأرجو من الله أن يقودنى الى طريق الصواب » .

وكان هذا سببا لمضحك تلاضحكم الاول ولكننى لم اجد سببا جعلهم يكتشفون نكتة فيما اقول .

وتحمل عادات اهل الشمال عميق الاحترام لحياة الحرب . وفى الحقيقة فان هؤلاء الرجال الضخام يجاربون باستمرار ، ولا يعرفون السلام ابدا لا بين بعضهم ولا بينهم وبين كل القبائل من كل الانواع . وهم يتغنون بأغاني حروبهم وشجاعتهم ، ويعتقدون بان موت المحارب وهو يقاتل هو اعظم الشرف .

وثناء وليمة بيولف غنى جماعة منهم اغنية عن الشجاعة والمعارك فلاقت اعجابا كبيرا رغم ان القليلين فقط اصفوا اليها . اذ ان خمر اهل الشمال القوية سرعان ماتحيلهم الى حيوانات وحمير شاردة . ففى وسط الاغنية كان هناك هتافات عالية ومبارزات مميتة بسبب خناقة بين محاربين . لم يتوقف المغنى عن غنائه رغم هذه الاحداث ، وفى الحقيقة رأت الدم المتطاير يرشم وجهه لكنه مسحه دون ان يتوقف عن الغناء .

لقد ترك فى ذلك اعظم الاثر .

وحدث الان ان امر بيولف الذى كان مخمورا كالاخرين ، بان اغنى لهم اغنية . وقد اصر على ذلك اصرارا كبيرا . ورغبة فى الاغضبهم رتل بعضا من القرآن الكريم بينما المترجم يكرر كلماتى بلسانهم . لكنهم لم يجدوا فيما رتل شيئا افضل مما فى اغاني مغنيهم الجوال ، وقد استغفرت بعد ذلك ربي على الطريقة التى استقبلت بها كلماته المقدسة واستغفرته ايضا على الترجمة ، التى احسست بانها كانت عقيمة ، لان المترجم نفسه كان فى الحقيقة سكرانا .

بقينا بين اهل الشمال يومين ، وفى صبيحة اليوم الثالث بدانا نهىء انفسنا للرحيل ولكن اخبرنا المترجم بان الزعيم وغلف قد مات فاثرت ان ابقى لاشهد ماسيحدث بعده .

فى بادىء الامر مددوه فى قبره الذى اقيم فوقه سقف ، وعلى مدى عشرة ايام حتى اتموا تفصيل وخياطة ثيابه (١) . ثم اتوا ايضا

كان هذا وحده كافيا ليدجل مشاهد اعربيا قادما من ملقس دافىء ، فالتقاليد الاسلامية تامر بالدفن السريع ، غالبا ما يكون فى نفس يوم الوفاة بعد مراسيم قصيرة من الغسل والصلاة عليه .



بأمتعته وممتلكاته الشخصية وقسموها الى ثلاثة اقسام . كان القسم الاول لعائلته ، والثاني ينفق على الثياب التي صنعوها له ، اما بقية القسم الثالث فيشترون به مشروبات قومية استعدادا لليوم الذي تسلم فيه احدى الفتيات نفسها للموت وتحرق مع سيدها .

ويسلمون انفسهم كلية لشرب الخمرة بشكل جنونى يشربونها ليلا ونهارا كما ذكرت سابقا . وليس من النادر ان يموت احدهم وكأسه في يده .

توجهت عائلة وغلف بالسؤال الى جميع فتياته ووصيفاته : من منكن ستموت معه ؟ وعندها اجابت احدها : انا . منذ اللحظة التي نطقت فيها بهذه الكلمة لم تعد حرة أبدا . حتى لو رغبت بالتراجع فانه لا يسمح لها بذلك .

تسلم الفتاة التي رضيت بذلك الى فتاتين اخريين تقومان بمراقبتها ومرافقتها حيثما ذهبت كما تفعلان أحيانا قديمها . وينهمنك الجميع باعداد الميت — يفصلون الثياب له ويهيئون كل ما هو ضرورى . وخلال كل تلك الفترة تسلم الفتاة نفسها كلية للشرب والفناء وتبقى مريحة فرحة .

## الفصل الرابع

في هذه الاثناء اكتشف بيولف ، وهو النبيل الذى سىلى فى الزعامة ، اكتشف منافسا كان يدعى ثور كل . لم اعرفه من قبل ، لكنه كان قبيحا قدرا وكان اسمر غامقا بالمقارنة بهذا العرق المتورد الاشقر . وقد تأمر ليصبح هو الزعيم . علمت كل هذا من المترجم لانه لم تكن هناك اى اعراض ظاهرة فى استعدادات الدفن يظهر بان اى شيء كان يجرى خلافا للعادة .

لم يشرف بيولف بنفسه على استعدادات الدفن ، لانه لم يكن من عائلة وغلف ، والعرف يقضى بان تهيب عائلة الميت امور جنازته . وهكذا انضم بيولف الى جموع المحتفلين والمبتهجين كما لم يمارس اى تصرف ملكى ، اللهم الا اثناء وليمة المساء ، حين جلس على المجلس العالى الذى كان مخصصا للملك .

كان يجلس على النحو التالي : عندما يكون أحد رجال الشمال ملكا حقا ، فانه يجلس على رأس الطاولة وعلى كرسي حجري كبير له ذراعان حجريان . هكذا كان كرسي وغلف ، لكن بيولف لم يجلس في هذا الكرسي كما قد يجلس أي انسان غادي ، بل جلس على أحد الدراعين ، وهو وضع اذى به الى السقوط حينما شرب كثيرا أو حين كان يفرط في الضحك . وكانت العادة انه لا يستطيع الجلوس على الكرسي حتى يتم دفن وغلف .

خلال كل هذا الوقت كان ثوركل يتأمر ويعقد الاجتماعات مع النبلاء الآخرين . وقد علمت انه كان يشتبه بى كمشعوذ أو ساحر مما أزعجنى كثيرا . وقد أخبرنى المترجم الذى لم يكن يصدق أيا من هذه القصص بأن ثوركل قال بأننى كنت السبب في وفاة وغلف كما انى كنت السبب في أن يصبح بيولف الزعيم الجديد ، ولكن والحق أقول ، لم يكن لى دور فى أى من هذه الامور .

بعد بضعة ايام ، طلبت اذنا بالرحيل برفقة ابن باسطو وتاقن وبارس ، ولكن رجال الشمال لم يسمحوا لنا بالمغادرة قائلين انه يجب علينا أن نبقى حتى يوم الجنازة ، ومهددين بطعننا بالخناجر التى كانوا يحملونها دائما وهكذا بقينا .

وحين حل اليوم الذى ستلتهم فيه السنة الذهب وغلف والفتاة قربت سفينته من شاطئ النهر ، ثم اقيمت حولها اربعة اكوام من الحطب والاششاب الاخرى كما وضعت حولها تماثيل خشبية كبيرة على شكل مخلوقات بشرية .

وفى هذه الاثناء بدأ الناس بالمشى جيئة وذهابا مرددين كلمات لم أفهمها . فلغة اهل الشمال ثقيلة على السمع يصعب فهمها . فى حين مدد الزعيم الميت فى قبره على مسافة من السفينة والذى لم يكونوا قد نقلوه منه بعد . ثم اتوا بما يشبه السرير ووضعوه فى السفينة ثم غطوه بالقماش اليونانى المذهب ووسائد من نفس القماش ثم جاءت حيزبون شمطاء كانوا يدعونها « ملاك الموت » فنشرت الحاجيات الشخصية على السرير . كانت هى التى اشرفت على خياطة الثياب وكل التجهيزات الاخرى ، كما كانت هى ايضا التى ستدبح الفتاة . لقد رأيت الحيزبون بعينى كانت سمراء ذاكنة غليظة البنية ولها ملامح تدخل الهلع الى القلب .

حين اتوا الى القبر أراحوا السقف وأخرجوا الميت ، عندها رايت بأنه قد أصبح أسود حالكا بفعل برودة تلك البلاد . وبقربه فى القبر وضعوا المشروبات القومية والقواكه كما وضعوا عودا ، وهذه أشياء أخرجوها كلها الان . أما وغلف الميت فانه لم يتغير فيه شيء الا لونه .

والان رايت بيولف وثوركل يقفان جنباً الى جنب يتبادلان تعابير الصداقة القوية اثناء مراسيم الدفن ، ومع ذلك كان واضحاً انه لم يكن ثمة أى صدق فى مظهريهما .

جلل الملك الميت وغلف بالثياب ، بدءاً من الثياب الداخلية الى الجرابات والحذاء والقفطان المصنوع من القماش المذهب كما وضع على راسه عمامة مصنوعة من القماش المذهب . ومزركشة بجلد السمور الاسود . ثم حمل الى خيمة فى السفينة ، وهناك أجلسوه على سرير منجد وسندوه بوسائد ثم أحضروا شراباً قوياً وفواكه وريحاناً وضعوها كلها بجانبه .

ثم أحضروا كلباً قطعوه نصفين وألقوا به فى السفينة . ووضعوا كل أسلحة وغلف بجانبه ثم جاءوا بحصانين جعلوهما يعدوان حتى صارا ينضحان عرقاً . بعدها قتل بيولف أحدهما بسيفه وقتل ثوركل الاخر ثم قطعوهما قطعاً صغيرة بسيفهما ورموا القطع فى السفينة . كان بيولف أقل سرعة فى قتل الحصان وقد بدا وكأن هذا كان ذا مغزى بالنسبة للمراقبين ولكننى لم أفهم مغزاه .

ثم أتى بشورين قطعاً قطعاً وألقيا فى السفينة . وأخيراً اتوا بديك ودجاجة فقتلوهما وألقوا بهما فى السفينة أيضاً .

فى هذه الاثناء كانت الفتاة التى نذرت نفسها للموت تتمشى جيئةً وذهاباً ، وتلج الخيمة بعد الاخرى من الخيام التى بنوها هناك . وكان كل من فى هذه الخيام يضاجعها وهو يقول « خبرى سيدك اننى ما فعلت هذا الا حبا به » .

وفى وقت متأخر من مساء ذلك اليوم قادوا الفتاة الى شيء كانوا قد أقاموه على شكل إطار الباب . وضعوا قدميهما على سواعد الرجال الممدودة فرقعها هؤلاء فوق الاطار . هناك نظقت بكلمات بلفتها وانزلوها بعدها . ثم رفعوها مرة ثانية ففعلت ما فعلته من

قبل . ومرة أخرى أنزلوها ثم رفعوها مرة ثالثة . ثم أعطوها دجاجة قطعت رقبتها ورمتها بعيدا .

استفسرت من المترجم عما كانت تفعل فأجاب : « في المرة الاولى قالت : الله ! انى ارى هنا أبى وامى ، وفي المرة الثانية : الله ! الان ارى كل اقاربى الموتى جالسين ، وفي المرة الثالثة : الله ! هو ذا سىدى يجلس فى الفردوس . ما أجمل الفردوس ما أروع خضرتها . ومعه ارى رجاله وغلمانه . انه يدعونى فخذونى اليه » . ثم قادوها الى السفينة . وهنا خلعت سواربها واعطتهما الى الحيزبون الشمطاء التى كانت تدعى ملاك الموت والتى سستقتها فيما بعد . ثم خلعت خلخالها وقدمتهما الى الوصيفتين اللتين كانتا تقومان على خدمتها ، واللتي كانتا ابنتى ملاك الموت . ثم رفعوها الى السفينة دون أن يدخلوها الى الخيمة .

والان جاء رجال بتروسهم وبلطاتهم وقدموا لها كاسا من الشراب القوى . أخذت الكأس وغنت فوقه ثم أفرغته فى جوفها وأخبرنى المترجم انها قالت « بهذا أرحل عن هؤلاء الاعزاء لى » ثم قدم لها كأس آخر شربته ايضا وبدأت بفناء طويل . وامرتها الحيزبون بأن تشرب الكأس حتى الجفاف ودون تباطؤ وأن تدخل الخيمة حين كان سيدها .

فى هذا الوقت بدا لى وكان الفتاة قد داخت وبدأت وكأنها تريد دخول الخيمة حين أمسكت الشمطاء بها فجأة من راسها وجرتها الى داخل الخيمة . فى هذه اللحظة بدا الرجال بالضرب على تروسهم بعضهم ليغيبوا ضجيج صيحاتها التى قد ترعب الفتيات الاخريات فتردعن عن طلب الموت مع اسبيادهن فى المستقبل . تبعها ستة رجال الى داخل الخيمة كان كل منهم يفتصبها بالدور . ثم القوا بها بجانب سيدها بينما أمسك رجلان بقدميها وآخرا بيديها . اما الحيزبون الشمطاء المعروفة بملاك الموت فقد عقدت الان حبلا حول عنقها واعطت طرفيه الى اثنين من الرجال ليشدوا العقدة ثم وبخنجر عريض الشفرة طعنت الحيزبون الفتاة بين أضلعها وسحبت الخنجر بينما استمر الرجلان بخنقها فى الحبل حتى ماتت .



اقترب أقارب الميت « وغلف » الان وأخذ أحدهم قطعة من الخشب الملتهب ومشى عاريا الى الخلف باتجاه السفينة واشعلها بما فيها دون أن ينظر اليها . وسرعان ما كانت الجنازة العائمة شحلة من اللهب بينما أصبحت السفينة والخيمة والرجل والفتاة وكل شيء آخر عاصفة من النيران الملتهبة .

كان احد الرجال يقف بجانبى ينطق ببعض التعليقات موجهها كلامه للمترجم . سألت المترجم عما قيل فجاءنى الجواب هكذا : « انتم العرب لا بد وأن تكونوا قوما أغبياء . فأنتم تأخذون أحب رجالكم اليكم وأكثرهم احتراماً وتلقون بهم تحت الأرض لتلتهمهم الزواحف والديدان ، بينما نحن نحرقهم فى رمشة عين بحيث يدخلون الجنة مباشرة ودون تأخير » .

وفى الحقيقة وقبل أن تمضى ساعة من الزمن كانت السفينة والخشب والفتاة قد تحولت جميعا مع الرجل الميت الى رماد .

## الفصل الخامس

### ما بعد جنازة اهل الشمال

لا يجد هؤلاء الاسكندنافيون سببا للحزن فى موت أى انسان فالفقير والعبد ليسا شيئا ذا بال بالنسبة اليهم ، وحتى زعيمهم لا يثير أى حزن او دموع ، ففى مساء نفس يوم جنازة الزعيم « وغلف » اقيمت وليمة كبرى فى قاعات معسكر الشماليين .

الا اننى لاحظت أنه لم يكن كل شيء على ما يرام بين هؤلاء البرابرة . تحدثت عن هذا مع مترجمى فأجاب على النحو التالى : « هى خطة ثوركل أن يراك تموت ، ومن ثم يقضى على بيولف . وقد حصل على دعم بعض النبلاء له ، ولكن هناك جدلا وخصاما فى كل بيت وفى كل حى » .

فقلت بكثير من القلق « ليس لى أى شأن فى هذه القضية فكيف اتصرف ؟ » .

أجاب المترجم بأن على أن أهرب أن استطعت ، ولكن أن قبض على فسيكون ذلك برهاناً أو دليلاً على ذنبي وسوف أعاقب كلص .  
وعاقب اللص على النحو التالي : يقسوده الشماليون إلى شجرة ضخمة . ويشدون حبلاً قويا حوله ثم يعلقونه ويتركونه هناك معلقاً حتى يتعفن ويسقط قطعاً متناثرة بفعل الريح والمطر عندها تذكرت أنني لم أنج من الموت إلا بصعوبة على يدى ابن القاطحان ففضلت أن أتصرف كما تصرفت من قبل ، أى بقيت بين الشماليين حتى يسمح لى بمغادرتهم وباتمام رحلتى .

استفسرت من المترجم عما إذا كان من واجبى أن أحمل الهدايا إلى بيولف وإلى ثوركل أيضاً لكى يحبدا رحيلى . فأجاب بأننى لا أستطيع أن أقدم الهدايا إلى أى منهما ، وأنه لم يتقرر بعد من سيكون الزعيم الجديد . ثم أضاف بأن هذا سيتضح خلال يوم وليلة على أبعد تقدير .

صحيح ليس عند هؤلاء الشماليين طريقة ثابتة لاختيار زعيم جديد حين يموت القائد القديم . فقرة السلاح لها أعظم الحساب . ولكن ولاءات المحاربين أيضاً والنبلاء والوجهاء لها قيمتها . وفى بعض الأحيان لا يكون هناك خليفة واضح للحاكم ، وكانت هذه الحالة إحدى تلك الحالات . وقد قال مترجمى أنه على أن أصبر وأن أصلى أيضاً . وهذا ما فعلت .

ثم هبت عاصفة هوجاء على ضفتى نهر الفولجا ، عاصفة استمرت يومين من المطر الجارف والرياح العاتية ، وبعد هذه العاصفة حط ضباب بارد على الأرض . كان سميكاً أبيض ولم يكن باستطاعة أى إنسان أن يرى على بعد أكثر من عشر خطوات .

إلا أن نفس هؤلاء المحاربين الشماليين المردة ، والذين بفضل ضخامتهم وقوة سواعدهم وتصرفاتهم القاسية كانوا لا يهابون شيئاً فى هذا العالم كله فانهم يخافون الضباب أو الصقيع الذى مع العواصف .

ويعانى رجال ذلك العرق الكثير لاختفاء خوفهم ، حتى بين بعضهم البعض . فالمحاربون يضحكون ويهرحون كثيراً ويحاولون التظاهر غير المبرر بعاطفة الهدوء . وبهذا يبرهنون على العكس . وفى الواقع

فان محاولاتهم لاختفاء خوفهم محاولات طفولية ، اذ ببساطة يدعون انهم لا يرون الحقيقة ، ومع ذلك فكل واحد منهم وفي جميع أنحاء المعسكر يقوم بالصلاة ويقدم الاضحيات من الدجاج والديكة واذا سأل أحد عن سبب الاضحيات ، يجيبه « انى أقدم الاضحيات من أجل سلامة عائلتي البعيدة » أو يقول « اى أقدم الاضحيات من أجل نجاح تجارتي » أو يقول « أقدم الاضحيات اكراما لهذا الفرد أو ذاك من أموات عائلتي » أو قد يقول أسبابا كثيرة أخرى ثم يضيف ! « وأيضا من أجل زوال الضباب » .

ولقد حسبته من الضرائب بالنسبة لهؤلاء الناس الاقوياء المحاربين أن يخافوا الى هذا الحد من أى شئ حتى يتظاهروا بعدم الخوف . ومن بين كل أسباب الخوف المعقولة بدا الصقيع والضباب لفكرى غير مفهوم على الإطلاق .

قلت لترجمى ربما يخاف الرجل من الريح أو من عاصفة رملية هوجاء أو من فيضان الماء أو من اهتزاز الأرض أو من البرق والرعد فى السماء ، فكل هذه قادرة على أن تؤذى انسانا أو تقتله أو تهدم منزله ، ولكن الضباب أو الصقيع ليس فيه تهديد أو إيذاء . وفى الحقيقة كان هذا اقل شكل من أشكال عناصر الطبيعة المتغيرة .

أجابنى المترجم باننى كنت أحتاج الى عقيدة البحار . وقال ان كثيرا من البحارة العرب يتفقون مع أهل الشمال فيما يتعلق بالقلق بسبب الضباب الملتف ، وكذلك بسبب الضباب أو الصقيع لجوالى البحار الكثير من القلق لان مثل هذه الحال تزيد من مخاطر السفر فى المياه .

قلت هذا معقول ولكن حين يسقط الضباب على الأرض وليس على الماء فاننى لم أفهم معنى أى خوف . جوابا على ذلك قال مترجمى الضباب دائما مخيف فى أى وقت اتى . وأضاف بأنه ليس هناك من فرق سواء على اليابسة أو فى الماء ، من وجهة نظر أهل الشمال . ثم قال لى ، ان الشماليين لا يخافون الضباب كثيرا حقا . وقال المترجم أيضا انه هو كرجل لم يكن يخاف الضباب . وقال انها قضية ثانوية ليست ذى بال . وأضاف « انها ليست سوى

الم بسيط داخل مفصل من مفاصل الاطراف قد يأتى مع الضباب لكنه ليس أكثر أهمية من ذلك » .

بهذا أحسست بأن مترجمى كالاخرين ينكر كل شكل من أشكال القلق بسبب الضباب ويتظاهر بالامبالاة .

وحدث فى هذه الاثناء ان الضباب لم ينقشع مع انه تبخر وأصبح رقيقا فى أواخر النهار ، كما بدت الشمس كدائرة فى السماء لكنها هى أيضا كانت من الضعف بدرجة استطعت معها ان أنظر فى قلب ضوئها مباشرة .

فى نفس هذا اليوم وصل قارب شمالى فيه نبيل من قومهم . كان رجلا شابا ذو لحية خفيفة ولم يكن يرافقه فى رحلته الا عدد قليل من الخدم والعبيد ولم يكن بينهم نساء . ولهذا اعتقدت انه لم يكن تاجرا اذ ان هذه المناطق يأتى الشماليون خاصة لبيع النساء .

أرسي هذا الزائر قاربه بنفسه وبقي واقفا عنده حتى هبط الليل . ولم يقترب منه أو يحييه أى انسان مع انه كان قريبا وعلى مرأى بصر الجميع . وقد قال مترجمى : « انه أحد اقرباء بيولف وسوف يستقبل ضيفا فى وليمة المساء » .

وسألت « ولماذا يبقى عند سفينته ؟ » .

« بسبب الضباب » أجاب المترجم وأضاف « يقضى العرف ان يبقى واقفا على مرمى البصر لعدة ساعات حتى يراه الجميع ويوقنوا انه ليس عدوا قادما من الضباب » . قال لى هذا بشيء من التردد .

فى وليمة المساء رأيت الشاب يدخل القاعة . وهنا حى بحرارة وبكثير من الدهشة خاصة من قبل بيولف الذى بدأ يتصرف كما لو ان الشاب قد وصل لتوه ولم يكن قد مضى عليه ساعات واقفا بجانب السفينة . وبعد تحيات كثيرةلقى الشاب خطابا عاطفيا أصفى اليه بيولف باهتمام غير هادى . لم يشرب ولم يداعب الجوارى ، ولكنه بدلا من ذلك أصفى الى الشاب بصمت بينما كان الشاب يتكلم بصوت عال جهير . وحين انتهى من قصته بدا وكأن الدموع تنساب من عينيه فقدمت له كأس من الشراب .

سألت مترجمى عما قاله الشاب . وكان هذا الجواب : « انه وولف غار ، ابن روث غار ، وهو أحد ملوك الشمال العظيم . وهو



قريب لبيولف ويطلب مساعدته ودعمه فى مهمة بطولية . يقول  
 وولف ان البلد البعيد يعانى الخوف ومن رعب لا يسمى وهو رعب  
 يعجز كل الناس وكل الاقوام عن مقاومته . وهو يطلب من بيولف  
 ان يسرع بالعودة الى البلد البعيد لينقذ شعبه ومملكة ابيه  
 روث غار .

سالت المترجم عن طبيعة هذا الرعب ، فقال لى « لا اسم له  
 أستطيع ان اخبرك به » . وبدأ المترجم شديد الاضطراب بسبب  
 كلمات وولف غار ، كما اضطرب لها كثيرا من اهل الشمال الاخرين .  
 ولقد رايت على ملامح بيولف تعابير داكنة حزينة ، فاستفسرت من  
 المترجم عن تفاصيل هذا المصاب . قال المترجم : « لا يمكن لفظ  
 الاسم فالتطق به محرم كى لا يستدعى الشياطين » . وبينما كان  
 يتكلم كنت ارى انه كان يخاف حتى من التفكير فى هذه الامور ،  
 وكان هلهله واضحا ولهذا توقفت عن السؤال .

كان بيولف يجلس صامتا فوق الكرسي الحجري . والحقيقة ان  
 جميع النبلاء والرجال والعبيد والخدم الحاضرين كانوا صامتين  
 ايضا . لم ينطق اى رجل فى القاعة بحرف واحد . اما الرسول  
 وولف غار فقد وقف امام الجمع حائى الرأس . لم ار فى حياتى  
 قط قوم الشمال المرحين صعبى المراس يمثل هذا الاسى والحزن .

ثم دخلت الى القاعة الحيزبون الشمطاء الملقبة بملاك الموت ،  
 وجلست تقرب بيولف ، ومن جقية مخبأة اخرجت بضع عظمت  
 لم ادر ان كانت عظاما بشرية ام حيوانية والقت بهذه العظمت على  
 الارض وهى تتمم بكلمات مبهمه وتمرر يدها فوق العظمت .

ثم جمعت العظمت والقيت ثانية واعيدت الكرة بكثير من الالحان  
 والدمدمة . ومرة اخرى القيت العظمتات ثم خاطبت بيولف .  
 استفسرت من المترجم عن معنى ما قالته لكنه لم يعرنى اى انتباه .

ثم ان بيولف وقف ورفع كأس شرابه القوى وخاطب النبلاء  
 والمقاتلين المجتمعين بخطاب طويل . وشيئا فشيئا وقف عدد من  
 المحاربين فى اماكنهم ليواجهوه . لم يقف الجميع . عددت الواقفين  
 فكانوا احدى عشر فعبر بيولف عن رضاه بهذا .

ورابت الان ايضا ان ثوركل كان بادی السرور بسبب ما جرى

واتخذ وضعاً أكثر ملوكية بينما لم يعره بيولف أى اهتمام كما لم يبد أى كراهية نحوه ولا حتى أى اكتراث ، مع أنهما كانا قبل قليل عدوين .

ثم أن ملاك الموت ، نفس تلك الحيزبون ، أشارت إليه ونطقت ببعض الكلمات ثم غادرت القاعة . وأخيراً تكلم مترجمى فقال : « أن بيولف مدعو من قبل الإلهة أن يفادر هذا المكان وبسرعة تاركاً خلفه كل قضاياها ومشاغله ليتصرف كبطل ويدفع مصاب الشمال . هذا مناسب وسوف يأخذ معه أحد عشر مقاتلاً ، كما سيأخذك أنت أيضاً معه » . قلت أنى فى مهمة إلى البلغار ، ولابد لى من اتباع أوامر خليفتى دون تأخير .

« لقد تكلمت ملاك الموت ! » هكذا أجاب مترجمى ثم أضاف « يجب أن تكون مجموعة بيولف ثلاثة عشر ، ويجب أن يكون أحد هؤلاء من غير أهل الشمال ، وهكذا فلا بد أن تكون أنت الثالث عشر » . فاحتججت على ذلك بأننى لست محارباً . وفى الحقيقة قدمت كل الاعتذارات والتوسلات التى خذرت على بالى والتى يكون لها أى تأثير على هذه الجماعة الوقحة من المخلوقات . وطلبت من المترجم أن يتقل كلماتى إلى بيولف ، إلا أنه أشاح بوجهه وترك القاعة وهو يقول لى هذه الكلمات الأخيرة « أعد نفسك كما تحسن ما يكون الأعداد . ستفادر معهم مع أول ضوء الصباح » .

## الفصل السادس

### الرحلة إلى البلد البعيد

بهذه الطريقة منعت من اتمام رحلتى إلى مملكة بلطوار ملك الصقالبة ولم أتمكن من حمل أمانة المقتدر أمير المؤمنين وخليفة مدينة السلام . أعطيت كل ما استطعت من معلومات وتعليمات إلى دادر الحرامى وإلى السفير أيضاً عبد الله بن بسطو الحزارى ، وإلى الخادمين : تاقن وباريس : ثم ودعتهم ولم أعد أدري بما جرى لهم بعد ذلك .

أما بالنسبة لى فقد اعتبرت نفسى فى حال ليست أفضل من حال رجل ميت . وسرعان ما أصبحت على ظهر احدى السفن الشمالية المبحزة شمالا فى الفالجا مع اثنى عشر من جماعتهم أما أسماء الآخرين فكانت كالتالى : بيولف الزعيم وضابطه المرافق اكثفو ثم نبلاؤه ورجالاته هفلخ ، اسكلز ، وث ، رونث ، هلفا ، ثم مقاتلوه ومحاربوه الشجعان : هلفدان ، ادغثه ، رثل ، هلتف ، وهرغر(١) . وكنت أنا بينهم ، غير قادر على التكلم بلغتهم أو فهم طرقهم ، لأن مترجمى كان قد ترك أيضا فلم يكن لى سوى الصدفة ورحمة الله التى جعلت من أحد مقاتليهم ، وهو هرغر رجلا ذا معرفة ومحيطا ببعض اللغة اللاتينية .

وهكذا كنت أستطيع أن أفهم من هرغر معنى الحوادث التى تلت . كان هرغر محارباً شاباً مرحاً شديد المرح ، وكان يبدو وكأنه يجد نكتة فى كل شيء ، وخاصة فى أساى وحزنى عند الرحيل . هؤلاء الشماليون هم حسب تقديرهم أفضل بحارة الدنيا ، ولقد رأيت مدى حبهم للمحيطات والمياه يشع من ملامحهم . أما عن السفينة فهاكم وصفها : كان طولها قدر خمسة وعشرين خطوة وعرضها ثمانية وأكثر من ذلك قليلا . كانت ممتازة البناء ومصنوعة من خشب البلوط . ربما كان لونها أسود من كل ناحية وفى كل جهة . وكانت مجهزة بشراع مربع الشكل من القماش المزركش بجبال مصنوعة من جلد الفئمة(٢) . وكان موجه الاشرعة يقف على مصطبة صغيرة بجانب مؤخرة السفينة ويشد دفة متصلة بجانب

(١) يلاحظ هنا أن وولف غار قد بقى مع أهل الشمال ولم يعد مع بيولف . يعلق جنسن على ذلك قائلا بأن أهل الشمال كانوا عادة يأخذون الرسول رهينة ، ولهذا كان الرسل المناسيون أبناء ملوك أو نبلاء عالى المقام أو أشخاصا ذوى قيمة فى مجتمعهم ، مما كان يجعلهم راهنن مناسبين . أما أولاف جركنسون فيدعى بأن وولف غار ما بقى هناك إلا خوفا من العودة معهم .

(٢) كان بعض المؤلفين القدامى يمتقدون بأن هذا كان يعنى أن الشراع كان مزودا بحبل يدخل فى الشراع ويخرج منه على شكل الخيطة ، وهناك رسوم ولوحات من القرن الثانى عشر تظهر اشرعة الفايكنج وعليها زركشة من الجبال . ليس هناك من دليل على أن الحالة كانت كذلك . ما عناه ابن فضلان أن هذه الاشرعة كانت مطرزة بالمفهوم النوتى ، أى انها موجهة فى أفضل زاوية لالتقاط الريح وذلك باستعمال حبال جلد الفئمة كمرابط .

السفينة على الطريقة الرومانية . كانت هذه السفينة مزودة بالمجاديف لكنها لم تستعمل أبدا ، ولكن كنا نتقدم بواسطة الأشرعة لوحدها . وعند مقدمة السفينة كان هناك نحت خشبي يمثل رأس وحش بحري رهيب ، كتلك التي نراها عادة على بعض سفن أهل الشمال . وكان هناك أيضا ذيل في المؤخرة . وفي الماء كانت هذه السفينة قوية ثابتة والرحلة فيها ممتعة ، كما أن ثقة المحاربين بأنفسهم قد رفعت من معنوياتي إلى حد كبير .

وعند موجه السفينة كان هناك فراش من الجلود مرتبة فوق شبكة من الحبال وفوقه غطاء من الجلد أيضا . كان ذلك هو فراش بيولف ، أما المحاربون الآخرون فقد كانوا ينامون هنا وهناك على ظهر السفينة بعد أن كانوا يتلفعون بالجلود ، وقد فعلت أنا مثلهم .

أبحرنا لمدة ثلاثة أيام في النهر وقد اجتزنا الكثير من البلدان والمستوطنات الصغيرة على ضفتيه . لكننا لم نتوقف في أي منها . ثم وصلنا إلى معسكر كبير في منعطف من نهر الفولجا . وهنا كان مئات من الناس ، كما كانت هناك مدينة كبيرة الحجم ، وفي مركزها كان هناك كنيسة ( كرمين ) وقلعة لها جدار من الطين وذات أبعاد كبيرة . سألت هرغر عن هذا المكان فقال لي : « هذه هي مدينة البلغار في مملكة الصقالبة وذلك هو قصر بلطوار ملك الصقالبة » . أجبت « هذا هو الملك ذاته الذي أرسلت لأقابه كممثل لخليفتي » وبكثير من التوسلات طلبت أن أنزل إلى الشاطئ لأقوم بالمهمة التي كلفتني بها خليفتي ، كما طلبت ذلك أيضا وبكثير من مظاهر الغضب حتى درجة الوقاحة .

لكن رجال الشمال لم يعيروني أي انتباه ، ولم يتنازل هرغر حتى للإجابة على تساؤلاتي ومطالبتي ، وأخيرا نظر إلى ضاحكا بسخرية ثم عاد ووجه انتباهه إلى أشرعة السفينة . وهكذا أبحرت سفينة الشماليين بجانب مدينة البلغار وقريبة من الشاطئ إلى حد كنت أسمع فيه صياح التجار وثرغاء الغنم ، ومع ذلك كنت بلا حول ولا قوة سوى مشاهدة ذلك المنظر بعيني . وبعد مرور ساعة حاولت مرة ثانية ولكن طلبى رفض أيضا ، إذ أن مدينة البلغار كانت على



منمطف من النهر كما قلت سابقا . وسرعان ما غابت عن ناظري .  
وهكذا دخلت ثم غادرت بلقاريا ( ربما أصبح القارىء الان مشوشا  
الى حد كبير حول جغرافية المنطقة . فبلغاريا الحديثة هي احدى  
دول البلقان ، تحدها اليونان ويوغسلافيا ورومانيا وتركيا . ولكن  
من القرن التاسع الى القرن الخامس عشر الميلادى كانت هناك  
بلغاريا اخرى على ضفتى الفولجا وعلى بعد حوالى ستمائة ميل  
شرقى موسكو الحديثة . وذلك هو المكان الذى كان يقصده ابن  
فضلان . اما بلغاريا التى كانت على الفولجا فكانت مملكة مهلهلة رغم  
بعض الاهمية ، كما ان عاصمتها بلغار كانت شهيرة وغنية عندما  
احتلها المغول فى عام ١٢٣٧ م ويعتقد بان بلغاريا الفولجا وبلغاريا  
البلقان كانتا ماهولتين بمجموعات عرقية متشابهة من المهاجرين  
الذين انطلقوا من مناطق حول البحر الاسود خلال الفترة ما بين  
٤٠٠ - ٦٠٠ م . ولكن المعلومات عن هذا الموضوع قليلة نادرة . وتقع  
مدينة البلغار القديمة فى منطقة قازان الحديثة ) .

مضى ثمانية ايام اخرى ونحن فى السفينة ومازلنا فى نهر  
الفولجا وكانت اليابسة أصبحت اكثر جبلية ووعورة حوالى حوض  
النهر . والان وصلنا الى رافد آخر من روافد النهر يسميه  
الشماليون نهر اوكر ، وهنا اتجهنا الى الرافد الواقع على اقصى  
اليسار ثم استمرينا فى رحلتنا عشرة ايام اخرى . كان الهواء باردا  
جدا وكانت الريح قوية وكان الكثير من الثلج ما يزال يغطى الارض .  
وكانت هناك غابات كثيرة هائلة الحجم فى هذه المنطقة التى يسميها  
الشماليون فادا .

وصلنا الى معسكر لاهل الشمال اسمه ماسبورنج . كان هذا اقل  
مما يمكن تسميته بلدة ولكنه معسكر من مجموعة قليلة من البيوت  
الخشبية مبنية بحجوم كبيرة على طريقة اهل الشمال . وتعيش  
هذه المدينة على بيع المواد الغذائية للتجار الذين يقصدونها عبر هذا  
الطريق . وفى ماسبورنج غادرنا سفينتنا وسافرنا برا على ظهر  
الخيول لمدة ثمانية عشر يوما . كانت هذه منطقة جبلية وعرة شديدة  
البرودة وكنت مرهقا بسبب طول الرحلة . وهؤلاء الشماليون  
لا يسافرون ليلا ابدا ، كما انهم نادرا ما يبحرون ليلا ، لكنهم يفضلون

أن يرسوا سفنهم في كل مساء وينتظرون بزوغ فجر اليوم التالي قبل استئناف الرحيل .

إلا أنه رغم ذلك وقعت الواقعة التالية : خلال فترة ترحالنا تلاشت فترة الليل الى حد لم يعد يكفي لطبخ اكلة من اللحم خلاله . وقد كان يبدو لي أنني ما أكاد أستلقي لنام حتى يوقظني الشماليون قائلين « أنهض لقد طلع النهار يجب أن نستأنف رحلتنا » . كما لم يكن النوم منشطا للقوى في هذه الأماكن الباردة .

أوضح لي هرغر أن النهار في بلاد الشمال يكون طويلا في الصيف ويكون الليل طويلا في الشتاء ، وأنه نادرا ما يكونان متساويين . ثم قال لي أنه على أن أراقب السماء ليلا لأرى ستارة السماء أضواء شاحبة متراقصة خضراء وصفراء وأحيانا زرقاء وهي معلقة وكأنها ستارة في أعالي الجو . وقد دهشت أعظم الدهشة لمنظر ستارة السماء ولكن أهل الشمال لا يعدونها شيئا غريبا .

ثم تابعنا السير لمدة خمسة أيام أخرى ونحن نهبط الجبال حتى وصلنا منطقة من الغابات . وغابات بلاد الشمال باردة كثيفة فيها أشجار ضخمة هائلة . كما أنها أرض رطبة باردة . وفي بعض المناطق هي من الخضرة بحيث تتألم العينان من بهر الألوان ، أما في مناطقها الأخرى فهي سوداء مظلمة مرعبة .

تابعنا السير لسبعة أيام أخرى خلال الغابات وقد واجهنا الكثير من المطر . وغالبا ماتكون طبيعة هذا المطر أن يسقط بغزارة تسبب الشعور بالخوف . وبين مرة وأخرى كنت أظن أنني سأغرق ، فقد كان المطر غزيرا لحد كان فيه الهواء نفسه مملوءا بالمطر . وفي فترات أخرى ، حينما كانت الرياح تقلد المطر كان يبدو وكأنه عاصفة رملية يقرص لحومنا ويحرق عيوننا ويعمي أبصارنا . ( أما وأن ابن فضلان قادم من منطقة صحراوية فلا عجب أن تبهره ألوان الخضرة الساطعة والمطر الغزير )

## الفصل السابع

لم يكن هؤلاء الشماليون يخافون اللصوص أبدا في الغابات وسواء كان ذلك بسبب قوتهم الهائلة أو نذرة عصابات اللصوص فأنني في الواقع لم أشاهد أحدا في هذه الغابات . فسكان بلاد الشمال قليلون

من كل صنف أو هكذا بدا لي خلال ترحالي هناك . وكنا غالبا ما نسافر لمدة سبعة أيام أو عشرة دون أن نرى مستوطنة واحدة أو مزرعة أو منزلا .

استمرت رحلتنا على الوجه التالي : كنا نستيقظ في الصباح ودون وضوء أو غسل كنا نمتطي جياذنا ونستمر في السفر حتى منتصف النهار . ثم كان بعض المحاربين يصطادون لنا صيدا حيوانا كان أو طيرا . اذا كان الوقت ممطرا كان هذا الطعام يؤكل دون طبخ . . . ولقد هطل المطر غزيرا لمدة أيام ، وفي أول الامر رضيت بأكل اللحم نيئا ، والذي لم يكن ذبجا حلالا ، ولكنني بعد فترة اكلته أيضا وأنا أقول « باسم الله » بصوت هامس ، وأنا أدعو الله أن يتفهم مصابي . وعندما لم تكن تمطر ، كانوا يوقدون نارا في منقل كانوا يحملونه معهم ثم يطبخون الطعام عليه . ولقد اكلنا أنواع التوت والأعشاب التي لا أعرف اسمها . ثم استأنفنا رحيلنا في الجزء الأخير من النهار والذي كان لا بأس بطوله ، وحتى هبوط الليل حين كنا نقف لنتراح ونأكل .

وكثيرا ما كانت تمطر في الليل ، فكنا نبحث عن ملجأ تحت الأشجار الباسقة ، ومع ذلك فقد كنا ننهض مبليين وجلود نومنا مبللة أيضا . ولم يتشكك أهل الشمال من كل هذا بل كانوا مرحين مبتهجين طوال الوقت . كنت أنا الوحيد الذي أشكو وبغضب . لكنهم لم يميروني أي اهتمام .

وأخيرا قلت لهرغر : « المطر بارد » فضحك ثم قال : « كيف يمكن أن يكون المطر باردا ؟ أنت البارد وأنت التعيس . أما المطر فليس باردا ولا تعيسا » .

كان واضحا لي أنه كان يؤمن بهذه الحماقة ، وكان يظنني حقا أحماقا أن أفكر بغير تفكيره ، ومع ذلك بقيت على تفكيري .

ثم حدث في ليلة من الليالي وبينما كنا نأكل أن قلت بادئا طعامي « باسم الله » ، فسأل بيولف هرغر عما قلت . أخبرته هرغر أنني اعتقد بأنه يجب ذكر اسم الله على الطعام ، وأنني فعلت ذلك انسجاما مع معتقداتي . فقال لي بيولف « أهذا هو أسلوب العرب ؟ » وكان هرغر هو المترجم .

فاجبت بما يلي : « كلا . في الحقيقة ان الذي يذبح الذبيحة هو

الذى يجب أن يذكر اسم الله . ولكننى أقول هذه الكلمات لنا  
أنسى .

وقد وجد الشماليون فى هذا سببا للضحك فضحكوا من أعماق  
قلوبهم . ثم التفت الى بيولف قائلا « هل تستطيع أن ترسم  
الاصوات ؟ » لم افهم قصده اولا فاستفسرت من هرغر ، ثم كار  
هناك حديث تداوله الاثنان ، واخيرا فهمت انه كان يعنى الكتابة  
فاهل الشمال يسمون حديث العرب ضجيجا أو أصواتا . أجبت  
بيولف اننى أستطيع الكتابة كما أستطيع القراءة . قال انه على أن  
أكتب له على الارض . وعلى ضوء نار المساء ، أخذت عصا وكتبت  
« الحمد لله » . نظر جميع الشماليين الى الكتابة ثم أمرت أن أقول  
ما تعنيه ففعلت . وفجأة حرق بيولف فى الكتابة لمدة طويلة ورأسه  
غارق فى صدره .

قال لى هرغر ، « أى اله هذا الذى تحمده ؟ » فأجبت باننى  
أحمد الاله الذى اسمه الله .

فقال هرغر « اله واحد لا يكفى » .

استأنفنا الرحيل ليوم آخر وقضينا ليلة أخرى ثم يوما آخر ،  
وفى مساء اليوم التالى تناول بيولف عصا ورسم على الارض ماكنت  
قد رسمته له وطلب الى أن أقرأها . فقلت بصوت عال « الحمد  
لله » . ظهرت ملامح الرضا على وجه بيولف لهذا ، وقد وجدت انه  
كان يمتحننى وقد احتفظ فى ذاكرته بالرموز التى رسمتها لكى  
يربنى اياها مرة أخرى .

أما اكثغو وهو مرافق بيولف ، ولكنه محارب أقل مرحا من  
الاخرين شديد المراس ، فقد خاطبنى بواسطة المترجم هرغر . قال  
هرغر « ان اكثغو يرغب أن يعرف ان كنت تستطيع أن ترسم صوت  
اسمه » .

فقلت اننى أستطيع ذلك ، وأخذت عصا وبدأت أرسم على  
القذارات . وفجأة قفز اكثغو وأطاح بالعصا وداس على كتابتى وهو  
يردد كلمات غاضبة .

قال لى هرغر « لا يرغب اكثغو أن تكتب اسمه فى أى ظرف كان .  
يجب أن تعد بذلك » .



وهنا انتابتنى الحيرة . وقد رايت ان اكثفوا كان غاضبا منى  
اشد الغضب . كما كان الآخرون يحدقون بى بقلق وغضب وعدت  
هرغرر الا ارسم اسم اكثفوا او اسم اى من الآخرين . عند هذا بدا  
الارتياح على وجوه الجميع .

لم يناقش بعد هذا موضوع كتابتى أبدا ، لكن بيولف ، وكلما  
كانت تمطر ، كان يأمر ان اساق الى شجرة كبيرة كما صار يقدم  
لى المزيد من الطعام عما كان قبلا .

لم تكن ننام دائما فى الغابات كما لم تكن دائما نركب خيولنا  
عبرها . فعند أطراف بعض هذه الغابات كان بيولف ورفاقه  
المحاربون يندفعون الى الامام وجيادهم تعدو خلال الاشجار الكثيفة،  
دون اهتمام او احساس بالخوف . ومع ذلك فعند غابات اخرى  
كان يشد اللجام ويتوقف ، وكان المحاربون يترجلون ثم يحرقون  
نارا ويقدمون قرايين من الطعام وبعض أرغفة الخبز القاسى ، او ربما  
يقدمون منديلا من القماش كقربان قبل ان يستأنفوا السفر . ثم  
يمتطون جيادهم دائرين حول طرف الغابة دون ان يدخلوا الى  
أعماقها .

استفسرت من هرغر عن هذا ، فأجاب بان بعض هذه الغابات  
كانت آمنة وان بعضها لم يكن كذلك ، ولكن ايضا لم يتجاوز  
هذا الحد . فسألته « ما هو الذى غير أمين فى الغابات التى تعتبر  
كذلك ؟ » فأجابنى بما يلى : « هناك اشياء لا يستطيع انسان ان  
يقهرها ولا يستطيع بسيف ان يقتلها ، ولا تستطيع نار ان تحرقها ،  
ومثل هذه الاشياء تعيش فى الغابات » . قلت « وكيف تتم معرفة  
ذلك ؟ » . هنا ضحك وقال « انتم العرب ترغبون دائما ان تكون  
عندكم الاسباب لكل شئ . وقلوبكم كيس كبير مملوء بالاسباب » .  
فقلت « وانتم الا تهتمون بالاسباب ؟ » فقال « انها لا تجدى شيئا .  
نحن نقول يجب ان يكون الانسان حكيما باعتدال ولكن ليس مفرط  
الحكمة حتى لا يعرف قدره مسبقا . فالانسان الذى يكون عقله  
متحررا من الاهتمام والحرص لا يعرف قدره مسبقا » .

هنا قلت انه لا بد لى من ان ارضى بجوابه . ففى الواقع فى بعض  
المناسبات كنت اثير بعض التساؤلات وكان هرغر يجيب عليها .

وحين لم اكن افهم جوابه كنت الح في السؤال وكان هو يفصل  
الجواب . ولكن في بعض الاحيان حينما كنت اثير بعض التساؤلات  
كان يجيب باقتضاب كما لو كان سؤالى بلا معنى . وعندها لم اكن  
الح في سؤالى ، اذ لم اكن اتلقى من جواب سوى هزة من رأسه .  
واستأنفنا الرحيل . واستطيع ان اقول بحق ان بعض الغابات  
في بلاد الشمال العذراء كانت تثير احساسا بالخوف لم اكن أدري له  
سببا . ففي الليل وبينما الشماليون متحلقون حول النار كانوا  
يقصون قصصا عن التنين والوحوش القاتلة ، ويحكون الحكايا أيضا  
عن اجدادهم الذين قتلوا هذه المخلوقات وكانوا يقولون ان هذه هي  
مصادر خوفي انا . ولكنهم كانوا يروون القصص دون أى مظاهر  
الخوف ، أما هذه الوحوش فلم أر اثرا لها بعينى .

في احدى الليالى سمعت دمدمة حسبتها رعدا ولكنهم قالوا انها  
صوت عويل التنين في الغابة . لست اعلم حقيقة هذا ولكنى أدون  
ما قيل لى .

بلاد الشمال باردة رطبة ، وقلما ترى الشمس فيها ، فالسما  
رمادية تغطيها السحب الكثيفة طيلة النهار . والناس في هذه المناطق  
شاحبو الوجوه وكأنها قماش قطنى ، أما شعورهم فشقاء شديدة  
الشقرة . بعد ايام عديدة من السفر لم أعد أشاهد أناسا سمرًا على  
الاطلاق ، وفي الحقيقة كان سكان هذه المناطق يستفربون لون جلدى  
وشعرى الاسود . وكثيرا ما اقترب منى مزارع أو زوجته أو ابنته  
ليلمسونى بشيء من الحذر والخوف . وكان هرغر يضحك ويقول  
انهم كانوا يحاولون ازالة لوني اعتقادا منهم باننى طليته على لحمى .  
انهم قوم جهلاء لا علم لهم بسمة هذا العالم . وكثيرا ما خافونى  
وتحاشوا الاقتراب منى . وفي أحد الاماكن الذى لا اذكر اسمه صاح  
طفل في رعب قاتل وجرى ليتعلق بأمه عندما رآنى .

عندها ضحك محاربو بيولف بفرحة طاغية . ولكنى لاحظت الان  
انه مع مرور الايام توقف محاربو بيولف عن الضحك ، وأصيبوا  
بنوبة مزاج سيئ كانت تزداد يوما بعد يوم . وقد قال لى هرغر انهم  
كانوا يفكرون بالشراب الذى كنا قد حرمانا منه لايام عديدة .

وفي كل مزرعة أو منزل كان بيولف ومحاربوه يسألون عن الشراب

الا ان هذه المناطق الفقيرة نادرا ماكان فيها شراب فكانوا يصابون  
بخبية امل عظيمة ، حتى اختفى كل اثر للمرح على وجوههم .

## الفصل الثامن

وبعد عناء طويل وصلنا قرية وجد فيها المقاتلون الشراب فاذا كل  
رجال الشمال مخمورون في رمشة عين وهم يشربون بطريقة صاخبة  
غير هابئين بالشراب الذي كان ينسكب على لحاهم وثيابهم وهم  
يشربون . وفي الحقيقة فان احد افراد المجموعة ، المحارب المتزن  
اكثف غرق في الشراب حتى سكر وهو لا يزال على حصانه وسقط  
وهو يحاول الترجل فرفسه الحصان في راسه ، وخفت على سلامته  
ولكن اكثف ضحك ورد رفسة الحصان برفسة مثلها .

بقينا في هذه القرية طيلة يومين ، وقد دهشت لذلك لانه في الماضي  
كان المقاتلون يظهرون استعجالا كبيرا وجدية في رحلتهم ، الا انهم  
هجروا كل ذلك الان مستسلمين الى الشراب والنوم العميق . وفي  
اليوم الثالث امر بيولف بان نستأنف الرحيل فتحرك المحاربون وانا  
بينهم ، ولم يعدوا خسارة يومين بالشئ القريب .

لم اعد متاكدا من عدد الايام التي قضيناها في السفر ، الا اننى  
اذكر اننا غيرنا خيولنا خمس مرات بخيول جديدة ، وكنا ندفع ثمن  
هذه الخيول في القرى ذهابا او اصدافا صغيرة خضراء قيمتها عندهم  
اثمن من اى شئ آخر في هذا العالم . وبعد عناء طويل وصلنا الى قرية  
اسمها لنبرغ تقع على شاطئ البحر . كان البحر رماديا مغبرا ،  
وكذا السماء ، كما كان الهواء باردا قارسا . هنا ركبنا سفينة  
جديدة .

كانت هذه السفينة ذات مظهر شبيه بمظهر السفينة الاولى ولكن  
اكبر حجما وكان الشماليون يسمونها هسبوغن ، اى عنزة البحر ،  
وذلك لان هذه السفينة كانت تشب على الامواج كما يشب ذكر الماعز  
على عنزته ، ولان هذه السفينة كانت سريعة ولان عند هؤلاء الناس  
كان الماعز هو الحيوان الذى يرمز الى السرعة .

كنت خائفا من ركوب هذا البحر ، فمياها عاتية باردة شديدة

البرودة ، فاذا غطست يد انسان في هذا البحر فانها تصاب بالخدر في رمشة عين ، كان مخيفا باردا . ومع ذلك فقد كان الشماليون مرحين وقد تبادلوا النكات وشربوا طيلة المساء في قرية لنبرغ البحرية ومتعوا انفسهم بكثير من النباء والاماء . وقد قيل لى ان هذه هي عادة اهل الشمال قبل القيام برحلة بحرية ، اذ لا يعرف احد ان كان سيبقى حيا حتى آخرها ، وهكذا فانه ينزل الى البحر باقصى ما يستطيع من المتعة .

في كل مكان وصلناه كنا نستقبل بكرم لا يعرف الحدود ، فالكرم عند هؤلاء القوم فضيلة كبرى حتى ان افقر الفلاحين كان يضع كل ما عنده امامنا ، يفعل ذلك دون خوف من ان نقتله او نسرقة ولكن بطيبة وكرم عال . ولقد علمت ان الشماليين لا يتحملون ابدا اللصوص والقتلة بين قومهم ويعاملون مثل هؤلاء الناس بقسوة بالغة . وهم يعتقدون بهذا رغم حقيقة كونهم دائما مخمورين يشفون كالحيوانات البلهاء ويقتلون بعضهم البعض في مبارزات حامية . ومع هذا فانهم لا ينظرون الى هذه المبارزات على انها جريمة قتل ، اما من يقتل منهم رجلا فانه يقتل فورا .

وبنفس الطريقة يعاملون عبيدهم معاملة طيبة للغاية ، مما اثار عجبى . اذا ممرض احد العبيد او مات بسبب مصيبة ما ، فانهم لا يعدون ذلك خسارة كبيرة ، كما ان النساء الجوارى عليهن ان يكن دائما مستعدات للاستجابة لطلب اى رجل في العلن او في الخفاء وليلا ونهارا . ليس عندهم اى عواطف تجاه العبيد ، ومع ذلك فلا يعاملونهم بوحشية ايضا ، فاسيادهم يطعمونهم ويلبسونهم دائما (١) .

وفيما بعد علمت ان اى رجل يستطيع ان يتمتع باية جارية ، الا ان زوجة احط المزارعين تقابل بمزيد من الاحترام من قبل زعماء ونبلاء الشماليين كاحترام هؤلاء الزوجات بعضهم البعض . فمحاولة اغتصاب امرأة حرة المولد ليست عبدة هي جريمة نكراء يحكم على الرجل بسببها بالشنق ، مع اننى لم ار هذا مطلقا .

(١) ماكتبه شهود عيان آخرون لا يتفق مع وصف ابن فضلان لمعاملة العبيد وللملاقات الجنسية ، ولذلك فان بعض المراجع تشك في مصداقيته كمراقب اجتماعى . وفي الواقع ربما كان هناك اختلافات محلية كبيرة بين قبيلة وأخرى في أعراف معاملة العبيد والزوجات الزانيات .



ويقال أن العفة بين النساء هي فضيلة كبرى ، ولكنني قلما رأيتها تمارس ، فالزنا لا يعتبر قضية خطيرة ، وإن كانت زوجة أى رجل غالى المقام أو خفيضة شهوانية فإن نتائج ذلك لا تعتبر أمرا ذا بال . فهؤلاء القوم متحررون جدا في هذه القضايا ، ويقول رجال الشمال أن النساء ماكرات ولا يمكن الوثوق بهن . ويبدو أنهم قد استسلموا لهذا الأمر ويتحدثون عنه بأسلوبهم المرح المعتاد .

سألت هرغر إن كان متزوجا فقال إن له زوجة . سألت بحذر بالغ إن كانت عفيفة فضحك في وجهي وقال : « أنا أسافر فوق البحار ، وقد لا أعود ، وقد أغيب سنوات طويلة . وزوجتي ليست ميتة » . من هذا أدركت أنها لم تكن مخلصة ، ولكنه لم يأبه لذلك . ولا ينتظر أهل الشمال إلى أى وليد على أنه نفل أو ابن زنا إن كانت الأم زوجة . أما أطفال العبيد فهم أحيانا عبيد وأحيانا أحرار ، ولا أعرف كيف يقرر هذا الأمر .

في بعض المناطق يعلم العبيد بعلامة هي قرط للأذن . وفي مقاطعات أخرى يرتدى العبيد عقدا من الحديد حول أعناقهم يحدد مكانتهم الاجتماعية . وفي بعض المناطق أيضا لا يوجد على العبيد أى علامات تدل عليهم وتلك هي العادة المحلية .

والعلاقات الجنسية الشاذة ليست معروفة بينهم ، مع أنهم يقولون بأن أقواما أخرى تمارسها ، أما هم أنفسهم فيدعون بأنهم لا يهتمون بالأمر ، وحيث أن مثل هذا لا يحدث بينهم فليس عندهم عقاب له .

هذا وكثير غيره علمته من أحاديثي مع هرغر ، ومن مشاهداتي لترحال جماعتنا . كما رأيت أيضا أن كل مكان كنا نرتاح فيه كان الناس يسألون بيولف عن المهمة التي قطعها على نفسه . وعندما كانوا يخبرون بطبيعتها - والتي لم أدركها حتى الآن - فانه ومخاربه وانا من بينهم كنا نحاط بأعظم الاحترام يرفعون صلاتهم دعاء بالتوفيق لنا ، كما يقدمون لنا أضحياتهم والحجب المحملة بأطيب التمنيات .

وفي البحر ، كما قلت سابقا ، يصبح الشماليون فرحين طروبين ، رغم أن المحيط كان عاتيا صاخبا ورهيبا بالنسبة لى ، وأيضا

بالنسبة لعدتي ، التي كانت تصاب دائما بالفشيان والاضطراب . وفي الحقيقة اقرغت معدتي مرة ثم سألت هرغر لم كان هو واصحابه فرحين الى هذا الحد .

قال هرغر « لأننا سنكون عما قريب في بيت بيولف ، Yatlam المكان المعروف باسم يتلم ، حيث يعيش والده وامه وكل اقاربه ، والذين لم يرههم منذ زمن بعيد . » فقلت مجيبا « ان نذهب الى بلاد وولف غار ؟ » وأجاب هرغر « نعم ، ولكنه من المناسب ان يتجه بيولف ليؤدي قروض الطاعة لوالده ولامه أيضا . » رايت في وجوههم ان كل النبلاء الآخرين والمحاربين كانوا فرحين قدر ما كان بيولف نفسه كذلك . فسألت هرغر عن سبب ذلك فأجاب « بيولف رئيسنا ونحن سعيديون لسفادته ولل قوة التي سيمتلكها عما قريب . » سألته عن القوة التي تحدث عنها فأجاب « انها قوة رندنج » ، فسألت أيضا « وما هذه القوة ؟ » فأجاب قائلا « انها قوة الاجداد ، انها قوة المردة » .

يعتقد اقوام الشمال انه في عصور خلت كان العالم ماهولا بعرق من الناس المردة الذين اختفوا منذ تلك الايام . ولا يعتبر الشماليون انفسهم احفادا لهؤلاء المردة ، ولكنهم ورثوا بعضا من قوى هؤلاء المردة الاقدمين ، وبطرق لا افهمها تماما كما يؤمن هؤلاء الوثنيون بآلهة عديدة ، والذين هم ايضا آلهة مردة ، ولهم ايضا قواهم الخارقة ، لكن المردة الذين تحدث عنهم هرغر كانوا رجالا مردة ، ولم يكونوا آلهة ، او هذا مابدا لي على الاقل .

في تلك الليلة رسونا عند شاطئ صخري مؤلف من احجار بحجم قبضة الانسلن ، وهناك تسكر بيولف مع رجاله وبقوا حتى الهزيع الأخير من الليل يشربون ويفنون حول النار . وقد اشترك هرغر في الاحتفال ولم يكن عنده من الصبر مايكفي ليترجم لي معنى الاغاني ، ولهذا لم ادر ماذا غنوا ، لكنهم كانوا سعداء . ففي صبيحة اليوم التالي سيحلون في دار بيولف ، في موطن بيولف المسمى يتلم .

رحلنا قبيل طلوع الفجر ، وكان البرد من القسوة بحيث شمعت بعظامي ثن ، وكان جسمي يتألم من قساوة الشاطئ الصخري . وكنا نسير فوق بحر صاخب وفي رياح هاتية . ابهرنا طيلة الصباح ،

وخلال هذه الفترة كان حماس الرجال يتزايد شيئا فشيئا حتى غدوا كالاطفال أو كالنساء . ولقد كان عجيبا غريبا على أن أرى هؤلاء المحاربين الاقوياء يقهقهون ويضحكون كحريم الخليفة ، ومع ذلك لم يجدوا في ذلك مايؤذي رجولتهم .

كانت هناك نقطة على الشاطئ عبارة عن نتوء صخري عال من الحجر الرمادي جاثم على البحر المقبر ، وقد أخبرني هرغر بأن وراء هذه النقطة تقع بلدة يتلم . حاولت جهدي عبثا أن أرى بيت بيولف الاسطوري حين استدارت سفينة الشماليين حول الجرف . أما المحاربون فكانوا يضحكون ويزيد صياح ابتهاجهم ففهمت أنهم كانوا يلقون نكات وقحة كثيرة عن خططهم للتمتع بالنساء عندما ينزلون من السفينة .

ثم كانت هناك رائحة دخان فوق البحر وبعد ذلك رأينا الدخان ، وفجأة صمت الجميع وكان على رعوسهم الطير . عندما التفقنا حول تلك النقطة رأيت بأم عيني أن تلك البلدة كان يغلها لهيب خائق ودخان اسود معتم . ولم يكن هناك أى اثر للحياة .

نزل بيولف ورجاله من السفينة ومشوا عبر بلدة يتلم . كانت منشورة هنا وهناك جثث الرجال والنساء والاطفال . وقد التهم بعضها اللهب بينما قطع بعضها الآخر السيوف - اكوام واكوام من الجثث . لم ينطق بيولف ورجاله ببنت شفة ولكن حتى في هذه الحالة لم يكن هناك أثر للحزن أو للبكاء أو للالام لم أر في حياتي قط قوما يتقبلون الموت كما يتقبله اهل الشمال . حتى انا نفسي أصبت بالفشيان مرات عديدة لمشاهد القتل والدمار ، ولكنهم لم يعانون مثل هذه الحال أبدا .

وأخيرا قلت لهرغر ، « من فعل هذا ؟ » أشار هرغر الى أعماق اليابسة ، الى الغابات والتلال المتباعدة عن المحيط المقبر . كانت هناك كتل من الضباب فوق الغابات أشار اليها هرغر دون أن ينطق بحرف . سألته « هل هي كتل الضباب ؟ » فقال « لا تسئل أكثر من ذلك . ستطلع على الحقيقة بسرعة تفوق حتى رغبتك . »

والآن حدث الاثنى : دخل بيولف أحد البيوت المدمرة التي كان يتصاعد منها الدخان ، ثم عاد اليها يحمل سيفها ضخما هائلا . كان

السيف من الضخامة والشغل ، والحرارة القوية التي تركتها فيسه  
النيران ما حمله يحمله وقد لف حول مقبضه قطعة من القماش .  
والحقيقة اقول كان ذلك اكبر سيف رأيت في حياتي . فقد كان بطول  
جسمه وكان حده مبسطا واسعا يشبه راحتي رجلين وضمتا جنبا  
الى جنب . وكان كبيرا ضخما الى حد ناء تحت حمله حتى بيولف  
نفسه . سألت هرغر عن هذا السيف فقال « ذلك هو رندنج » ،  
ثم امر بيولف بأن تتوجه كل الجماعة الى السفينة فانطلقنا في عباب  
البحر ثانية . لم يلق أى من المحاربين نظرة وداع على المدينة المحترقة ،  
« يتلم » ، أنا وحدي فعلت ذلك فرايت الدمار يعلوه الدخان ورأيت  
كتل الضباب على التلال المحيطة فيما وراء ذلك .

## الفصل التاسع

### الاقامة في ترلبرغ

على مدى يومين كاملين ابهرنا على طول شاطئ منبسط ما بين  
جزر كثيرة تسمى أرض الدانز ، ثم وصلنا أخيرا الى منطقة من  
المستنقعات فيها معابر من انهر صغيرة تصب في البحر . هذه الانهار  
لا اسم لها لكن كلا منها يسمى ويك او فيك ، واسماء اهالي مناطق  
هذه الانهار الضيقة هي الفاينكج او الواينكج ، والتي تعنى بالنسبة  
لاهل الشمال المحاربين الذين يبحرون بسفنهم على طول هذه الانهار  
ويهاجمون المستوطنات بطريقة الفاينكج (١) .

في هذه المناطق المستنقعية توقفنا في مكان يسمونه ترلبرغ ، كان  
بالنسبة الى أعجوبة من العجائب . فلم تكن هناك بلدة بالمعنى  
الصحيح ، ولكن كان هناك معسكر حربي ، واهله كانوا محاربين معهم  
القليل من النساء والاطفال . وكانت دفاعات معسكر ترلبرغ هذا تبني  
بحرص ومهارة كبيرين على طراز البناء الروماني .

(١) هناك بعض الجدل بين العلماء الحديثين حول أصل كلمة « فاينكج » ولكن معظمهم  
يوافقون ابن فضلان على رأيه بأنها مشتقة من كلمة فيك Vlk والتي تعنى نهرا  
ضيقا صغيرا .

تقع ترلبرغ عند ملتقى نهرين يصبان بمد ذلك في البحر .  
والجزء الاساسى من البلدة محاط بسور دائرى من الطين وبعلو  
خمسة رجال يقفون فوق بعضهم البعض . وفوق هذه الحلقة  
الطينية كان يقوم سياج خشبى يؤمن حماية اكبر . اما خارج هذه  
الحلقة الطينية فكان هناك حفرة مملوءة بالماء لم اعرف عمقها .

هذه المنشآت الترايبية كانت مصنوعة بشكل ممتاز ، وفيها  
تناسق ونوعية من الجودة لايتنافسها اى شىء اعرفه . وكان هناك  
ايضا مايلى : في الجانب المحاذى لليابسة من البلدة كان هناك سور  
عال على شكل نصف دائرة وكان هناك حفرة ثانية ورائه .

اما المدينة نفسها فتقع ضمن اطار الحلقة الاولى التى يشقها  
اربعة ابواب ، بمواجهة زوايا الارض الاربع . وكل بوابة مجهزة  
بابواب قوية من خشب البلوط لها مفاصل ثقيلة من الحديد ،  
ويحرسها رجال كثيرون . كما ان كثيرا من الحرس يتجولون فوق  
المتاريس والاسوار ، ويقومون بالحراسة والمراقبة ليل نهار .

هناك داخل اسوار البلدة ستة عشر منزلا خشبيا متشابهة تماما :  
كلها بيوت طويلة ، كما يدعوها اهل الشمال ، لها جدران منحنية  
بشكل يشبه القوارب المقلوبة وقد قطعت نهاياتها وبسطت في المقدمة  
والمؤخرة . طولها ثلاثون خطوة وهى اكثر اتساعا في جزئها الوسط  
منها في النهايتين . وهى مرتبة على الوجه التالى : كل اربعة بيوت  
طويلة تقام بشكل محكم الترتيب بحيث تشكل مربعا . وهكذا ترتب  
اربع مربعات ليكون مجموعها ستة عشر بيتا (١) .

كل بيت طويل له مدخل واحد ، ولا يمكن ان يكون مدخل اى  
من البيوت على مرأى من البيت الاخر . سالت عن سبب ذلك ،  
فاجاب هرغر قائلا : « اذا هوجم المعسكر ، فيجب على الرجال ان  
يسرعوا الى مواقع الدقاع ، وتكون الابواب عادة وبهذا الشكل مرتبة  
بشكل يمكن الرجال من الاسراع الى مواقع دفاعهم دون اختلاط او

(١) هناك من يؤكد صحة كلام ابن فضلان عن طريق الدليل الاثارى ( الاركيولوجى )  
ففى عام ١٩٤٨ تم التنقيب واكتشاف الموقع المسمى لترلبرغ فى زيلندة الغربية فى  
الدانمرك . . . والموقع يتطابق تماما مع وصف ابن فضلان لحجم وطبيعة وتركيب  
المستوطنة .



إضطراب ، بل على العكس يستطيع كل واحد منهم أن ينطلق بحرية وسرعة ليأخذ مواقعه في الدفاع .

وهكذا فانه ضمن المربع الواحد يكون باب أحد البيوت متجهًا الى الشمال ، والذي يليه الى الشرق ، والذي بعده الى الجنوب والرابع الى الغرب ، وهكذا ايضا هي الحال في كل من المربعات الاربعة .

ثم انى رأيت انه في حين أن هؤلاء الشماليين كانوا ضخاما مردة ، فقد كانت هذه البوابات او المداخل منخفضة جدا كنت حتى انا اضطر معها لان انحنى عند الدخول الى أحد هذه البيوت فسالت هرغر عن سبب ذلك فأجابنى « اذا ما هوجمنا يمكن أن يبقى محارب واحد داخل البيت . وبسيفه يستطيع قطع رءوس كل من يحاول دخول البيت . فالباب منخفض جدا بحيث يضطر أى داخل أن يرسل رأسه أولا فيتم قطعه . وفي الحقيقة وجدت أن ترلبرغ في كل مجالات الحياة كانت بلدة مصممة للحرب والدفاع . لم تكن تجرى أية تجارة هنا كما قلت سابقا . اما داخل البيوت الطويلة فهناك داخل كل بيت ثلاثة اقسام او غرف ولكل منها باب . والغرفة الوسطى هي الاكبر وفيها حفرة لالقاء الزبالة .

ادركت الان بأن اهل ترلبرغ لم يكونوا كالشماليين المقيمين على نهر الفولجا . فهؤلاء كانوا قوما نظيفين بالنسبة لعرقهم . فقد كانوا يفتسلون في الانهار ، ويتخلصون من فضلاتهم خارج الابواب فى العراء وكانوا في كل مجال اكثر تفوقا مما عرفته من قبل . ومع ذلك لم يكونوا نظيفين بكل معنى الكلمة اللهم الا من باب المقارنة .

اما مجتمع ترلبرغ فمعظمه من الرجال ، والنساء كلهن جوارى اذ ليس هناك من زوجات بين النساء ، كما ان كل النساء هناك يتم الاستمتاع بهن بحرية وحسب رغبة الرجال . ويعيش اهل ترلبرغ على السمك وبعض الخبز القليل ، وهم لا يقومون بأية زراعة او فلاحة ، رغم أن الاراضى المستنقعية المحيطة بالبلدة تحوى مناطق ملائمة للزراعة . سألت هرغر لماذا ليس هناك زراعة فأجابنى قائلا « هؤلاء محاربون . انهم لا يحراثون الارض » .

استقبل بيولف ورفاقه استقبالا رائعا من قبل زعماء ترلبرغ الذين كانوا عديدين ، والذين كان اكثرهم صدارة واحد يسمى ساغارد . وساغارد هذا رجل قوى عنيف وضخم ضخامة بيولف نفسه تقريبا .

وخلال وليمة المساء استفسر ساغارد من بيولف عن مهمته واسباب سفره فاخبره بيولف عن تضرعات ورجاءات وولف غار . وكان هرغر يترجم لى كل ما يقال رغم انى فى الواقع كنت قد قضيت بين هؤلاء الوثنيين وقتا كافيا لاتعلم كلمة واحدة او اثنتين من لغتهم هاكم معنى الحديث الذى جرى بين ساغارد وبيولف . تحدث ساغارد فقال : « من المعقول والمنطقي بالنسبة لبيولف ان يقوم بمهمة الرسول ، رغم انه ابن الملك روث غار ، لان ابناء روث غار العديدين قد انقلبوا بعضهم على بعض » .

اجاب بيولف بانه لم يكن يعرف شيئا عن هذا او شيء بهذا المعنى ولكنى لاحظت بانه لم يكن شديد الدهشة لذلك . كان بيولف نادرا ما يصاب بالدهشة من اى شيء . فقد كان هذا من جملة متطلبات دوره كزعيم وقائد للمحاربين وبطل لهم .

تحدث ساغارد ثانية فقال « فى الحقيقة روث غار له خمسة ابناء ، مات ثلاثة منهم على يدى واحد منهم هو وغلف المكار (١) الذى كان شريكه فى المؤامرة منادى الملك الصجوز . وولف غار وحده هو الذى بقى مخلصا وقد غادره الان » . اجاب بيولف ساغارد بانه كان سميدا لان يسمع بهذه الاخبار وانه سوف يقيها فى ذاكرته ، وانتهى الحديث عند هذا الحد . ولم يظهر بيولف ولا اى من رجاله اية دهشة لكلمات ساغارد ، فهبت من هذا انه من المعتاد ان يتخلص ابناء الملك بعضهم من بعض ليصلوا الى العرش .

(١) الكلمة المستعملة هنا كانت حرفيا « رجل يجيد استعمال يديه الاثنتين » كما سيتطوع فيما بعد كان الشماليون مزدوجى الايدى فى الحرب ، وكانت القدرة على نقل السلاح من يد الى اخرى تعتبر حيلة زائفة . ومكلا فان تعبير « يجيد استعمال يديه الاثنتين » يعنى انه رجل مكار او ماهر . وقد اعطيت كلمة زئبقى معنى مشابها ، بينما تعنى الان « خداع مناور » ، ولكن فى السابق كان لها معنى اكثر ايجابية اى « صاحب موارد وفيرة » او « كثير المناورة » .

وصحيح أيضا انه من وقت لآخر قد يقتل الولد اباه الملك ليصل الى العرش ، ولا يعتبر أمرا غريبا اذ ينظر اليه الشماليون كما ينظرون الى أى شجار بين سكارى المحاربين . ويردد أهل الشمال مثلا شعبيا يقول « انظر خلفك » وهم يعتقدون بأن على كل انسان ان يكون مهيبا دائما لان يدافع عن نفسه ، حتى بالنسبة لوالد تجاه ولده .

عند رحيلنا سألت هرغر لماذا بنى تحصين آخر في القسم الممتد صوب اليابسة من ترلبرغ ولم يبنوا تحصينا اضافيا كهذا باتجاه البحر . فهؤلاء الشماليون قوم جوابون للبحار بل ويهاجمون من البحر ، ومع ذلك اجاب هرغر قائلا « انها الارض ، انها اليابسة التى هى مصدر الخطر » . فسأله « ولماذا تكون الارض خطرة ؟ » فأجاب « بسبب كتل الضباب » .

### الفصل العاشر

عند رحيلنا من ترلبرغ قام المحاربون المجتمعون هناك بضرب بلطاتهم على تروسهم مسببين بذلك ضجة كبيرة وكله من أجل سفينتنا التى كانت قد نشرت قلوعتها . وقد اخبرت بأنهم يفعلون ذلك لجر انتباه اودن ، أحد آلهتهم لكى يرعى اودن هذا بمعطفه رحلة بيولف ورجاله الاثنى عشر .

ثم علمت هذا أيضا : وهو أن الرقم ١٣ هو رقم ذو أهمية كبرى بالنسبة لأهل الشمال ، لان القمر ينمو ثم يصبح هلالا ثم يموت ثلاث عشر مرة في العام في حسابهم . ولهذا السبب فان كل حساباتهم المهمة يجب أن تحوى على الرقم ١٣ . وهكذا اخبرنى هرغر بأن عدد مساكنهم فى ترلبرغ كان ثلاثة عشر يضاف اليها ثلاثة أخرى بدل أن يقول ستة عشر كما عبرت عنها أنا من قبل .

وأكثر من ذلك علمت أن لدى الشماليين عقيدة مفادها السنة لا تتفق تماما وبدقة مع ثلاثة عشر مرورا للقمر ، ولهذا فان الرقم ١٣ ليس ثابتا ومثبتا فى عقولهم فمروره الثالث عشر يسمى بالسحري

او الاجنبى ، ويقول هرغر « ولهذا اخترناك وجلسنا الثالث عشر  
باعتبارك رجلا اجنبيا » .

والحقيقة ان هؤلاء الشماليين قوم يؤمنون بالخرافات دون رجوع  
الى المنطق او العقل او القانون وكانوا يبدون لعينى وكأنهم اطفال  
متوحشون ، ومع هذا فقد كنت بينهم ولهذا سكت عن كل تعليق .  
وسريعا ما اكتشفت لشدة سرورى مدى حصافتى فى هذا الامر ،  
لان الاحداث بدأت تجرى على الشكل التالى : كنا قد ابهرنا لبعض  
الوقت مبتعدين عن ترلبرغ عندما استذكرت انه لم يحدث قط من  
قبل ان قدم سكان بلدة ما طقسوس الرحيل بالضرب على التروس  
لاستدعاء اودن . تحدثت بهذا لهرغر فاجاب : « هذا صحيح فهناك  
سبب خاص للدعاء لاودن لاننا الان فوق بحر الوحوش » وقد بدا لى  
ذلك برهانا على ايماناتهم الخرافية : سألت عما اذا كان اى من  
المحاربين قد رأى مثل هذه الوحوش . فقال هرغر « فى الحقيقة  
لقد رأيناها جميعا . والا فكيف نعرفها ؟ » .

ومن نبرات صوته كنت أستطيع ان اميز انه كان يعتبرنى احمقا  
لشكى فيما يقول .

ومر بعض الوقت قبل ان اسمع صياحا ثم ارى محاربى بيولف  
واقفين وهم يشيرون الى البحر يراقبون بامعان ويتصايحون فيما  
بينهم . سألت هرغر عما حصل ، فقال وهو يشير الى البحر « نحن  
بين الوحوش الان » .

كان المحيط فى هذه المنطقة هائجا هادرا ، والرياح تعصف بقوة  
مرعبة ، محيلة امواج البحر الى زبد ابيض تبصق الماء فى وجه  
البحار وتلعب حيل المخسادة لبصره . راقبت البحر عدة دقائق  
ولكننى لم ار منظر وحش البحر ، ولم يكن لدى اى سبب لتصديق  
ما قالوا .

وفجأة صاح احدهم وهو يدعو الى اودن ، يصرخ مصليا ويكرر  
الاسم مرات عديدة باستعطاف وتضرع ، وعندها فقط رأيت وحش  
البحر بعينى ، كان على شكل أفعى هائلة الحجم لم ترفع رأسها  
ابدا فوق سطح البحر ، ولكنى رأيت جسمه يتقلب ويتلوى ، وقد  
كان طويلا جدا اطول وأعرض من سفينة الشماليين ، وكان لونه

أسود . بصق وحش البحر الماء فى الهواء وكأنه ينبوع ثم اندفع نحو الاعماق رافعا ذيله الذى كان مشطورا الى شطرين وكأنه لسان افعى ذو شعبتين . وكان هائلا ، حتى ان كل قسم من ذلك الذيل كان أعرض من أعرض واكبر اى من سعف النخيل .

ثم رايت وحشا آخر ثم آخر ثم آخر بعده ، يبدو انه كان هناك اربعة او ستة منها او سبعة ، وكل منها كان يتصرف كبقية اقرانه يتلوى فى الماء ويبصق نافورة ثم يرفع ذيله الهائل المشطور شطرين . وعند رؤيتهم له صاح الشماليون طالبين العون من أودن ، وركع عدد غير قليل منهم على ركبهم يرتجفون على ظهر السفينة .

ولقد رايت بعينى وحوش البحر فى كل مكان حولنا فى المحيط ، ثم بعد مرور بعض الوقت ذهبت جميعا ولم نرها مرة أخرى . واستأنف محاربو بيولف جهدهم فى تسير السفينة ، ولم يذكر اى منهم الوحوش ، ولكنى كنت مصابا بهلع شديد لمدة طويلة بعدها ، وقال لى هرغر ان وجهى كان ابيض بياض وجه رجل من الشمال ثم ضحك وسألنى « ماذا يقول الله فى هذا ؟ » وهو سؤال لم استطع الاجابة عليه (١) .

فى المساء رسونا عند الشاطئ واشعلنا نارا ، ثم سألت هرغر عما اذا كانت وحوش البحر قد هاجمت سفينة فى البحر ، وان كان ذلك قد حدث فكيف تم ذلك ، لاننى لم استطع رؤية راس اى تلك الوحوش فأجابنى هرغر بمناداته على اكثف ، والذي هو احد النبلاء ومرافق بيولف . كان اكثف محاربا جادا وقورا لم يكن يظهر المرح الا حينما كان يسكر وقد قال هرغر انه كان على احدى السفن التى هوجمت . وقد قال لى اكثف ان وحوش البحر اكبر من اى شىء على سطح اليابسة واكبر من أية سفينة فى البحر ، وهى حين تهاجم فانها تدخل تحت السفينة وترفعها فى الهواء ثم تقذفها

(١) هذا الوصف لما هو دون شك رؤية الحيتان هو امر يشك فيه كثير من العلماء . ويظهر هذا الوصف فى مخطوطة الرازى كما اوردناه هنا ، ولكنه أقصر من ذلك بكثير فى ترجمة سوغرن ، والذي يبدو فيه الشماليون وكأنهم يدبرون مقلبا وثكته واضحة يلعبونها على العربى . ولكن علماء آخرين ، يشكون ، فى ان يكون ابن فضلان غير مطلع او غير عالم بوجود الحيتان ، كما يبدو من وصفه هذا .



كقطعة من الخشب ثم تحطمها بلسانها المشعب . وأضاف اكثفو بأنه كان يوجد ثلاثون بحارا على سفينته ، ولكن لم ينج منهم الا اثنان بالاضافة اليه هو وما ذلك الا بعون الالهة ورحمتها . وقد تحدث اكثفو بطريقة طبيعية جدا ، والذي كان بالنسبة اليه امرا بالغ الجدية ، وقد صدقت انه كان يقول الحقيقة .

كما اخبرني اكثفو بأن الشماليين يعرفون بأن الوحوش تهاجم السفن لانها ( أى الوحوش ) ترغب فى الزواج بالسفينة ، اذ يظنونها احدى اناثهم . ولهذا لا يبنى الشماليون سفنهم بحجوم كبيرة .

كما قال لى هرغر بأن اكثفو محارب عظيم مشهور بمعاركه ، كما يجب تصديقه فى كل شيء .

على مدى اليومين التاليين ابحرنا بين جزر بلاد الدان ، وفى اليوم الثالث عبرنا ممرًا مائيا مفتوحا . وهنا كنت خائفا من رؤية وحوش بحرية أخرى ، لكننا لم نر شيئا من هذا ، بل وصلنا فى آخر المطاف الى مقاطعة تسمى فندان . وبلاد فندان هذه جبلية وعرة مرعبة ، وقد تقدم رجال بيولف بالصلوات وبقربان كان عبارة عن دجاجة ذبحت وألقيت فى اليم القى الرأس من على مقدمة السفينة ، أما الجسد فقد القى من مؤخرتها بجانب مسير الدقة .

لم نرس مباشرة عند ارض فندان الجديدة هذه ، ولكننا ابحرنا على طول الساحل ، حتى وصلنا فى آخر الامر الى مملكة روث غار . هكذا رايتها اول مرة : كانت تجثم فوق جرف عال تطل على منظر البحر المزبد الهائج الكامد . كان هناك قاعة كبيرة هائلة مصنوعة من الخشب ، قوية مهيبة . قلت لهرغر انه كان منظرا رائعا لكن هرغر وكل رفاقه بقيادة بيولف كانوا يدممون ويهزون رعوسهم . سألت هرغر لم كانوا يفعلون ذلك . فأجاب « روث غار يدعى روث غار المختال ، وقاعته الكبرى هذه هى دليل او علامة رجل مفرور » فسالت : « لم تتحدث بهذا الشكل ؟ أهو بسبب حجمها وروعتها ؟ » اذ كلما اقتربنا كنت أرى بوضوح أكبر أن القاعة كانت غنية بالزخارف والتماثيل الفضية التى كانت تتلأأ من بعيد .

اجابنى هرغر قائلا « كل ما اقله هو أن روث غار مفرور مختال

بسبب الطريقة التي أقام فيها مستوطنته في هذا المكان . فهو يتحدى الآلهة أن تقدر على تحطيمه ، يدعى بأنه أكثر من مجرد إنسان وهو الآن يعاقب على كل ذلك » .

لم أر في حياتي قط قاعة عظيمة ملأى بكل ما هو رائع ونفيس كتلك القاعة فقلت لهرغر « هذه القاعة لا يمكن مهاجمتها ، إذ كيف يمكن تحطيم روث غار ؟ » ضحك هرغر ساخرا مني وقال : « أنتم العرب أغبياء فوق كل تصور ، ولا تعرفون شيئا عن أسرار هذه الدنيا . ان روث غار يستحق الاسى الذي أصابه ونحن فقط الذين نستطيع انقاذه ، وحتى نحن ربما لن نستطيع » .

وقد زادت هذه الكلمات من دهشتي ، فالتفت الى اكثغو مرافق بيولف ووجدت أنه كان يقف في السفينة محسبا ولا رسم معالم الشجاعة على وجهه ، ومع ذلك فقد كانت ركبتاه ترتجفان ، وقطعا لم تكن قساوة الريح هي التي جعلته يرتجف بهذا الشكل . لقد كان خائفا ، كانوا جميعا خائفين ولكن لم أعرف سبب خوفهم .

## الفصل الحادى عشر

### مملكة روث غار في بلاد الفندان

رست السفينة على الشاطئ وقت صلاة العصر ، فاستغفرت الله لاننى لم اقم بالصلاة والدعاء . ومع ذلك لم يكن بإمكانى ان افعل ذلك بحضور الشماليين ، الذين كانوا يظنون ان صلواتى لعنات عليهم وهددوا بقتلى ان انا صليت على مرأى منهم .

ارتدى كل مقاتل في السفينة دروع الحرب ، التي كانت على الشكل التالى : اولا الحذاء ثم طماق من الصوف الخشن ، وفوق هذا معطف من الفراء السميك كان يصل الى الركبتين . وفوق هذا وضعوا دروعا كالمعاطف ، التي كان كل واحد منهم يرتديها سواى . ثم اخذ كل منهم سيفه وعلقه في حزامه ، ثم حملوا تروسا مصنوعة من الجلد ، ورمحا ، ثم ارتدى كل منهم خوذة من المعدن

أو الجلد فوق رأسه (١) وفي كل هذا كان كل المحاربين متساوين باستثناء بيولف ، الذي كان يحمل سيفه في يده ، وكم كان سيفاً ضخماً هائلاً :

نظر المحاربون عالياً باتجاه القاعة الكبرى للملك روث غار مظهرين إعجاباً شديداً بالسقف المتألق ومهارة الصنع الفائقة ، واتفقوا على أنه ليس كمثلهما في الكون ، بقبها العالية ونحوتها الفنية . ومع ذلك فلم يكن هناك أي احترام في حديثهم عنها .

وبعد طول انتظار نزلنا من السفينة ، وغدينا السير على طريق مرصوف بالحجر حتى القاعة الكبرى . وقد سببت قرقرة السيوف وتصادم التروس ضجة عالية . بعد أن اجتزنا بعض المسافة رأينا على جانب الطريق رأس ثور مقطوع ومعلقاً على عصا . وكان واضحاً أن الحيوان قد قتل حديثاً .

تنهد الشماليون . بعق ورسموا علامات الكتابة على وجوههم لهذا المنظر الذي لم يكن يعني شيئاً بالنسبة لى . مع حلول هذا الوقت كنت قد تكيفت إلى حد كبير مع عاداتهم في قتل بعض الحيوانات عند أقل ثورة غضب أو إثارة . ومع ذلك فإن رأس الثور هذا كان عندهم معنى خاص .

أشاح بيولف بوجهه بعيداً موجهها بصره صوب حقول أراضى روث غار ، وهناك رأى بيتاً ريفياً منعزلاً من النوع المألوف في أراضى روث غار . كانت جدران هذا البيت مصنوعة من الخشب ، وقد أحكم إغلاق ثقبها بمجينة مصنوعة من الطين والقش ، الذي كان يجب أن يجدد بعد هطول الأمطار المتكرر . كما أن السقف مصنوع من مادة عازلة مضافة إلى الخشب . أما داخل البيت فلم يكن هناك سوى أرض ترابية وموقد إضافة إلى روث الحيوانات ، لأن الفلاحين ينامون مع حيواناتهم داخل البيوت طلباً للدفع الذي تشعه أجساد

(١) يظهر الوصف الشائع للاسكندنافيين ، يظهرهم وهم يرتدون خوذات قرون . هذه مفارقة تاريخية أو عارضة شاذة في سياق التاريخ ، ففي زمن زيارة ابن فبيلان لم تكن مثل هذه الخوذات قد استعملت لمدة تزيد على الألف عام ، أي منذ العصر البرونزي الأول .

هذه الحيوانات ، ومن ثم يحرقون الروث لاشعال النيران .  
امر بيولف بان نتجه الى ذلك البيت الريفي ، فانطلقنا عبر الحقول  
التي كانت خضراء رغم انها كانت مشبعة بالرطوبة تحت اقدامنا .  
وفي اكثر من مرة توقفت الجماعة لتتفحص الارض قبيل استئناف  
المسير ، لكنهم لم يروا شيئا ذا قيمة بالنسبة لهم . اما انا شخصيا  
فلم ار شيئا مطلقا .

الا ان بيولف عاد فأوقف الجماعة وأشار الى بقعة من الارض  
سوداء داكنة . وهناك رأيت بعيني آثار اقدام عارية - اقدام كثيرة  
جدا . كانت اقداما مسطحة لم ار في الخلق ما هو ابشع منها .  
فعند كل اصبع من اصابع القدم كنت ترى حفرة تدل على ظفر او  
مخالب كالفرن . وهكذا فقد كانت الاشكال تبدو بشرية ، ولكنها لم  
تكن بشرية ايضا . لقد رأيت ذلك بعينين هاتين رغم اننى لم اكد  
اصدق ما كانت تراه عيناى .

هز بيولف ومحاربوه رعوسهم اما للمشهد ، ثم سمعتهم يكررون  
كلمة واحدة مرات ومرات : « وندول » او « وندلون » او كلمة  
قريبة من ذلك . لم أدرك معنى هذا الاسم ، ولكنى أحسست بأنه  
لا يجوز سؤال هرغر فى تلك اللحظة ، لانه كان جزعا جزع الآخرين  
كلهم . تابعنا السير باتجاه البيت الريفي ، وكنا نرى بين وقت  
 وآخر آثارا جديدة لهذه الاقدام القرنية الاظفار على الارض . كان  
بيولف ومحاربوه يمشون ببطء ، ولكنه لم يكن بطئا مصدره الحذر  
اذ لم يستل احدهم سيفه ، الا انه كان نوعا من الخوف لم أدرك  
كنهه ، غير انى مع ذلك شعرت بما يشعرون .

واخيرا وصلنا الى المنزل الريفي ودخلناه . وفى داخل ذلك  
المنزل رأيت ، ويا هول ما رأيت !! رأيت بعينى هذا المشهد الرهيب:  
كان هناك رجل فى مقتبل العمر متناسق الجسم رشيقه ، كان  
جسده قد مزق اربا اربا . كان الجذع فى مكان والذراع فى مكان  
والرجل فى مكان . وكان الدم مسكوبا فى برك سميكة على الارض  
وعلى الجدران وعلى السقف وعلى كل سطح داخل البيت بشكل  
بدا معه البيت وكأنه طلى بالدم الاحمر . وكانت هناك ايضا امرأة  
وقد قطعت ايضا بنفس الطريقة . وكان هناك طفل ذكر عمره

ما يقارب العامين فصل رأسه عن جسده وقد ترك الجسد كتلة دامية .

كل هذا رأيته بعيني ، وكان أروع منظر شاهدته في حياتي . أفرغت معدتي من الرهبة وأغمي على قرابة ساعة أو أكثر عدت بعدها لا فرغ معدتي ثانية بصورة لا ارادية .

مهما عشت لن أدرك عقلية هؤلاء الشماليين ، لأنني حتى وأنا مغمي على كانوا هم يزادون هدوءا وتعقلا لمشهد هذا الرعب . كانوا ينظرون لكل ما يرونه بهدوء عجيب : ناقشوا آثار المخالب على أعضاء الأجساد الممزقة وطريقة تمزيق اللحم البشري . كما وجهوا انتباهها خاصا لكون جميع الرؤوس كانت قد اختفت ، وأيضا لاحظوا بانتباه أكثر المناظر بشاعة وشيطانية من كل ما راوا والذي حتى وأنا أكتب عنه في هذه اللحظة أشعر برعب شديد وهلع : كان جسد الطفل الذكر قد مضغ بأنياب شيطانية رهيبة من ناحية اللحم الطري على أعلى الفخذ ، كما مضغت بنفس الطريقة منطقة الكتف . لقد رأيت هذا المنظر الرهيب بأم عيني .

بدت الرهبة والوقار على وجوه مقاتلي بيولف وكانوا يدمدمون غضبا وهم يغادرون البيت الريفى . كما استمروا في توجيه انتباه شديد الى الأرض الطرية حول البيت ، وقد لاحظوا أنه لم تكن هناك آثار حوافر خيول . بدا وكأن هذا أمرا ذا أهمية كبرى بالنسبة اليهم . لكننى لم أفهم السبب ، كما لم أعر ذلك أى اهتمام إذ كنت مازلت خائر القوى ضعيف القلب وأهن الجسد .

وبينما نحن نعبّر الحقول اكتشف اكتشفوا اكتشافا كان على شكل قطعة صغيرة من الحجر أصفر من قبضة طفل وكانت مصقولة ومنحوتة بطريقة فجأة . تجمع المحاربون ليتمعنوا فيها وكنت أنا بينهم . وجدت أنه كان جذع أنثى حامل . لم يكن له رأس ولا ذراعان ولا ساقان ، بل الجذع فقط يعلو منتفخ كبير وفوقها ثديان منتفخان متدليان (١) . وكان هذا المخلوق في رأيي فجأ قبيحا الى أبعد الحدود ولم يعن لى شيئا أكثر من ذلك . أما الشماليون فقد أصيبوا فجأة

(١) هذا التمثال الموصوف يتطابق الى حد كبير مع منحوتات عديدة اكتشفها علماء

الآثار في فرنسا وألمانيا .



بصدمة جملتهم يبدون شاحبين من الجبن والخوف ، وكانت أيديهم تهتز وهي تقترب لتلمس التمثال حتى ألقي به بيولف إلى الأرض أخيرا وحطمه بقبضة سيفه ، فانتثر على الأرض قطعا متناثرة من الحجر . وبعدها أصيب عدد من المحاربين بالغثيان وافرغوا معداتهم اذ كان الهلع عظيما جدا بينهم دون أن أفهم لذلك سببا .

انطلقنا جميعا باتجاه قاعة الملك روثغار . لم ينطق أي منهم بحرف طيلة الرحلة التي استغرقت قرابة ساعة ، فقد كان كل واحد من الشماليين يبدو وكأنه متلفع بأفكار مريرة استغرقت كل حواسه ، ومع ذلك فلم تبد عليهم أي من مظاهر الخوف .

وأخيرا استقبلنا مناد من منادى الملك على ظهر حصان قاطعا علينا الطريق . أشار إلى الأسلحة التي كنا نحملها وإلى ملامح جماعة بيولف ، ثم صاح بكلمات انذار .

خاطبني هرغر قائلا : « انه يريد أن يعرف اسماءنا وبسرعة أيضا » . أجاب بيولف المنادى ، ومن لهجة حديثة أدركت أن بيولف لم يكن على مزاج يسمح بالاحاديث الودية . قال لي هرغر « أخبره بيولف بأننا من رعايا الملك هفلغ ، من مملكة يتلم ، ونحن قد أتينا بمهمة من أجل الملك روثغار ونود أن نتحدث إليه شخصا » ثم أضاف هرغر قائلا « يقول بيولف أن روثغار ملك عظيم » ، لكن لهجة هرغر كانت توحى بعكس ذلك .

رجانا هذا المنادى أن نستأنف سيرنا إلى القاعة الكبرى وننتظر هناك بينما يتجه هو لينبئ الملك بوصولنا . فعلنا ماطلب رغم أن بيولف ورجاله لم يكونوا مسرورين من هذه المعاملة ، بل كان هناك دمدمة وهمهمة وعدم رضى ، لأن من عادة الشمالي أن يكون كريما مضيفا ولم يبد هذا التصرف مهذبا اذ أبقوا في الخارج . ومع ذلك فقد انتظروا بعد أن خلعوا أسلحتهم وسيوفهم ورمائحهم دون الدروع وتركوها جميعا خارج أبواب القاعة الكبرى .

## الفصل الثاني عشر

كانت القاعة محاطة من كل الجوانب بمساكن متعددة على طريقة أهل الشمال . وكانت هذه البيوت طويلة محدبة الجوانب كما كانت

الحال في تولبرغ ، إلا أنها كانت مختلفة من حيث الترتيب فلم يكن هنا أي مربعات بين البيوت ، كما لم يكن هناك أي تحصينات أو خنادق محفورة . وبدلاً من ذلك كانت الأرض بدءاً من القاعة الكبرى والبيوت المحيطة بها تنحدر على شكل سهل أخضر منبسط طويل يتخلل هنا وهناك بيت ريفي أو آخر ، ثم تأتي بعد ذلك وفيما وراء هذا السهل التلال وأطراف الغابات .

استفسرت من هرغر عن هم أصحاب هذه البيوت الطويلة ، فقال لي « بعضها يخص الملك ، وبعضها الآخر يخص العائلة المالكة ، وبعضها يخص النبلاء ، كما أن بعضها يقيم فيه الخدم وموظفو البلاط الأدنى رتبة » . كما قال أيضاً إنه مكان صعب ولكني لم أدرك ما كان يعنيه بهذا .

ثم اذن لنا بالدخول إلى قاعة الملك روثغار الكبرى والتي وجدت حقاً أنها تعد من عجائب العالم الكبرى ، وما يزيد في ذلك كونها واقعة في بلاد الشمال العذراء . وقد كانت تسمى بين قوم روثغار باسم هاروت ، لأن أهل الشمال يعطون أشياء حياتهم أسماً بشر كما يعطون هذه الأسماء للابنية والسفن وخاصة للأسلحة . واني أقول بحق أن هاروت هذه ، أي قاعة روثغار العظيمة ، كانت بحجم قصر الخليفة كله ، ومطعمة بالفضة وحتى ببعض الذهب والذي هو معدن نادر جداً في بلاد الشمال . وفي كل جانب منها كانت هناك رسومات وزينات كما تكون أروع الزينات والرسومات وروعة الفن . كانت في الحقيقة نصبا يرمز إلى قوة الملك روثغار وعظمته .

أما الملك روثغار هذا فقد جلس في النهاية القصوى لقاعة هاروت، والتي كانت من السعة بحيث بدا الملك بعيداً إلى حد لم نستطع أن نراه إلا بصعوبة . وكان يقف عند كتفه اليمين نفس ذلك المنادى الذي أوقفنا . القى المنادى خطاباً ترجمه لي هرغر على الشكل التالي : « ها هنا أيها الملك عصبة من المحاربين جاءوا من مملكة يتلم . وقد وصلوا حديثاً من البحر ، وأما قائدهم فرجل يسمى بيولف . وهم يطلبون الأذن لهم بأن يحدثوك عن مهمتهم . أيها الملك لا تجرمهم من الدخول ، فلهم أخلاق النبلاء ومن ملامح زعيمهم أرى أنه مقاتل

شجاع . فعاملهم كتبلاء ايها الملك روثغار . » وهكذا طلب الينا الاقتراب من الملك .

بدا الملك روثغار رجلا يقترب بسرعة من الموت . لم يكن شابا ، بل كان شعره ابيض ناصع البياض وكان جلده شاحبا شديدا الشحوب وكانت اخايد وجهه يملؤها الاسى والخوف . نظر الينا نظرة ريبة وشك وهو يجعد عينيه او ربما انه كان اعمى او يكاد فلم استطع التأكد من ذلك . واخيرا بدا يلقي خطابا قال لى هرغر ان فحواه كالتالى : « انا اعرف من هو هذا الرجل ، لاننى ارسلت بطله ليقوم بمهمة بطل . انه بيولف وقد عرفته طفلا حين سافرت عبر البحار الى مملكة يتلم . انه ابن هفلغ الذى كان مضيفى الكريم وهذا هو ابنه ياتى الى الان ساعة الحاجة والالم . »

ثم دعا روثغار المحاربين للاجتماع فى القاعة الكبرى حيث قدمت الهدايا واقامت الاحتفالات .

بعدها القى بيولف خطابا طويلا لم يترجمه هرغر لى ، اذ كان التحدث اثناء القاء بيولف خطابه يعتبر مظهرا من مظاهر قلة الاحترام . وعلى كل حال فقد كان المعنى كالاتى : وهو ان بيولف قد سمع بمشاكل روثغار ، وانه كان آسفا حزينا لهذه المشاكل ، وان مملكة ابيه هو قد هدمت بسبب هذه المشاكل نفسها ، وانه قد اتى الان لينقذ مملكة روثغار من الشياطين التى حلت بها فأقلقتها . وحتى الان لم اكن قد عرفت ماذا يسمى هؤلاء الشماليون اولئك الشياطين ، او كيف ينظرون اليهم ، رغم انى رايت افعال هؤلاء الوحوش الذين يقطعون الرجال اربا .

ثم تحدث الملك روثغار ثانية وبشيء من التردد . ادركت من طريقة حديثه انه كان يرغب فى ان يقول بعض كلماته قبل ان يصل محاربوه وتبلاؤه . هذا ماقاله وترجمه لى هرغر : « يا بيولف ، لقد عرفت اباك يوم كنت انا نفسى رجلا شابا حديث العهد بالعرش . وانا الان عجوز كسير القلب منحنى الراس عيناي تبكيان خجلا وانا اعترف بضعفى . فكما ترى يكاد عرشى يكون بقعة جرداء ، وارضى أصبحت اماكن موحشة . ولست ادرى ماتضمره الشياطين لمملكتى . وغالبا مايقسم محاربى اثناء الليل وقد اثارت شجاعتهم الخمرة -

يقسمون بأن يحطموا هذه الشياطين . الا انه ما ان تزحف الثواء  
الفجر المفجرة فوق الحقول الضبابية حتى ترى الاجساد المدماة في  
كل مكان . ذلك هو مصدر الاسى في حياتى ، ولن اتحدث عنه بعد  
هذا ابدا . »

ثم اتى بطاولة خشبية كبيرة صفت عليها الوان الطعام ، بينما  
كنت اسأل هرغر مامعنى كلمة « الشياطين » التى ردها الملك .  
غضب هرغر وهددنى بعنف ان انا سألته اى سؤال آخر .

فى ذلك المساء اقيمت حفلة كبرى ترأسها الملك روثغار وملكته  
ويليو التى كانت ترتدى ثوبا يتلأ بالاحجار الكريمة والذهب . ترأس  
الملك والملكة احتفال النبلاء والمحاربين فى مملكة روثغار . هؤلاء  
المحاربون كانوا قوما تافهين حقيرين ، كانوا رجالا مسنين كثرى  
الشراب ، كما ان الكثيرين منهم كانوا كسيحين او جرحى . وفى عيني  
كل منهم كانت تسكن نظرة خوف فارغة ، وكان هناك فراغ وعقم  
فى فرحتهم ايضا .

ثم كان هناك الابن المسمى وغلف ، الذى تحدثت عنه سابقا ، وهو  
ابن روثغار الذى قتل ثلاثة من اشقائه . كان هذا الشاب صغير  
السن رشيق القوام ذا لحية شقراء وعينين لم تكونا تستقران على  
شئ بل تقفزان باستمرار من شئ الى آخر ومن مكان الى آخر ،  
كما انه لم يكن لينظر الى احد ينظر فى وجهه ابدا . رآه هرغر فقال :  
« انه ثعلب » . وعنى بذلك انه زئبقى متغير متلون وداهية مكر ،  
لان اهل الشمال يعتقدون ان الثعلب حيوان يستطيع ان يتخذ اى  
صورة يريد .

وفى منتصف هذه الاحتفالات ارسل روثغار مناديه الى ابواب  
قاعة هاروت ، فعاد هذا المنادى ليخبره بان الضباب لن يحل فى ذلك  
المساء . فعمت الفرحة الكبيرة لدى سماع الخبر بان المساء سيكون  
صافيا ، وسر الجميع الا وغلف .

وفى لحظة معينة نهض وغلف على قدميه وقال ، « انى اشرب  
نخب ضيوفنا ، وخاصة بيولف ، وهو المحارب الشجاع الحق الذى  
اتى لمؤازرتنا فى وقت المحنة - رغم انها قد تثبت انها مفضلة

سينستحيل عليه حلها . « همس هرغر بهذه الكلمات في أذني ،  
فأدركت أنها كانت مديحا واهانة في نفس الوقت .

التفتت كل العيون الى بيولف انتظارا لجوابه . وقف بيولف ونظر  
الى وغلف ثم قال « لست أخاف من أى شيء على الإطلاق ولا حتى  
من الشيطان الفر الذي يزحف ليلا ليقتل الناس أثناء نومهم . »  
أدركت من هذا أنه يشير الى « الوندول » ، لكنى رايت وجه وغلف  
ينقلب شاحبا ويده تقبض بشدة على الكرسي الذي كان يجلس عليه .  
« هل تقصدني أنا ؟ » صاح وغلف بلسان مرتجف . فأجاب بيولف  
بما يلي : « كلا ولكنى لا أخافك أبدا كما لا أخاف وحوش الضباب » .

واستطرد الشاب وغلف متحمسا مع ان الملك روثغار دعاه  
للجلوس . خاطب وغلف كل النبلاء الحاضرين قائلا : « ان بيولف  
هذا ، والذي وصل الينا من شواطئ اجنبية بعيدة ، يملك كما هو  
واضح فخرا عظيما وقوة اعظم . الا اننى رتب الامر لامتحان  
حماسه ، اذ كثيرا ما يعنى الصلف والخيلاء عيني أى انسان . »

في هذه اللحظة رايت محاربا قويا كان يجلس الى الطاولة قرب  
الباب خلف بيولف ، رايتة ينهض بسرعة ليستل رمحه ويفرزه في  
ظهر بيولف . حدث كل هذا في اقل من الوقت اللازم لشهقة . التفت  
بيولف رافعا رمحه ثم فرزه في صدر المقاتل رافعا اياه على سارية  
الرمح فوق راسه ثم ضربه بالحائط . وهكذا تسمر المحارب في  
الحائط بواسطة الرمح بينما قدماه تتدليان فوق الارض وهو يرفس  
بهما . كان قضيب الرمح مدفونا كله في جدار قاعة هاروت ، وقد  
مات المحارب دون ان ينطق بحرف .

### الفصل الثالث عشر

حدثت الان ضجة كبيرة حين التفت بيولف مواجهها وغلف ثم قال  
« هكذا ساقضى على كل شر » ثم تحدث هرغر بصوت جهر موجهها  
عدة اشارات الى . شعرت بالاضطراب بسبب هذه الاحداث ، وفي  
الحقيقة كانت عيناه مثبتتين على ذلك المحارب الميت المسمر الى  
الجدار . ثم التفت هرغر الى وقال باللاتينية « عليك أن تغنى أغنية



لبلاط الملك روثغار : فالكل يرغب في ذلك . « سألته « وماذا أغنى؟  
 لست أعرف ولا أغنية . « فأجاب بما يلي « عليك أن تغنى شيئاً يسر  
 القلب . « ثم أضاف « لا تقل شيئاً عن الهك الواحد ، فليس هنا  
 من يهتم . « وفي الحقيقة لم اكن أعرف ماذا أغنى ، فلم اكن مغنياً  
 في حياتي . مضى وقت مخرج بينما الكل يحدقون بي ثم عم القاعة  
 صمت كامل . وهنا قال لي هرغر « غن أغنية ملوك وبطولات في  
 المعارك . « قلت اننى لا أعرف مثل هذه الاغنيات ولكنى أستطيع  
 ان أحدثهم بقصة خرافية والتي كانت تعتبر في بلادى مضحكة مسلية .  
 قال انى احسنت الاختيار ، فأخبرتهم - الملك روثغار وملكته ويليو  
 وابنه وغلف وكل النبلاء والمحاربين المجتمعين - بقصة حذاء أبى  
 القاسم الطنبورى التى يعرفها الجميع . تحدثت بارتياح وكنت ابتسم  
 طيلة الوقت ، وقد سر الشماليون في بادىء الامر وضحكوا وضربوا  
 على بطونهم . ولكن فجأة وقع مايلى . بينما كنت مستمرا في حكايتى  
 توقف الشماليون عن الضحك وانقلبوا بالتدريج الى حالة من البؤس  
 والتجهم . وما أن انهيت حكايتى حتى انقطع الضحك نهائيا وكان  
 هناك صمت قاتل .

قال لي هرغر « ربما كنت لاتعرف ذلك ، ولكن هذه حكاية لا تدعو  
 الى الضحك ، وعليك الان ان تصلح مايمكن اصلاحه » ، وبعدها  
 تحدث حديثا اعتقد انه كان نكتة القيت على حسابى فسببت ضحكا  
 بين الجميع وعاد الجميع يتمتعون بحفلةهم .

( قصة حذاء أبى القاسم قديمة في الثقافة العربية وكانت معروفة  
 لابن فضلان ولمواطنيه من اهل بغداد .

هذه القصة تروى بأشكال مختلفة ، ويمكن سردها مقتضبة او  
 مطولة . حسب حماس الراوى . وهى باختصار تحكى حكاية أبى  
 القاسم ، وهو تاجر غنى وبخيل يرغب بأن يخفى حقيقة غناه لكي  
 يعقد صفقات اكبر وافضل في تجارته . وليوحى بمظاهر الفقر ،  
 فانه يرتدى زوجا من الاحذية قميء بائس قديم املا بأن يضلل  
 الناس ، لكن حيلته مكشوفة ، اذ بدلا من ذلك يعتقد الناس حوله  
 بأنه سخيف وان تصرفاته منافية للعقل .

وفي احد الايام يعقد ابو القاسم صفقة رابحة في تجارة الزجاج ،

فيقرر أن يحتفل ليس كما جرت العادة بدعوة أصدقائه الى حفلة كبيرة وانما بدعوة نفسه شخصا الى ترف زيارة الى الحمام العمومي . يترك ثيابه وحذاءه في الغرفة الخارجية ، فيعائنه صديق له بارتدائه حذاء باليا غير مناسب لمقامه . يجيبه ابو القاسم بأن الحذاء مازال فيه روح ، ثم يدخل الحمام مع صديقه . وبعد قليل يصل قاض كبير الى الحمام ويخلع ثيابه تاركا وراءه حذاء فخما . في تلك الاثناء يقادر ابو القاسم الحمام فلا يجد حذاءه القديم بل يجد مكانه حذاء جديدا جميلا ، وظنا منه بأنه هدية من صديقه فينتعله ويغادر الحمام .

وحين يغادر القاضي الحمام يكتشف اختفاء حذائه ، ولا يجد سوى حذاء مهترىء بأئس يعرف الجميع انه حذاء البخيل ابي القاسم . يغضب القاضي ، ويتوزع الخدم في كل أرجاء بغداد بحثا عن الحذاء المفقود ، وسرعان مايجدونه في قدمي اللص الذي يؤتى به الى المحكمة ليقف امام القاضي ويفرم غرامة باهظة .

ويندب ابو القاسم حظه ، وما ان يعود الى البيت حتى يلقي بحذائه المشثوم خارج النافذة حيث يسقط في نهر دجلة المليء بالطين . وبعد عدة أيام يخرج بعض الصيادين شباكهم فيجدون مع السمك حذاء ابي القاسم ، ويجدون ان مسامير الحذاء قد قطعت شباكهم فيقذفون الحذاء المشيع بالطين والماء بغضب باتجاه احدى النوافذ المفتوحة فيصادف ان تكون تلك النافذة نافذة ابي القاسم فيسقط الحذاء على الاواني الزجاجية المشتراة حديثا ويحطمها جميعا .

ويتحطم قلب ابي القاسم ويحزن كما يحزن اى بخيل عفن . فيقسم يمينا بالا يصيبه الحذاء اللعين بأى اذى بعد الان ، وللتأكد من ذلك ، يذهب الى حديقة ومعه مجرفة حيث يدفن الحذاء . ويحدث ان جار ابي القاسم يراه وهو يقوم بالحفر ، وهو عمل وضيع لا يليق الا بخادم . عندها يقول الجار لنفسه : ان كان صاحب البيت يقوم بهذا العمل القذر بنفسه فلا بد ان يكون من اجل دفن كنز كبير . فيذهب الجار الى الخليفة ويقص على الخليفة قصة ابي القاسم ، اذ طبقا لقوانين البلاد فان اى كنز يكتشف في البلاد فانه يصبح ملكا للخليفة .

يستدعى أبو القاسم إلى حضرة الخليفة ، وحين يبلغ بأنه لم يدفن إلا زوجا من الاحذية البالية يضحك الحاشية مقهقهين لاكتشاف محاولة التاجر أن يخفى هدفه الحقيقي وغير الشرعى . يفضب الخليفة اذ يجروا أحدهم على الظن بأنه من الحق بحد يمكن معه أن تنطلى عليه كذبة كهذه فيضاعف لهذا حجم الغرامة . ويصاب أبو القاسم بصدمة شديدة حين يصدر الحكم ولكن لا مفر له من الدفع .

ويصمم أبو القاسم مرة أخرى على التخلص من حذائه مرة وإلى الأبد . ولكي يتأكد من استحالة وقوع مشاكل جديدة فإنه يقوم برحلة خارج المدينة ويلقى بالحذاء في بركة بعيدة ويظل يراقبه حتى يفرق ثم يعود راضيا . ولكن تلك البركة تغذى قنوات الماء التي تشرب منها المدينة كلها وأخيرا يسد الحذاء الانابيب . ويكتشف الحرس الذين يذهبون لازالة العائق - يكتشفون الحذاء ويميزونه بسهولة ، لأن كل الناس الآن صاروا يعرفون حذاء هذا البخيل سييء السمعة . ويستدعى أبو القاسم مرة أخرى إلى حضرة الخليفة بتهمة تلويث مياه المدينة وتكون غرامته هذه المرة أعظم من كل سابقاتها كما يعاد الحذاء اليه .

ثم يقرر أبو القاسم أن يحرق الحذاء ، وحيث أنه مازال رطبا ندبا فإنه يضعه على الشرفة ليجف . فيراه كلب ويبدأ باللعب به . وهنا تسقط إحدى فردتى الحذاء من بين فكي الكلب إلى الشارع تحته ، حيث تصيب امرأة كانت تمر في الشارع في تلك اللحظة كانت المرأة حاملا فسببت قوة اللطمة اجهاضا . يتوجه زوجها إلى المحكمة ويطالب بالتعويض عن الاضرار ، فيحكم له بها ويسخاء ، ويجبر أبو القاسم الذى أصيب بالافلاس والدمار على الدفع .

ان ماتوحي به هذه القصة العربية هو ماتستطيع الشرور ان توقعه بانسان ما لا يغير حذاءه في الوقت المناسب الا أنه لاشك ان هناك معنى ضمنا أعمق بكثير في هذه الحكاية : الا وهو فكرة الانسان الذى لا يستطيع أن يثور على قدره وهذا هو ما أقلق الشماليون بالفعل )

وهكذا مضى الليل مابين مرح وطرب واحتفالات ، ومتع محاربو بيولف انفسهم بالنساء بطريقة اباحية مطلقة . وقد رأيت وغلف

الابن يحرق بيولف قبل مغادرة القاعة ، لكن بيولف لم يفره أى اهتمام مفضلا الاستمتاع بالاماء والجوارى والاستمتاع بالنساء الحرات . وبعد وقت غلبنى النعاس فنامت .

وفى الصباح استيقظت على صوت المطارق ، وحين اطلت من قاعة هاروت الكبرى رايت كل شعب مملكة روثغار يعملون بجهد فى بناء الدفاعات . وقد كانت هذه الدفاعات تبنى بطريقة بدائية : كانت الخيول تجر اعدادا من اعمدة السياج التى كان المحاربون يقومون بتقليم رءوسها حتى تصبح مدببة . وكان بيولف نفسه يوجه اوامره بتحديد مواقع بناء الدفاعات وذلك بوضع علامات على الارض برأس سيفه . لم يستعمل لهذا الغرض سيفه العظيم رندنج ، ولكنه استعمل سيفا آخر ، ولم ادر ان كان هناك سبب لهذا التصرف .

وعند منتصف النهار ، وصلت الحزبون المسماة بملاك الموت (١) والقت بالمظلمات على الارض متممة تمتات غامضة فوقها ، ثم اعلنت ان الضباب لابد آت فى ذلك المساء . ولدى سماع بيولف لهذا امر بايقاف كل اعمال البناء وبدا الاعداد لوليمة كبرى . وقد شارك الكل فى هذه المهمة بعد ان اوقفوا كل جهودهم الاخرى . سألت هرغر عن سبب اقامة تلك الوليمة ، فاجابنى باننى اسأل اسئلة كثيرة لا داعى لها . كان ذلك صحيحا كما كان صحيحا ايضا اننى اسأت اختيار الوقت لالقاء هذا السؤال لان هرغر كان فى تلك اللحظة يقف امام فتاة شقراء جميلة يغازلها بينما كانت تبتسم بحرارة وهى تنظر الى .

فى اواخر ذلك النهار ، استدعى بيولف اليه كل محاربيه وقال لهم ، « استعدوا للمعركة » وقد قبلوا المهمة وتمنوا الحظ السعيد لبعضهم البعض ، بينما كانت تجهز الوليمة الكبرى فى كل مكان حولنا .

(١) ملاك الموت هذه ليست هى نفسها التى كانت مع الشماليين على سفاف الفولفا واضح ان لكل قبيلة امرأة عجوزا تقوم بوطيعة التنبؤ واعمال السحر الاخرى ، يطلق عليها اسم « ملاك الموت » . فالاسم على هذا هو اسم نوع او تعبير يدل على النوع .

## الفصل الرابع عشر

كانت وليمة المساء كبيرة الشبه بوليمة الليلة السابقة ، رغم ان عددا اقل من نبلاء ووجهاء روثغار كان حاضرا . وفي الحقيقة علمت ان كثيرا من النبلاء لن يحضروا الوليمة خشية وتحاشيا لما كان سيقع في قاعة هاروت تلك الليلة ، اذ بدا واضحا ان ذلك المكان كان مركز اهتمام الشيطان في تلك المنطقة ، الذي كان يطمع بقاعة هاروت او بشيء شبيه آخر - ولكنى لم استطع ان اتأكد من المعنى . لم تثرني حفلة ذلك المساء بسبب خوض من الاحداث القادمة . وعلى كل حال فقد وقعت الحادثة الالية . كان احد كبار النبلاء سنا يتكلم بعض اللاتينية ، كما كان يتكلم بعض اللهجات الاندلسية ، لانه كان قد سافر الى بلاد خلافة قرطبة وهو شاب . تحدثت الى ذلك النبيل ، وفي تلك الظروف وجدت لزاما على ان ادعى معرفة لم اكن ادركها كما ستعرفون بعد قليل .

حدثني النبيل فقال : « اذن فأنت هو الاجنبى الذى سيكون رقم ١٣ ؟ » فأجبت بأتنى هو . فقال الرجل المسن « لابد وان تكون فائق الشجاعة ، واننى احييك احتراما لهذه الشجاعة » واجابة على هذا رددت باستجابة مهذبة بسيطة لشعورى بأتنى كنت جباناً بالمقارنة بالآخرين من رجال بيولف ، والذى كان هو الصحيح فى الواقع .

« هذا ليس مهما » قال النبيل الشيخ معلقا ، وقد أسكرته خمرة تلك المقاطعة - وهي مشروب قمىء يسمونه ( ميد ) ولكنه مشروب قوى - « ولكنك مع هذا رجل شجاع لمجاهتك الوندول » .

احسست الان اننى قد استطيع فى آخر المطاف ان اتعلم بعض الامور الهامة . أعدت على مسامع هذا الشيخ قولا من اقوال الشماليين كان هرغر قد قاله لى مرة ، قلت « الحيوانات تموت ، والاصدقاء يموتون ، وانا سأموت ، ولكن شيئا واحدا لن يموت ابدا ، الا وهى السمعة التى نخلفها وراءنا بعد موتنا » .

لدى سماعه هذا الكلام قوق الشيخ العجوز من فم خال من الاسنان ، فقد سره كثيرا ان يرى اننى كنت أعرف مثلاً شنعابيا



شماليا . قال « تلك هي الحقيقة ، ولكن الوندول لهم شهرة  
أيضا » . فأجبت بأقصى حدود اللامبالاة : « حقا ؟ لم أكن أدرك  
ذلك » .

أجابني الشيخ بقوله انني كنت اجنبا ، وانه لهذا يوافق على ان  
ينورني ، فقص على مايلي : الاسم ( وندول أو وندون ) هو اسم قديم  
جدا قدم أي شعب من شعوب بلاد الشمال ، وهو يعني ( الضباب  
الاسود ) . وبالنسبة لاهل الشمال فان هذا يعني ضبابا يأتي تحت  
جنح الظلام بشياطين سوداء تصرع وتقتل وتاكل لحم الكائنات  
البشرية (١) . وهؤلاء الشياطين غزرو الشعر كريهو الملمس والرائحة

(١) من الواضح ان الاسكندنافيين كانوا اكثر تأثرا وخوفا من خلصة ولؤم ووحشية  
هذه المخلوقات اكثر من خوفهم من كونها آكلة لحوم البشر ويعتقد جنسنا ان اكل  
لحوم البشر قد يكون رهيبا بالنسبة لاهل الشمال لانه أي اكل لحوم البشر يجعل  
الدخول الى عالم الخلود بعد الموت ( قال هالا ) اكثر صعوبة . ولكن ليس هناك أي  
دليل على صحة هذا الرأي .

وعلى كل حال فانه بالنسبة لابن فضلان واطلاعه الواسع ربما كانت فكرة اكل لحوم  
البشر تتضمن أو توحي ببعض الصعوبات في الحياة الاخرى أو في حياة الخلود .  
وأكل الاموات هو مخلوق معروف جيدا في الاساطير المصرية ، وهو على شكل وحش  
مخيف له رأس تمساح وجذع أسد وظهر فرس النهر . وأكل الاموات هذا يلتهم  
الاشرار بعد حسابهم .

ومما يستحق الذكر انه بالنسبة لمعظم تاريخ الانسانية فان اكل لحوم البشر كجزء  
من العقيدة الدينية ، بشكل أو بآخر ولسبب ما أو لآخر لم يكن أمرا نادرا كما لم  
يكن أمرا بارزا . فانسان بكين وانسان نياندرتال كانا بالتأكيد من آكلة لحوم البشر ،  
وكذلك كان أيضا وبأوقات مختلفة السكاثيون ، والصينيون ، والايرونديون ، وأهل  
البيرو وسكان جزر الماريواتا ، والجاسا ، والصيريون ، والاسترااليون الاصليون ،  
والوار ، واليوتانيون و **Hurons** والمراقيون وقبائل البيوتا والاشانتي .  
وفي الفترة التي كان ابن فضلان خلالها في اسكندنافيا كان تجار عرب آخرون قد  
وصلوا الى الصين ، حيث سجلوا وكتبوا ان لحم البشر - والذي كان يشار له باسم  
لحم الطائر ذي الرجلين - كان يباع في الاسواق وبشكل مكشوف وقانوني .

ويعتقد مارتشي ان الشماليين وجدوا في اكل لحم البشر من قبل الوندول أمرا متفرا  
ومنكرا لانهم كانوا يعتقدون ان النساء كن ياكلن لحم المقاتلين الابطال ، وخاصة أم  
الوندول الكبرى . ليس هناك من دليل على صحة هذا الرأي أيضا ولكن مجرد احتمال  
يجعل ميتة مقاتل شمال بهذه الطريقة اكثر عارا ونجلا .

وهم قساة ماكرون ، لا يتكلمون أى لغة من لغات البشر ومع ذلك فانهم يتحدثون فيما بينهم . وهم يأتون مع ضباب الليل ويختفون عند طلوع النهار أما الى أين يذهبون فلم يجرؤ ابن امرأة يوما أن يتبعهم . »

وأضاف المجوز يحدثنى فقال : « يمكنك أن تتعرف على المناطق التى يسكن فيها شياطين الضباب الاسود وذلك بطرق عديدة . فمن وقت لآخر قد يصطاد المحاربون الفرسان ايللا بواسطة الكلاب بعد مطاردته عبر التلال والوديان وخلال اميال عديدة من الغابات والارض العراء . حتى اذا وصل الابل الى مستنقع رطب رقراق ضحل توقف عن الجرى مفضلا أن تقطعه كلاب الصيد اربا على أن يدخل الى ذلك المكان الكريه . وبهذا الشكل نتعرف على المناطق التى يعيش فيها الوندول ونعرف ايضا انه حتى الحيوانات لا تجرؤ على الدخول الى ذلك المكان .

أظهرت دهشة عظيمة حين سمعنى هذه القصة ، وما ذلك الا لاستدراج الرجل المجوز لمزيد من الحديث . وفي تلك اللحظة رأتى هرغر فرمانى بنظرة لثيمة لكنى لم اعره أى انتباه .

استطرد الشيخ قائلا : « فى قديم الايام كان كل اهل الشمال وفى كل أصقاعهم يخافون الضباب الاسود . ولكن منذ أيام أبى وجدى وجد أبى قبله لم يرا شمالى الضباب الاسود أبدا ، وينظر اليينا المحاربون الشباب على أننا مجانين أو حمقى حين نتذكر الحكايا القديمة عن الرعب والجزع الذى كان الوندول يسببونه . الا أن زعماء الشمال فى كل ممالكهم حتى فى النروج ، كانوا دائما يتوقعون عودة الضباب الاسود . وكل مدنا وقلاعنا محمية ومحصنة من ناحية البر . ومنذ أيام أبى وجدى وجد أبى يقوم الناس بهذه الاعمال والتحصينات ولكننا لم نر الضباب الاسود أبدا . أما الان فقد عاد اينا » .

استفسرت عن سبب عودة الضباب الاسود ، فخفض صوته وهو يقول مجيئا : « لقد عاد الضباب الاسود بسبب صلف وخيلاء وضعف روثغار الذى أساء الى الالهة بتباهيه الاحمق فحرض الشياطين وأغراهم ببناء قاعته الكبرى فى الموقع الذى اختاره والذى

لا يتمتع بأى حماية من ناحية البر . وروث غار اليوم مسن هرم وهو يعلم علم اليقين بأنه لن يذكر بمعارك خاضها أو ربحها ، ولهذا بنى هذه القاعة الفخمة التى أصبحت حديث الدنيا بأكملها وأرضت غروره وخيلاءه . ان روث غار يتصرف كاله ، ولكنه انسان ولهذا بعثت الالهة بالضباب الاسود ليصمقه وليعلمه معنى التواضع » .

قلت لهذا الشيخ الهرم انه ربما كان اهل المملكة يكرهون روث غار . فأجاب قائلا : « ليس هناك من رجل فاضل الى حد الخلو من كل الشرور ، كما انه ليس هناك من رجل شرير الى حد لايساوى معه شيئا . ان روث غار ملك عادل ولقد ازدهر شعبه ابان حياته . وان حكمه وغنى حكمه هما هنا ، فى قاعة هاروت وهما حقا رائعان ، اما خطيئته الوحيدة فهى انه نسى ان يبني دفاعاته لان عندنا قولا مفاده : « لايجوز لرجل ان يخطو خطوة واحدة بعيدا عن أسلحته . » وروث غار بلا سلاح وهو فاقد الاسنان ضعيف ولهذا يسرح الضباب الاسود ويسرح حرا فوق أرضنا » .

تمنيت لو يحدثنى باكثر من هذا ، لكن الشيخ الهرم سرعان ما شعر بالتعب وابتعد عني ، ورايته يفغو بسرعة . وأقول الحق بأن طعام وشراب روث غار كان كثيرا بالغ الكرم ، وقد أصيب العديد من النبلاء والوجهاء بالنعاس لكثرة ما أكلوا وشربوا .

اما عن طاولة روث غار نفسه فاليكم ما رأيت عليها : كان كل رجل جالس اليها قد وضع امامه غطاء طاولة وصحن وملعقة وسكينا ، اما الوجبة فكانت لحم خنزير وماعر مطبوخ ، كما كان هناك بعض السمك ايضا ، لان الشماليين كانوا يفضلون اللحم المطبوخ على المشوى . وكان هناك الملفوف والبصل بكميات هائلة ، كما كان هناك تفاح وجوز . وقد اعطيت لى قطعة لحم محلاة دسمة لم اذقها من قبل . قيل لى انها لحم غزال .

### الفصل الخامس عشر

اما الشراب الكريه المسمى ( ميد ) فانهم يصنعونه من العسل ثم يخمروه . وهو اشد مادة صنعها انسان سوادا وحموضة وقلادة ، ولكنها رغم كل ذلك مبعث قوة وعزيمة لاتعرف الحدود ، فما ان

يشرب الواحد بضع كئوس حتى يدور العالم به ويدوخ . ولكننى لم أشرب والله الحمد .

وقد لاحظت الآن ان بيولف ورفاقه لم يشربوا تلك الليلة وان شربوا فلما ، ولم يعتبر روثغار ذلك اهانة له ، بل اعتبره منطق الامور الصحيح . لم يكن هناك اى ريح تلك الليلة حتى قناديل ومشاعل قاعة هاروت لم ترتعش ، ومع ذلك فقد كان المساء رطبا وقارس البرودة . ولقد رايت بأم عيني ان الضباب خارج الابواب كان يتدحرج هابطا من على التلال فيحجب ضوء القمر الفضى ويجل كل شيء بالسواد . وبينما كانت حفلة المساء مستمرة غادر الملك روثغار وملكته القاعة ليناما ، بينما اغلقت واوصدت ابواب قاعة هاروت بواسطة القضبان الحديدية اما النبلاء والوجهاء الذين بقوا هناك فقد سقطوا فى نوبة من النوم السكران وراحوا يشخرون بأصوات عالية .

اما بيولف ورجاله ، وكانوا لا يزالون مرتدين دروعهم ، فقد راحوا يتجولون فى القاعة يصلحون من القناديل ويصلحون النار لكى تشتعل ببطء وبضعف . سألت هرغر عن معنى كل هذا ، فطلب الى ان اصلى وادعو لنجاتى ، وان اظهر بالنوم . ثم اعطيت سلاحا كان عبارة عن سيف قصير ولكنه لم يمنحنى من الراحة الا القليل ، فما كنت يوما محاربا وانا اعرف ذلك حق المعرفة .

وهكذا تظاهر كل الرجال بالنوم ، حتى بيولف ورجاله تمددوا بجانب اجساد نبلاء الملك النائمة والذين كانوا يشخرون بعمق . لا ادرى كم مضى علينا من الوقت ونحن ننتظر لاننى اعتقد اننى قد سهوت بعض الوقت . وفجأة استيقظت وانا بحالة من التنبه والفرع غير الطبيعيين . لم اكن نعسانا ولكنى كنت متنبها متوترا الى ابعد الحدود ، بينما كنت لازال مضطجعا على القماش المصنوع من جلد الدب على ارض القاعة الكبيرة . كانت ليلة مظلمة حالكة السواد ، وكانت القناديل فى القاعة تحترق بضوء هزيل ، بينما كانت نسمة ناعمة خفيفة تهمس وهى تتسلل الى القاعة وتراقص اللهب الاصفر . ثم سمعت صوت دمدمة خفيض وكأنه عواء خنزير حملته الى النسمة ثم شممت رائحة كريهة مؤذية كأنها رائحة جثة متعفنة مضى

على موتها شهر من الزمان ، وشعرت بالخوف الشديد . هذا الصوت المدمم المفزع ، ولا أجد له وصفا خيرا من هذا ، هذا الصوت المهم المدمم الشاخر بدأ يعلو شيئا فشيئا وبدأت تشتد ثورته . كان يأتى من خارج الابواب من أحد جانبي القاعة . ثم أتى من الجانب الآخر ثم من الجانب الثالث ثم الرابع . وفي الواقع كانت القاعة مطوقة تطويقا كاملا . جلست متكئا على أحد كوعى وقلبي يدق كمطرقة ، ثم نظرت فى أنحاء القاعة . لم يتحرك أى من المحاربين النائمين ، لكن كان هرغر مستلقيا بجانبى وعيناه مفتوحتان . ثم رايت بيولف أيضا يتنفس بعمق متصنعا الشخير ، بينما عيناه مفتوحتان استنتجت من هذا كله ان كل مقاتلى بيولف كانوا بانتظار المعركة مع الوندول الذين كانت اصواتهم الان تملأ الجو فى الخارج .

ليس هناك والله خوف اعظم من خوف الانسان حين لا يعرف السبب . ترى كم مضى على وانا مستلق فوق جلد الدب اصغى الى همهمة الوندول واستنشق رائحتهم الكريهة ! وكم مضى على انتظار ما لا اعرف ماهو : ربما بداية معركة اكثر ارهابا فى الخيال مما هى عند النزال ! وهنا تذكرت مايلى : وهو ان اهل الشمال يرددون دائما قول المديح الماثور الذى يحفرونه على قبور نبلاء المحاربين ، والذى يقول « انه لم يهرب من معركة يوما » وفى الحقيقة لم يهرب تلك الليلة اى من رفاق بيولف رغم ان الاصوات والروائح العفنة كانت تحيط بهم من كل جانب ، ترتفع حيننا وتنخفض حيننا آخر ، وحينما تاتى من هذه الجهة وحينما من تلك . ورغم ذلك فقد انتظروا وانتظروا .

ثم جاءت اشد اللحظات رعبا . توقفت كل الاصوات وساد صمت رهيب لم يكن يقطعه الا شخير الرجال وعصمه النار الهامسة . وحتى الان لم يات اى من رجال بيولف باقل حركة .

وفجأة جاء صوت تحطم هائل على ابواب قاعة هاروت الصلب ثم انفتحت هذه الابواب وكأنها عاصفة . تبع ذلك دفقة من الهواء المكن اطقا كل الانوار ثم دخل الضباب الاسود . لم استطع عددهم ، ولكنهم كانوا يبدون وكأنهم آلاف مؤلفة من اشكال سوداء مدممة ، ورغم ذلك فقد لا يكونون اكثر من خمسة او ستة من اشكال سوداء



ضخمة لا يكادون يشبهون الرجال ، ومع ذلك فقد كانوا أشباه رجال .  
وعبق الجو برائحة الدم والموت ، وأحسست ببرد يذهب بالعقل  
وارتجفت . ورغم كل ذلك فلم يتحرك مقاتل واحد .

ثم وبصرخة تجمد الدم في العروق وكافية لايقاظ الموتى قفز بيولف  
واقفا وهو يلوح بذراعيه السيف الهائل رندنغ الذى كان يدوى  
كالسنة اللهب المتأججة وهو يقص الهواء . وقفز كل محاربيه معه  
وانضموا الى المعركة . واختلطت صيحات الرجال بهمهمات الخنازير  
وروائح الضباب الاسود ، وكان هناك رعب وفوضى وتخريب  
وتمزيق في كل مكان من القاعة الكبيرة .

أما فيما يتعلق بى فلم يكن لى رغبة في القتال ، ومع ذلك سقط  
على أحد هذه الوحوش الضبابية الذى كان قريبا منى الى حد رايت  
بريق عينيه الحمراءوين - وفي الحقيقة رايت عينين تشعان كالنار ،  
ثم شممت رائحة العفن ثم رفعت كلى في الهواء وطوح بى عبر القاعة  
ثم القيت كما يلقي طفل حصاة . ارتطمت بالجدار وسقطت على  
الارض ، ثم أصابتنى غيبوبة لبضع لحظات تالية فبدا كل ما حو  
مضطربا فوضويا أكثر مما كان حقيقة أراها . استمرت المعركة من  
لا أعرف طولها ولكنها انتهت فجأة وبرمشة عين ثم اختفى الضباب  
الاسود هكذا وانسل مبتعدا وهو يدمدم ويلهث تاركا وراءه روائح  
الكريهة ومخلفا وراءه أيضا الدمار والموت الذى لم يستطع أن نحدد  
مداه حتى أضانا مشاعل جديدة .

واليكم وصفا لما جرى في المعركة : بالنسبة لجماعة بيولف فقد  
مات منهم ثلاثة ، وهم رونت وهلفا ، وهما نبيلان ، وادغثو وهو  
محارب . أما الاول فقد شطر صدره شطرين ، وأما الثانى فقد  
كسر عموده الفقرى أما الثالث فقد قطع رأسه بالطريقة التى وصفتها  
سابقا . كل هؤلاء المحاربين أصبحوا الآن موتى .

كما جرح اثنان آخران ، هما هلتف ورثل وقد فقد هلتف إحدى  
أذنيه وفقد رثل أصبعين من كفه اليمنى . ولم تكن جراحهما خطيرة  
كما لم يعبرا عن أية شكوى أو ألم . لأنه من عادة رجال الشمال أن  
يتحملوا آلام جراح الممارك بمرح ، وأن يمجدوا فوق كل شيء بقاء  
الحياة .

أما بالنسبة لبیولف وهرغر والآخرین فقد كانوا غارقین بالدماء ،  
كما لو كانوا قد استحموا فیها .

أما الآن فسأروى ما لن یصدقہ الكثیرون . ومع هذا فقد وقع :  
لم تقتل جماعتنا أیا من وحوش الضباب اذ انسلوا جمیعا هاربین  
وربما مجروحین جراحا بلیغة ومع ذلك فقد هربوا جمیعا .

هذا ما قاله هرغر : « لقد رأیت اثنين منهم یحملان ثالثا كان  
میتا » . ربما كان الامر كذلك لان الكل وافقوه علیه . وقد علمت  
بأن وحوش الضباب لا تترك أیا من افرادها لاقوام البشر وهم  
یفضلون ان یتعرضوا لمخاطر جسیمة مقابل ان یتعیدوه من أیدی  
البشر . كما أنهم یرضون بتحمل المشاق الطویلة لکی یحتفظوا برأس  
ضحیتهم ، ولذلك لم نجد رأس ادغشو فی أی مكان فقد حملہ  
الوحوش معهم .

ثم تحدث بیولف وترجم هرغر کلماته لی علی النحو التالی :  
« انظروا لقد احتفظت بتذکار لامجاد اللیلة الدامیة . انظروا هامی  
ذراع أحد الشیاطین » .

وتصدیقا لکلماته رفع بیولف ذراع أحد وحوش الضباب وقد  
بترت من الكتف بقوة ضربة السیف العظیم رندنغ . تجمع کل  
المحاربین حوله لیتفحصوا الذراع وقد تراءى لی علی الشکل  
التالی : بدا صغیرا له کف کبیرة الحجم مما یفوق حدود الطبیعة  
الا ان العضد والساعد كانا صغیرین بشکل لا یتفق وحجم الکف رغم  
ان العضلات كانت قوية جدا . كما كان هناك شعر أسود طویل  
وکثیف فوق کل أجزاء الذراع ماعدا راحة الکف . بقی ان نقول ان  
الذراع كانت تفیض برائحة کتک التی كانت تنطلق من جسم کل  
وحش . یضاف الیها رائحة عفن وحش الضباب الاسود .

عند ذلك حیى جمیع المقاتلین بیولف وسیفه رندنغ وعلقت ذراع  
الشیطان من عارضة خشبیة فی سقف القاعة الکبیرة . لینظر الیه  
بالدهشة والاستغراب کل سكان مملكة روثغار . وهكذا انتهت  
المعركة الأولى مع الوندول .

## الفصل السادس عشر

### الاحداث التى تلت المعركة الاولى

الحقيقة ان اهل بلاد الشمال لا يتصرفون ابدا كما يتصرف البشر العاقلون والمنطقيون . فبعد الهجوم الذى قامت به وحوش الضباب وبعد صدهم من قبل بيولف وجماعته ، وانا بينهم طبعاً ، لم يفعل رجال مملكة روث غار أى شىء على الاطلاق .

لم يكن هناك أى احتفالات ولا ولائم ولا تظاهرات فرحة ولا تعبير عن السعادة . انما جاء شعب المملكة من قاصى الاصقاع ودانيتها ليشاهدوا يد الشيطان المعلقة التى كانت تتدلى فى القاعة الكبرى ، وقد ابتهجوا لهذا المشهد بكثير من الاستغراب والتعجب . الا ان روث غار نفسه ، ذلك الرجل الشيخ نصف الاعمى ، لم يبد أى سرور كما لم يقدم لبيولف ورجاله أى هدايا ولم يقدّم لهم أية ولائم ، كما لم يقدم لهم أية اماء أو عبيد ، ولم يقدم لهم الفضة أو الثياب الثمينة ولم يقدم أى تعبير عن التقدير والاکرام .

بل خلافا لى تعبير عن المسرة فان الملك روث غار اظهر تقززا واشمئززا راسما على وجهه تعابير الجد ، كما كان يبدو أكثر خوفا مما كان فى الماضى . حتى انا نفسى ، وان لم اقل ذلك بصراحة ، كنت اشك بان روث غار كان يفضل الحالة السابقة قبل ان يهزم الضباب الاسود .

حتى بيولف لم يكن حاله مختلفا عن هذا ، فلم يدع الى أى احتفالات أو شراب أو اقامة ولائم على الاطلاق . اما النبلاء الذين ماتوا ميتة الشجعان فى معركة الليلة الماضية فقد وضعوا سريعا فى حفر ذات سقوف خشبية فى اعلاها ، وتركوهم هناك لمدة عشرة الايام المقررة . وكان هناك تسرع فى هذه القضية .

ومع هذا لم يعبر بيولف ورفاقه عن سعادتهم الا حين بدءوا بوضع المقاتلين الموتى فى جفرهم فعندما فقط سمحوا لانفسهم بالابتسام . وبعد كل هذا الوقت الذى قضيه بين اهل الشمال

صرت أدرك أنهم يتسمون لاي ميتة فى ساحة المعركة اذ ان هذه مسرة يعبرون عنها نيابة عن الشخص الميت وليس نيابة عن الاحياء . فهم يفرحون حينما يموت اى منهم ميتة المحاربين . وعكس ذلك صحيح أيضا بالنسبة اليهم : فهم يظهرون الالم والامتعاض حين يموت أحدهم فى نومه او فى فراشه . فهم يقولون عن مثل هذا الرجل « انه مات ميتة بكرة بين القش » . وليست هذه اهانة ولكنها السبب الذى يبدو له لرائاء الميت .

ويعتقد أهل الشمال ان كيفية موت انسان هى التى تحدد وضعه فى الحياة الاخرى « حياة الخلود » ، وهم يعتبرون موت المقاتل فى المعركة اسما مراتب الموت . اما « ميتة القش » فهى ميتة مخجلة .

وحين يموت اى انسان منهم فى نومه فانهم يقولون عنه انه قد خنقه « الماران » ، اى كابوس الليل . هذا المخلوق ، اى كابوس الليل ، هو امرأة ، وهو الامر الذى يجعل مثل هذه الميتة عارا مخجلا ، اذ ان الموت على يدى امرأة هو احط الامور عندهم على الإطلاق .

وهم يقولون أيضا ان الموت بلا سلاح مهين ، ولذلك ينام المقاتل الشمالى وسلاحه دائما معه ، حتى اذا أتى كابوس الليل يكون سلاحه فى متناول يده . ونادرا ما يموت مقاتل من مقاتليهم بسبب المرض او بسبب وهن الشيخوخة . وقد سمعت بملك اسمه آن ، عاش من العمر طويلا حتى أصبح كالطفل الرضيع مرة اخرى ، لا أسنان له ويعيش على طعام الاطفال ، حتى انه قضى بقية ايامه فى فراشه يشرب الحليب من قربة وعمل . ولكن قيل لى ان هذا نادر وغير عادى فى بلاد الشمال . ولقد رأيت بام عينى عددا قليلا منهم فقط يعمر حتى سن الشيخوخة ، واعنى بذلك التعمير حتى بلوغ السن الذى لا تصبح اللحية فيه بيضاء فحسب بل أيضا تتساقط عن الدقن والوجه .

اما نساؤهم فكثيرات منهن يعشن حتى سن الشيخوخة خاصة تلك الحيزبون التى يدعونها ملاك الموت ، فانهم يعتقدون بان مثل هؤلاء النسوة يملكن قوى سحرية فى شفاء الجراح والقاء التعاويذ والرقية ، وفى ابعاد الاثار الشريرة وفى التنبؤ عن احداث المستقبل .

ونساء بلاد الشمال لا يتقاتلن فيما بينهن أبدا ، وكثيرا ما رأيتهن يتدخلن لحل نزاع أو مبارزة بين رجلين ويطفئن الفضب المتصاعد . هذا ما يفعله خاصة إذا كان المقاتلون قد أصيبوا بالخبل بسبب السكر الشديد ، فهذا ما يحدث فى العادة .

لكن هؤلاء الشماليين الذين يفرطون بشرب المسكرات طيلة ساعات الليل والنهار لم يشربوا قطرة واحدة طيلة اليوم الذى تلا المعركة . ونادرا ما كان شعب روث غار يعرض على أحدهم كأسا ، وإن حصل هذا كانوا يرفضون الكأس . وقد وجدت هذا مدعاة للاستغراب الشديد فحدثت هرغر عنه مستفسرا . هرغر كتفيه على الطريقة الشمالية فى التعبير عن اللامبالاة ثم قال « الكل خائفون » وحين سألت عن سبب الخوف قال لى ما يلى : « لانهم يعلمون حق العلم أن الضباب الاسود سيعود ثانية » .

وهنا اعترف بأننى أصبت للحظسة بعدوى روح العداء التى تسيطر على المحاربين ، مع انى أعلم فى الواقع اننى لا أستحق مثل هذه الهيئة . ولكن رغم ذلك شعرت بالطرب والفرحة الغامرة لكونى ما زلت على قيد الحياة ، ولأن شعب روث غار يعاملنى باعتبارى واحدا من جماعة المحاربين الابطال . قلت بشجاعة « ومن يهاب مثل هذا ؟ إذا ما عادوا ثانية فسنهزمهم مرة أخرى » .

فى الحقيقة كنت مختالا مغرورا اختيال ديك حديث السن ، وانى اذ أتذكر ذلك الان أحس بالخجل من مباهاى السخيفة . أجاب هرغر : « ليس لمملكة روث غار مقاتلون أو وجهاء يقاتلون : لقد ماتوا جميعا منذ وقت بعيد ، وعلينا نحن فقط أن ندافع عن المملكة . بالامس كنا ثلاثة عشر . أما اليوم فنحن عشرة ، ومن بين العشرة اثنان جريحان ولا يستطيعان أن يقاتلا كرجلين كاملين . والضباب الاسود غاضب وسينتقم انتقاما رهيبا » . قلت لهرغر الذى كان قد أصيب ببعض الجروح الطفيفة أثناء المعركة ، والتى لم تكن شديدة شدة آثار المخالب على وجهى والتى كنت أتباهى بها . قلت له اننى لا أخاف شيئا يمكن لهذه الشياطين أن تفعله . أجاب باقتضاب اننى عربى واننى لا أفهم شيئا من عادات بلاد الشمال . ثم أخبرتنى بأن انتقام الضباب الاسود سيكون رهيبا .



عنيقا ، ثم أضاف « انهم سيمودون كالكورغن » . لم أفهم معنى الكلمة فسألت « وماهو الكورغن ؟ » فقال لي « انه تنين الجباحب ، والتي تطير هابطة في الجو » . الا ان هذا بدا لي خيالا محضا ، ولكنى كنت قد رأيت وحوش البحر كما وصفوا لي وحوشا تعيش بتلك الصفات ، رأيت وجه هرغر الممتنع والمجهد ، فاقتنعت بأنه كان مقتنعا بوجود تنين الجباحب . سألت « ومتى يأتى الكورغن ؟ » . أجاب هرغر « ربما هذا المساء » .

وفي الحقيقة بينما كان هرغر يتكلم رأيت أن بيولف ، رغم أنه لم ينم طيلة تلك الليلة ورغم أن عينيه كانتا محمرتين مثقلتين بالاجهاد ، كان يشرف من جديد على بناء الدفاعات حول سور هاروت والبنائات الملاصقة ، والتي تشكل منسازل الملك روث غار وبعض نبلائه ، والاكواخ الوضيعة التي يعيش فيها عبيد هذه العائلات كما يعيش فيها بعض المزارعين الذين كانوا يعيشون اقرب ما يكون الى شاطئ البحر ، حول كل هذه المنطقة بنى بيولف نوعا من السياج من العصي المتصالبة وعواميد الخشب ذات الرؤوس المدببة . . ولم يكن السياج اعلى من كتف رجل ، ورغم أن هذه الرؤوس المدببة كانت حادة قاطعة مخيفة فأننى لم أستطع أن أرى أو اقتنع بفاعلية هذا الدفاع لان أى رجل يستطيع صعوده على سلم بسهولة .

حدثت هرغر عن هذا فأجاب بأننى لست سوى غبى . وكان واضحا أنه كان يعاني من مزاج سيئ للغاية .

ثم بنوا خط دفاع آخر ، كان عبارة عن خندق خارج سياج الاعمدة ، وعلى بعد خطوة ونصف من ذلك السياج . كان هذا الخندق غريبا حقا . فلم يكن عميقا ابدا بل هو لا يكاد يضر رجلا الى ركبتيه وأحيانا اقل عمقا . وقد تم حفره بشكل غير متناسق بحيث كان في بعض الاماكن ضحلا للفساية وفي بعضها الاخر اكثر عمقا ، تتناوب حفر صغيرة . وفي بعض الاماكن غرزت بعض العصي القصيرة في الارض ورءوسها المدببة الى اعلى .

الا اننى عجزت عن تفهم مغزى وقيمة هذا الخندق الردىء عجزى عن فهم السياج ، ولكننى لم أسال ولم أستفسر من هرغر ، لادراكى لما كان عليه فى تلك اللحظة من سوء المزاج . ولكن بدلا من ذلك

ساهمت فى أعمال البناء كأفضل ما أستطيع المساهمة ، ولم أتوقف عن العمل الا مرة واحدة لامتيع نفسى بجارية على الطريقة الشمالية ، اذ انى نتيجة اثاره الليل الماضية والمعركة التى تلت واستعدادات النهار احسست بنشوة وقوة عظيمتين .

## الفصل السابع عشر

خلال ترحالى مع بيولف ومحاربيه على طول نهر الفولفا كان هرغر قد حدثنى بأن النساء غير المعروفات ، وبخاصة ان كن جذابات ومثيرات جنسيا ومفريات ، لا يجوز ان يوثق بهن . وقال لى هرغر ان فى أعماق الغابات والاماكن الموحشة من بلاد الشمال تعيش نساء يدعين نساء الغابات ونساء الغابات هؤلاء يغرين الرجال بجمالهن وكلماتهن المسولة ، حتى اذا ما اقترب منهم الرجل ، وجدهن بلا مؤخرة ووجد انهن لسن سوى اشباح . ثم تقوم هؤلاء النساء باسقاط سحرهن ورقيهن على الرجل الذى اغرينهن فيصبح أسيرهن .

الان وبعد ان حدثنى هرغر بهذا الشكل كنت حين اقترابى من هذه الجارية خائفا مترددا ، لاننى لم اكن اعرفها . لذلك قاول ما فعلت هو ان تحسست مؤخرتها بيدى فرايتها تضحك حتى غشيت لانها عرفت سبب تلمسى لقفها ، والذى كان الرغبة فى ان اطمئن نفسى انها لم تكن روحا من ارواح الغابات . وكم شعرت بأننى احمق سخيف فى تلك اللحظة ، وكم لعنت نفسى بتصديق خرافات الوثنيين . الا اننى اكتشفت مع مرور الزمن انه ان كان جميع من حولك يؤمنون بشيء ما فسرعان ما ستتجد نفسك مدفوعا لان تشاركهم ذلك المعتقد ، وكان هذا ما حدث لى فعلا .

ونساء اهل الشمال نحيفات شاحبات كالرجال هنا ، وهن طويلات طول الرجال أيضا ، حتى ان الكثيرات منهن كن ينظرن الى اسفل ليرين رأسى . وللنساء عيون زرقاء وشعر طويل للغاية ولكن شعرهن ناعم سهل شبكه . ولهذا فهن يعقدنه على شكل حزمة حول اعناقهن وفوق رءوسهن . وتسهلا لهذه العملية فقد صنعن لانفسهن انواعا

كثيرة من الملاقط والدبابيس مصنوعة من الخشب أو الفضة المزخرفة . وهذا ما يشكل زينتهن الرئيسية . كما أن زوجة الرجل الفنّي منهم ترتدى عقدا من الذهب أو الفضة كما قدمت آنفا . والنساء مفرمات بأساور الفضة المطروقة على شكل تين أو أفعى ، يرتدينها على سواعدهن ما بين الكوع والكتف وتصاميم أهل الشمال معقّدة مضفورة ، كما لو كانوا يريدون تصوير تداخل أغصان الشجر أو التفاف الأفعى حول نفسها . وهذه التصاميم جميلة جدا .

ويعتبر أهل الشمال أنفسهم حكماء حاذقين في الحكم على جمال المرأة . ولكن في الواقع بدت كل نسائهم لصيني نحيلات هزيلات ، كل أجسادهن تنوءات وزوايا وكتل من العظم .. وحتى وجوههن أيضا كانت ناتئة العظام وخدودهن مرتفعة . هذه الصفات يتقدها الرجال الشماليون ويمتدحونها مع أن امرأة فيها هذه المواصفات لن تجتذب ولو نظرة واحدة في مدينة السلام وسيُنظر إليها على أنها ليست أفضل من كلب نصف جائع بارز الاضلاع . فنساء الشمال لهن اضلاع تبرز بنفس الطريقة .

لست أدري لم النساء نحيفات الى هذا الحد ، فهن يأكلن بشراهة الرجال ، ومع ذلك فهن لا يكسبن لحما يغطي أجسادهن أبدا .

كما أن النساء لا يظهرن أي « حياء » أو أي سلوك محتشم . فهن لا يتحجبن ، كما يخلصن أجسامهن من فضلاتها في أماكن عامة كما تتطلب الحاجة . وبنفس الطريقة يندفعن نحو أي رجل يروق لخيالهن كما لو كن هن أنفسهن رجالا . ولا يوبخهن المحاربون على ذلك أبدا . والحال هي نفسها حتى ولو كانت المرأة جارية ، لأنه كما قلت سابقا يتصرف رجال الشمال بعطف شديد ومحبة تجاه عبيدهم خاصة إذا كانوا نساء .

مع تقدم ذلك اليوم نحو نهايته رايت بشكل واضح أن دفاعات بيولف لن تكتمل مع حلول الظلام ، سواء السياج المصنوع من الأعمدة المصنوعة من أغصان الأشجار المديبة أو الحفرة الضحلة . كما لاحظ بيولف ذلك أيضا نادى الملك روث غار والذي استدعى بدوره الحيزبون العجوز . هذه الحيزبون التي كانت هزيلة بالية

ولها لحية رجل قامت بذبح غنمة ونشر أوردتها على الأرض . ثم قامت بترديد أغان عديدة استمرت مدة طويلة وتخللها الكثير من التضرع الى السماء (١) .

حتى الان لم أسال هرغر عن هذا بسبب مزاجه السيء . وبدلاً من ذلك رحت أراقب محاربى بيولف الذين كانوا ينظرون الى البحر . كان المحيط أغبر هائجا ، والسماء ملبدة بالغيوم ، الا ان نسمة قوية كانت تهب نحو اليابسة . وهذا ما أشعر المقائلين بالراحة ، وقد حدثت السبب : وهو أن نسمة المحيط باتجاه اليابسة لابد وأن تمنع الضباب من الهبوط من فوق التلال . وكان تخمينى صحيحا .

وعند هبوط الليل توقف العمل في الاستحكامات والدفاعات ، ولشدة حيرتى ودهشتى أقام « روث غار » وليمة أخرى فخمة رائعة ، وفي هذا المساء وبينما أنا أراقب ما يجرى راح بيولف وهرغر والمحاربون الآخرون يشربون الكثير من الميد ويمرحون ويمتعون انفسهم كما لو أنهم كانوا لا يحسون بأى من هموم الدنيا ، وتمتعوا كمعادتهم بالاماء والجوارى ، ثم غرق الكل في نوم رتيب عميق .

ولقد علمت أيضا ما يلى : وهو أن كلا من محاربى بيولف كان قد اختار من بين الاماء والجوارى واحدة كان يفضلها على غيرها ، رغم أنه لم يكن يستثنى الاخريات . وقد حدثنى هرغر وهو مخمور منتش عن المرأة التى كان يفضلها قائلا « انها ستموت معى اذا اقتضى الامر » . ومن هذا استنتجت أن كلا من محاربى بيولف قد اختار امرأة ستموت من أجله فوق محرقة الدفن ، وأن هذه المرأة يعاملونها

(١) ان استعمال اين فسلان لتعبير « أوردة » قد أدى لبعض الأخطاء عند الباحثين . فقد كتب ي . د . كريهم مثلا أن « الفايكنج كانوا يتنبئون بالمستقبل عن طريق طقوس تعتمد على أوردة الحيوانات ونشرها على الأرض » وهذا بكل تأكيد رأى خاطئ ، فالتعبير العربى عن تنظيف الحيوان هو « قطع الأوردة والشرابين » واين فسلان هنا إنما يشير الى ممارسة طقوس دينية عن طريق فحص الأوردة . واللغويون الذين يعالجون مثل هذه التعابير العامة المحلية طيلة الوقت مفرمون بتناقضات وتعارضات المعانى : والمثل المفضل لهاالستد هو التعبير الانجليزى المستعمل فى التحذير « انتبه » والذي يعنى عادة على المرء أن يفعل العكس تماما وأن ينفطس بعثنا عن ملجأ أو غطاء .

بمحبة واعزاز وتقدير أكثر من غيرها ، فهؤلاء المحاربون كانوا ضيوف المملكة ، ولم يكن لهم فيها اماء يملكونهن ويمكن أن يؤمرن بحكم القرابة أن يفعلن ما يأمرونهن به .

## الفصل الثامن عشر

خلال الفترة الاولى لاقسامتى بين قوم الفئندان كانت نساء الشمال يمتنعن عن الاقتراب منى بسبب سمرة جلدى وسواد شعرى ، ولكن كان هناك همس كثير ونظرات كثيرة تتجه منهن صوبى ، ثم كانت هناك ضحكات وقهقهات بين احداهن والاخرى . وقد وجدت أن هؤلاء النسوة السافرات كن رغم سفورهن يجعلن من ابديهن حجابا يغطى وجوههن بين وقت وآخر خاصة عندما كن يضحكن . وهنا سأله هرغر : « لماذا يفعلن ذلك ؟ » لاننى لم اكن أرغب فى أن اتصرف بطريقة مخالفة لعادات الشماليين .

وقد اجاب هرغر بهذا الجواب : « تعتقد النساء أن العرب كالخيول الاصيله ، فقد كان هذا ما سمعته يتردد اشاعة بينهن » . ولم يشر هذا استغرابى وذلك للسبب التالى : ففى كل البلاد التى تجولت فيها وحتى ضمن أسوار مدينة السلام الدائرية ، وفى كل مكان يتجمع فيه الناس ليشكلوا لانفسهم مجتمعا تعلمت أن الاشياء التالية هى حقائق صحيحة . أولا ، أن شعوب بلد ما تعتقد بأن عاداتها هى المناسبة وهى أفضل من عادات أى من الشعوب الاخرى . ثانيا ، أن أى غريب ، رجلا كان أو امرأة ينظر اليه باعتباره اقل قيمة فى كل مجال ما عدا قضية النسل والتوالد . وهكذا فالأتراك يعتقدون بأن الفرس عشاق موهوبون ، وينظر الفرس باحتقار الى البشر ذوى البشرة السوداء ، كذلك ينظر اليهم من قبل شعوب أخرى وهكذا .

ويستمر الامر كذلك ، أحيانا بسبب يقوم حول حجم الاعضاء التناسلية وأحيانا بسبب يعطى عن مدة الفعل الجنسى ، وأحيانا أخرى بسبب مهارات وأوضاع متعددة اثناء الممارسة الجنسية . لا أستطيع التاكيد أن نساء الشمال يعتقدن بحق ما قاله هرغر ، ولكنى فى الواقع اكتشفت أنهن كن شد مندهشات بسبب ختامى وهى عادة غير معروفة بين أهل الشمال لانهم كفرة قدرون . اما عن



ساعة الحماة أو اللقاء ، قهؤلاء النساء صاحبات عنيقات ، تقوح  
منهن رائحة كان تضطرنني لأن أخلق أنفاسي طيلة فترة المجامعة .  
كما اتهم معتادات على اعتلاء الرجل والتلوي والخدش والعض الى  
درجة يحد الرجل معها نفسه وقد أطيح به من فوق من هي تحته  
كما يتحدث رجال الشمال . أما فيما يتعلق به فقد وجدت كل تلك  
الممارسة مصدر ألم وعذاب أكثر مما هي متعة .

وتحدث رجال الشمال عن هذا قائلين : « لقد وقعت مفركة  
حامية بيني وبين هذه المرأة أو تلك » وتتفاخرون باظهار العلامات  
الزرقاء والاورام التي يصابون بها في تلك المعارك لاصدقاتهم أو  
لرفاقهم كما لو كانت حروبا حقيقية فم معركة من المعارك . وعلى  
كل حال لم يكن الرجال ليؤذون أية امرأة ابداً استطعت أن أرى  
آثاره .

فم هذه الليلة وبينما كان محاربو بولف يقطعون فم سبات عميق ،  
كنت خائفا جدا من الشرب أو من الضحك ، فقد كنت أخشى عودة  
الندول . ومع هذا لم يعودوا ، ووجدت نفسي أخيرا أغفو ولكن  
بقلق .

وفي اليوم التالي لم تكن هناك أية ربيع ، وعمل كل شعب .  
مملكة « روث غار » بجهد وإخلاص وخوف . كان هناك حديث في  
كل مكان عن « الكورغن » ، وعن حتمية عودتهم للهجوم أثناء الليل . كانت  
جراح مخالف الوندول على وجهي تؤلمني ، فقد كانت تقرصني وهي  
تتمائل الى الشفاء ، كما كانت تؤلمني كلما حركت فمي لأكل أو  
أتكلم . وأقول الحق أن عزيمة المحارب قد هجرتني . فقد أصبت  
بالخوف مرة أخرى ورحت أعمل بصمت جنبا الى جنب مع النساء  
والرجال .

حوالي الظهر زارني النبيل المسن الادرد ( ساقط الاسنان ) الذي  
كنت قد تحدثت اليه في قاعة الوليمة . تنحى بي جانبا وقال  
يحدثني باللاتينية : « أريد أن أقول لك بضع كلمات » . ثم قادني  
بضع خطوات بعيدا عن العمال والتحصينات .

بدا باظهار اهتمام كبير بفحص جروحي التي لم تكن في الواقع  
خطيرة الى ذلك الحد ، وبينما كان يفحص تلك الجراح قال لي  
« أريدك أن تنقل تحذيرا وانذارا لجماعتك ، هناك ثورة وقلق في  
قلب الملك روث غار » . قال لي هذا باللاتينية .

سألت « وما السبب ؟ » قال النبيل الشيخ « انه المنادى والابن  
وغلف أيضا الذي لا ينسى - يهمس في أذن الملك . ثم هناك صديق  
وغلف . فوغلف يكرر على مسامع روث غار أن بيولف ورفاقه يخططون  
لقتل الملك وحكم المملكة » .

« وهذا ليس صحيحا » قلت هذا رغم أنني لم أكن أعرف  
الحقيقة . وبصدق كانت الفكرة تخطر على بالي من وقت لآخر ،  
فقد كان بيولف شايبا قويا وكان روث غار هرما ضعيفا ، وفي حين  
كان صحيحا أن طرق وعادات الشماليين غريبة فانه صحيح وحقيقي  
أيضا أن كل الرجال متشابهون ( فالإنسان هو الإنسان أينما كان ) .  
تابع النبيل الشيخ قائلا « المنادى ووغلف ينظران بحسد الى  
بيولف . وهما يستمعان الجو بالهمس الدائم في أذن الملك . أنني  
أنا أخبرك بكل هذا لكي تخبر الآخرين لكي يكونوا على حذر ، فهي  
قضية تناسب زواحف الخوف القاتلة » ثم أعلن أن جروحي كانت  
بسيطة وغادرني .

ثم عاد النبيل الى مرة أخرى وقال « أن صديق وغلف هو رائفر »  
ثم ابتعد ثانية دون أن ينظر الى مرة أخرى .  
وبعد كبير رحت أحفر وأعمل في بناء التحصينات حتى وجدت  
نفسى قرب هرغر ، كان مزاج هرغر ما زال كئيبا كما كان في اليوم  
السابق . حياتي بهذه الكلمات : « لا أريد أن أسمع أسئلة مجنون » .  
قلت له انه ليس لدى أية أسئلة أطرحها ، ثم حدثته بما أخبرني  
به النبيل الشيخ ، وأضفت قائلا بأنها قضية تلائم زواحف الخوف  
القاتلة (١) وعندما أنهيت حديثي عبس هرغر وأقسم أقلظ الإيمان

(١) لا يصف ابن فضلان زواحف الخوف الاسطورية هذه Basilisk  
مفترضا كما يبدو أن قراءه يعرفون هذا المخلوق الاسطوري ، والذي يظهر في المعتقدات  
الأولى لكل الثقافات الغربية تقريبا . والباسيليسك أو زاحف الخوف ، والمعروف أيضا  
باسم كوكاتريس Cokatrice هو عادة نوع من الديكة له ذنب أنثى وثيالية  
أرجل . يحمل أحيانا سلما بدل الريش . وما هو صحيح دائما عن الباسيليسك أو  
زاحف الخوف هو أن نظرتهم قاتلة ، كنظرة الكورغون . كما أن سمه مميت قاتل وطبقا  
لبعض الحكايات فإن أي شخص يلمس زاحف الخوف هذا يستعظم أي يرى السم وهو  
يصعد سله ثم يدخل في يده . وسيكون هذا الإنسان مرغما فيما بعد على أن يقطع  
يده ذاتها لينقذ نفسه .

ربما كان شعور الخوف والخطر هذا من زاحف الخوف هو الذي يشير ذكره هنا .  
فالنبيل الشيخ يخبر ابن فضلان بما معناه أن محادثة مباشرة مع ممسكي الاسطوانات  
لن تحل المشكلة . ومن الممتع حقا أن نعلم أن إحدى طرق التخلص من زاحف الخوف  
كانت في تركه يرى خياله المعكوس في مرآة ، فقد كان عندما يقتل بنظراته ذاتها .

وهو يضرب الارض بقدمه ثم طلب الى أن أرافقه الى بيولف .  
كان بيولف يوجه سير العمل على الخندق في الجانب الآخر عن  
المعسكر . تنحى هرغر به جانبا وحدثه بسرعة بلسان أهل الشمال  
مع اشبارات تكررت باتجاهى انا . عبس بيولف بدوره وأقسم  
الإيمان وضرب الارض برجله كما فعل هرغر ، ثم سأل سؤالا . هنا  
سألنى هرغر قائلا « ان بيولف يسأل من هو صديق وغلف ؟ هل  
أخبرك الشيخ من هو صديق وغلف ؟ » .

أجبت بأنه قد فعل وأن هذا الصديق اسمه رنفر . عند سماعهما  
هذا الخبر استأنف بيولف وهرغر حديثهما وتجادلا لمدة قصيرة  
ثم ابتعد بيولف بعد أن تركنى مع هرغر . قال هرغر « لقد بت فى  
الامر » .

وسألت « وما الذى تقرر ؟ » أجاب هرغر « ابق على أسنانك  
مطبقة » وهو تعبير شمالي يعنى انه لا يجوز أن أتكلم .

وهكذا عدت الى عملى دون أن أفهم شيئا عن هذه القضية أكثر  
مما كنت أعرف من قبل . ومرة أخرى صرت أشعر بأن هؤلاء  
الشماليين هم أكثر الناس شذوذا وتناقضا على سطح البسيطة ،  
اذ أنهم لا يتصرفون حول أية قضية من القضايا كما يتوقع من أناس  
عاقليين ان يفعلوا . ومع ذلك استثمرت بالعمل فى تحصيناتهم  
السخيفة وفى خندقهم الضحل ، ورحت أراقب وانتظر .

بعد صلاة عصر ذلك اليوم لاحظت بأن هرغر قد اتخذ موقعا  
للعمل قريبا من شاب ضخيم قوى . وراح هرغر وهذا الشاب يعملان  
جنباً الى جنب فى الحفرة لبعض الوقت . وقد بدا لطريقتى فى  
رؤية الاشياء انه هرغر كان يحاول جاهدا ان يقذف بالغبار فى وجه  
ذلك الشاب الذى كان فى الواقع أطول بحجم رأس كامل من هرغر  
كما كان أصغر سنا أيضا .

احتج الشاب واعتذر هرغر ، الا انه سرعان ما عاد يقذف  
الغبار فى وجهه مرة أخرى . ومرة أخرى اعتذر هرغر ، إلا أن  
الشاب غضب الان واصطبغ وجهه بالحمرة من الغضب . لم يمض  
سوى وقت قصير حتى عاود هرغر قذف الغبار ، فانتفض الشاب  
وبصق الغبار والتراب بغضب شديد . وصاح فى وجه هرغر  
بكلمات أخبرنى هرغر بها فيما بعد رغم أن المعانى كانت واضحة بما  
فيه الكفاية منذ البدء .

## الفصل التاسع عشر

قال الشاب « أنت تحفر كالكلب » .

اجاب هرغر قائلا : « او تدعوني كلبا ؟ » على هذا اجاب الشاب قائلا :  
 « كلا انما اقول بانك تحفر كالكلب وانت تنفض الفبار بلا انتباه  
 كالحيوان تماما » . وقال هرغر : « او تدعوني اذن حيوانا ؟ »  
 فاجاب الشاب « انت تخطيء فهم كلماتي » . وهنا قال هرغر  
 « هذا صحيح فان كلماتك ملتوية محدودة كامراة شمطاء هزيلة » .  
 صاح الشاب وهو يستل سيفه « هذه المراة ستديقك طعم الموت » .  
 وهنا استل هرغر سيفه ايضا ، فلم يكن ذلك الشاب الا رنفر  
 نفسه ، صديق وغلف . وهنا وعلى هذا الشكل رايت نيات بيولف  
 وقصده في هذه القضية واضحة تماما .

هؤلاء الشماليون شديدا الحساسية فيما يتعلق بكرامتهم  
 وتجري فيما بينهم مبارزات عديدة بعدد مرات تبولهم ، كما ان  
 معركة حتى الموت بهذا الصدد تعتبر امرا عاديا . وقد تقع هذه  
 المعركة في موقع الاهانة ، اما ان كان لابد من المنازلة بشكل رسمي  
 فان المبارزين يلتقون عند ملتقى طرق ثلاث . وعلى هذا النحو تحدى  
 رنفر هرغر لمبارزته .

وعادة الشماليين في هذا المجال تجرى على النحو التالي : في  
 الوقت المحدد يتجمع اصدقاء واقارب المبارزين في موقع المعركة  
 ويقيمون حفرة سرية على الارض مغطاة بالجلد ، ويثبتون هذا الجلد  
 بواسطة اربعة اعمدة من الفار . ويجب ان تجرى المعركة فوق هذا  
 الجلد بحيث يضع كل من المبارزين قدما او قدمين على الجلد طيلة  
 الوقت وبهذا الشكل يبقى المتخاصمين قريبين من بعضهما طيلة  
 الوقت . ثم يصل المتحاربان ومع كل منهما سيف وثلاثة تروس ،  
 فان انكسرت التروس الثلاثة وجب عليه ان يحارب بلا حماية  
 وتستمر المعركة حتى الموت .

هكذا كانت القوانين كما رتلها الحيزيون الشمطاء ، اى ملاك  
 الموت في موقع الجلد الممدود ، بينما كل جماعة بيولف واهل مملكة  
 روث غار متجمعون حول المكان . وكنت انا هناك ايضا ولكننى لم

أكن قريبا جدا من المقدمة . ولقد تعجبت كثيرا كيف يستطيع هؤلاء الناس أن ينسوا خطر الكورغن الداهم والذي كان قد أربهم قبل ذلك إلى حد الجزع . أما الآن فلم يكن أي منهم يهتم بأي شيء على الإطلاق سوى المبارزة .

وقد جرى النزال بين رنفر وهرغر على النحو التالي . ضرب هرغر ضربته الأولى فقد كان هو المتحدى ، وون صوت سيفه هائلا مرعبا وقويا على ترس رنفر . أنا شخصا كنت خائفا على هرغر لان ذلك الشاب كان أضخم بكثير وأقوى منه ، وفي الحقيقة قصمت ضربة رنفر الأولى ترس هرغر من عند القبض ، فطلب هرغر ترسه الثاني . ثم استؤنفت المعركة مرة أخرى وبوحشية شديدة . نظرت مرة أخرى إلى بيولف فلم أرى على ملامح وجهه أي تعبير على الإطلاق ، ثم نظرت إلى وغلف والمنادى على الجانب المقابل اللذين كانا ينظران بين حين وآخر إلى بيولف بينما المعركة محتدمة .

ثم انكسر ترس هرغر الثالث وبدأ حال هرغر يائسا يأسا ما بعده هرغر شديد التعب والارهاق وقد علا وجهه الآخر العرق والجهد ، بينما بدا الشاب رنفر مرتاحا هادئا وهو يقاتل بجهد بسيط .

ثم انكسر ترس هرغر الثالث وبدأ حال هرغر يائسا يأسا ما بعده يأس ، أو هكذا بدا لي للحظة عابرة . وقف هرغر وقدماه جامدتان على الأرض وانحنى وهو يلهث مرهقا تعباً إلى أبعد حدود التعب وهنا اختار رنفر هذه اللحظة ليطبق عليه . وفي لمح البصر تنحى هرغر جانبا وكأنه رعشة جناح طير فانقرز سيف رنفر الشاب في هواء الفراغ . وهنا رمى هرغر سيفه من يد إلى أخرى ، فهؤلاء الشماليون يستطيعون أن يقاتلوا قتالا رائعا بكلتا اليدين وببنفس القوة . وبسرعة فائقة استدار هرغر وقطع رأس رنفر من مؤخرته بضربة واحدة من سيفه .

ولقد رأيت بعيني الدم يتدفق من عنق رنفر بينما الرأس يطير في الهواء ويقع بين حشد الناس ، ثم رأيت بعيني الرأس يصطدم بالأرض قبل أن يصطدم الجسد أيضا بالأرض . هنا تنحى هرغر جانبا وعندها فقط أدركت أن المعركة لم تكن إلا مهزلة ، فقد اتوقف هرغر عن اللهاث والتفخ والتعب ووقوف دون إشارة اجهاد ودون



أن يرتفع صوته وينخفض من اللهاث وكان يحمل سيفه بخفة ويبدو وكأنه قادر على أن يقتل عشرة رجال آخرين من نفس النوع . ثم نظر الى وغلف وقال « كرم صديقك » وهو يقصد أن يعنى وغلف بأمر الدفن .

وبينما كنا نغادر موقع النزال قال لى هرغر أنه كان يتصرف بجذ ودهاء لكى يعرف وغلف أن رجال بيولف لم يكونوا فقط محاربين أقوياء شجعانا ولكن مقاتلين دهاءة أيضا . « سيزيد هذا من خوفه ولن يتجرا أن يقول شيئا ضدنا » . كان هذا آخر ما قاله هرغر فى ذلك الوقت .

ولقد شككت فى أن تعطى خطته هذا الاثر ، ولكن الحقيقة ان الشماليين يمتدحون المكر والدهاء وينظرون اليه باكبار اكثر مما ينظر اليه اكثر مقاتلى الهازار خداعا ومكرا ، بل اكثر من اكثر تجار البحرين كذبا والذين يشكل الدهاء بالنسبة اليهم نوعا من انواع الفن . فالذكاء فى المعركة والامور الرجولية تعتبر فضيلة اكبر من القوة المجردة فى عالم المقاتلين .

الا انه رغم ذلك كله لم يكن هرغر سعيدا ، كما انى لاحظت ان بيولف لم يكن سعيدا أيضا . وبينما كان المساء يقترب بدأت بواد الضباب تتجمع فوق التلال العالية . لقد اعتقدت انهم كانوا يفكرون برنفر الميت الذى كان شابا نثيا قويا شجاعا والذى كان من الممك ان يكون ذا فائدة عظيمة فى المعركة القادمة . لكن هرغر قال لى معلقا على ذلك : « ان الرجل الميت ليس مصدر نفع او فائدة لاي انسان » .

## الفصل العشرون

### هجوم تنين « الكورغن المضيء »

مع هبوط الظلام راح الضباب يزحف من على التلال ويلتف كالاصابع حول الاشجار وفوق الحقول الخضراء باتجاه قاعة هاروت ومحاربى بيولف الذين كانوا بانتظار الضباب . هنا حصل ارجاء

فى العمل ، فمن تبع ماء عذب حول الماء باتجاه الخندق وعندما فهمت مجمل الخطة ، اذ ان الماء اخفى العصي كما اخفى الحفر العميقة ، مما جعل الخندق شركا خادعا لاي غاز .

واضافة الى هذا فان نساء روث غار رحن ينقلن قرب الماء المصنوعة من جلد الماعز من البئر ويغمرن السياج بمائها والمنازل وكل سطوح قاعة هاروت . وكذلك ايضا راح محاربو بيولف يصبون الماء على اجسادهم وثيابهم واسلحتهم من ماء النهر . وكان الليل رطبا باردا ، ولاعتقاد بان هذا كان طقسا من طقوسهم الوثنية اعتذرت عن ممارسته او قبوله ولكن عبثا : فقد غمرنى هرغر بالماء كالآخرين من قمة راسى حتى قدمى . فوقفت والماء يقطر من جسمى وانا ارتجف حتى انى فى الحقيقة صرخت لصدمة الماء البارد وطالبت بان اعرف السبب . فكان جواب هرغر « ان تنين ضوء الليل ينفث النار » .

ثم قدم لى كاسا من شراب اليد ليخفف من شعورى بالبرد فشربته جرعة واحدة وكنت سعيدا به . كان الليل مظلما هالك الظلمة وكان محاربو بيولف ينتظرون وصول التنين « كورغن » . كانت كل العيون تنظر باتجاه التلال وقد غابت فى ضباب الليل . الا بيولف نفسه الذى راح يقطع محيط التحصينات جيئة وذهابا وهو يحمل سيفه العظيم رندنغ ويتمتم بكلمات التشجيع التى كان يوجهها بصوت منخفض الى محاربيه . كانوا جميعا ينتظرون بهدوء باستثناء واحد منهم وهو الضابط اكشفو . واكشفو هذا هو معلم فى استعمال فأس اليد ، وقد اقام عمودا قويا من الخشب على مسافة قريبة منه . وراح يتدرب على رمى بلطة اليد هذه على العمود الخشبي مرات ومرات . وفى الحقيقة قدمت اليه كثير من البلطات او فتوس اليد حتى انى عددت خمسا او ستا كانت مربوطة الى حزامه العريض وكانت هناك بلطات اخرى فى يديه وكثير منها منشور على الارض حوله .

وكان هرغر يتدرب على قوسه وحسامه بنفس الطريقة ، وكذلك كان يفعل سكلد ، لان هؤلاء الثلاثة كانوا اكثر الرماة مهارة بين المحاربين الشماليين . كانت سهام الشماليين مزودة برءوس

حديدية . وهي ممتازة الصناعة قناها مستقيمة كحبل مشدود .  
وفي كل قرية أو معسكر لهم هناك رجل غالبا مايكون كسيحا او  
اعرجا يسمى صانع السلاح يفصل السهام واقواسها ايضا لمحاربي  
منطقته ويدفع له مقابل هذه الحسنات ذهباً او صدفاً او وكما رايت  
بأم عيني طعاما ولحما (١) .

واقواس الشماليين تكاد تكون بطول اجسادهم ومصنوعة من  
قضبان شجر البتولا . اما اسلوب اطلاق السهام فهو كالتالي تشد  
قناة السهم حتى الاذن وليس حتى العين ومن هناك تترك لتنطلق ،  
وهي قوية لدرجة ان هذه القناة قد تمر بسهولة مخترقة جسم  
الانسان من طرف الى اخر دون ان تستقر فيه ، كما تستطيع هذه  
القناة ان تخترق ضفيحة من الخشب بسماكة قبضة يد الانسان .  
ولقد رايت بعيني مثل هذه القوة في سهم ، حتى اني حاولت ان اتقلد  
واستعجل احد اقواسهم ، ولكن عبثا لانه كان اطول واعصى من ان  
استطيع تدبير امره . والشماليون ايضا مهرة في كل فنون الحرب  
والقتل بأسلحتهم المختلفة التي يعتزون بها ايما اعتزاز . وهم  
يتحدثون عن اتساق الحرب ، والذي لا يعنى شيئا ابدا كترتيب  
الجنود مثلا لانه كل قتالهم ومعاركهم هي قتال رجل لآخر يكون  
عدوه . اما خطأ القتال فيختلفان باختلاف السلاح المستعمل .  
فبالنسبة للسيوف العريضة التي يلوح بها دائما على شكل قوس ولا  
تستعمل ابدا في الطعن فهم يقولون عنها : « هذا السيف يبحث عن  
خط الانفاس » والذي يعنى بالنسبة اليهم العنق وبالتالي تعنى هذه  
الجملة قطع الرؤوس عن الاجساد . اما بالنسبة للرمح والسهم  
والبلطة والخنجر وادوات الطعن الاخرى فانهم يقولون عنها : « هذه

(١) واضح ان هذا المقطع هو مصدر التعليق الذي نشره عام ١٨٦٩ العالم الاب نويل  
هارلى ، والذي يقول فيه : انه بين الفايكنج البرابرة كانت القيم الاخلاقية معكوسة  
مقلوبة الى حد من التضاد كانت تبدو معه مفاهيم الصدقات على انها واجبات او صدقات  
تدفع لصانعي الاسلحة ، وقد تجاوز تأكيد هارلى الفيكتوري حدود معرفته اللغوية .  
فالكلمة الشمالية Alm وهي تعنى Elm ، وهو الخشب الطرى  
الذى يصنع منه الاسكندنافيون اقواسهم ورماحهم ، وبعض الصدفة كان لهذه الكلمة  
معنى فى اللغة الانجليزية ايضا . فالكلمة الانجليزية Alms والتي تعنى  
الهباء الخيرية هي كلمة يعتقد عادة بانها مشتقة من الكلمة اليونانية Eleos  
ومعناها يشفق على .

الاسلحة تبحث عن الخط الدسم . (١) بهذه الكلمات هم يقصدون الجزء المركزي من الجسد بدءا من الرأس وحتى الاربية أو أصل الفخذ فالجرح في هذا الخط المركزي يعنى بالنسبة اليهم الموت المحقق لعددهم . ويعتقدون أيضا انه من الاولى أن تطعن المعدة لطراوتها من أن يطعن الصدر أو الرأس .

وفي الحقيقة استمر بيولف وجماعته بالمراقبة اليقظة طيلة تلك الليلة ، وكنت أنا بين الساهرين . ولقد عانيت الكثير من التعب والاجهاد وفي هذا النفر وسرعان ما شعرت بتعب شديد كما لو أنني خضت معركة حامية ، الا أن معركة من هذا النوع لم تقع أبدا . أما الشماليون فلم يكونوا متعبين ولكنهم كانوا متأهبين مستعدين في كل لحظة . صحيح أنهم أعظم الناس حيوية ويقظة على سطح البسيطة دائمو الاستعداد لاية معركة أو خطر داهم ، كما أنهم

(١) **Linea Adeaps** : تعنى حرفيا - الخط أو الخيط الدسم - مع أن الحكمة التشريحية في هذا المقطع لم يشك فيها يوما جندي خلال الالف سنة التي مضت على هذا الكلام - لان خط الوسط في الجسم هو المكان الذي تتجمع فيه أكثر الاعصاب والوعية حيوية في كل الجسم - فان الاشتقاق الدقيق لهذا التعبير كان غامضا . وفي هذا المجال من المفيد أن نبين أن احدى السير الايسلندية تتحدث عن محارب مجروح عام ١٠٣٠ م يسحب سهما من صدره ويرى قطعا من لحمه معلقة على رأسه . عندما يقول انه ما زال لديه بعض الدسم أو الدهن حول قلبه . ويتفق معظم العلماء على أن هذا تعليق ساخر من المحارب الذي كان يدرك تماما أنه كان قد جرح جرحا قاتلا ، وهو ما يعطينا حسا تشريحيًا رائعًا .

في عام ١٨٧٤ أشار المؤرخ الامريكي روبرت ميلر الى هذه الفقرة من مخطوطة ابن فضلان حين قال ، « رغم أن الفايكنج ، هم محاربون قساة فان اطلاعهم على المعلوم التشريحية ضئيل محدود . فقد كان يطلب من محاربيهم أن يبحثوا عن خط الوسط العمودي في جسم الخصم ، ولكنهم عندما كانوا يفعلون ذلك بالضبط كانوا يخطئون القلب الذي موضعه في يسار الصدر » .

وحقيقة القول أن ضالة المعرفة والاطلاع هي من صفات ميلر - نفسه لا من صفات الفايكنج . . . فعلى امتداد مئات السنين العديدة الماضية كان الغربيون العاديون يعتقدون دائما بأن موقع القلب هو على يسار الصدر ، والامريكيون يضعون أيديهم على قلوبهم عندما يقسمون بين الولاء للعلم .

والحقيقة هي أن القلب هو بناء من ابنية خط الوسط في الجسد ، وهو البناء الذي يمتد بدرجات متفاوتة الى يسار الصدر ، الا أن جرحا في خط الوسط في الصدر لا بد وأن يخرق القلب دائما .

لا يشعرون بالتعب أبدا من استمرارية هذا الوضع والذي هو أمر طبيعي بالنسبة لهم منذ ولادتهم . فهم في كل الاوقات متنبهون يقظون .

بعد مرور بعض الوقت غفوت ولكن سرعان ما أحسست بهرغر يوقظني بعنف : شعرت بهزة شديدة وبصفير قرب راسي ، وعندما فتحت عيني رأيت سهما يهتز ويصطدم بالخشب على مسافة عرض شعرة من أنفي . كان هذا سهما أطلقه هرغر الذي راح هو والآخرين يضحكون طربا لحالة الهلع التي أصابتني . ثم قال لي « اذا نمت فستغيب عن المعركة . » فقلت مجيبا بأن هذا لن يكون مأساة كبيرة طبقا لطريقة تفكيري .

استعاد هرغر رمحه وحين رأى أنني كنت غاضبا لمزاحه الخشن جلس بجانبى وراح يحدثني بطريقة ودية صادقة . وقد كان هرغر هذه الليلة ذا مزاج واضح الرغبة للتنكيت والضحك والسخرية . شاطرني قدحا من شراب الميد ثم حدثني قائلا « ان سكلد مسحور » ثم ضحك لهذا طويلا .

لم يكن سكلد بعيدا عنا فناداه هرغر بصوت عال وعندها أدركت انه كان يفترض بسكلد ان يكون قد سمع ماقلناه عنه ، الا ان هرغر حدثني باللاتينية التي لم يكن سكلد يفهمها ، لهذا ربما كان هناك سبب آخر لم اكن أعرفه . في هذه المرة راح سكلد يبرى رءوس سهامه منتظرا المعركة . وهنا سألت هرغر : « وكيف هو مسحور ؟ » فقال هرغر مجيبا « ان لم يكن مسحورا فانه ربما بدأ ينقلب عريبا ، لانه بدأ يغسل ثيابه الداخلية ويفسل جسده كل يوم الم تلاحظ هذا بنفسك ؟ » أجبت بأنني لم الاحب ذلك فيه . فقال هرغر وقد غرق في ضحكة طويلة « ان سكلد انما يفعل ذلك من أجل هذه المرأة الحرة او تلك والتي قد ملكت عليه لبه وفؤاده . فمن اجلها يغتسل بالماء كل يوم ويتصرف كأحمق خجول رقيق ، الم تلاحظ كل ذلك ؟ » ومرة أخرى أجبت بأنني لم الاحب مثل ذلك ، فسألني هرغر بحدة « اذن ما الذي تراه بدلا من ذلك ؟ » ثم ضحك كثيرا اعجابا بنباهته الشخصية ، وهو اعجاب لم اكن اشاركه فيه ولا حتى تظاهرت بذلك لانني لم اكن في مزاج يدفعني الى الضحك أبدا وهنا قال هرغر ،



« أنتم العرب شديدو القسوة والصرامة . وأنتم تهمهمون شاكين طيلة الوقت . وليس هناك من شيء في نظركم يثير الضحك ؟ » .

هنا قلت له بأنه يخطيء الظن . فتحدثاني أن اقض عليه قصة مرة . حدثته بقصة الموعظة التي ألقاها ذلك الواعظ الشهير . أنتم بالطبع تعرفون هذه القصة جيدا . فهي تتحدث عن واعظ شهير يقف على منبر الجامع وقد تحلق نحوه الرجال والنساء ليسمعوا كلماته الكريمة . في هذه الاثناء يقوم رجل اسمه حميد بارتداء ملابس امرأة ويضع على وجهه وشاحا ويجلس بين النساء . يقول الواعظ المشهور : « طبقا للاسلام ، يستحسن ألا يدع رجل أو امرأة شعر العانة ينمو طويلا جدا . » فيسأل أحدهم : « ومتى يصبح طويلا جدا أيها الواعظ ؟ » - الكل يعرف هذه القصة طبعاً فهي نكتة قليلة الحياء - يجيب الواعظ « لا يجوز أن يطول الى ما هو أطول من سنبله شعر . » وهنا يسأل حميد المرأة الجالسة بجانبه : « اختاه أرجوك أن تفحصي شعر عانتى وتخبريني ان كان أطول من سنبله شعر . » وتمد المرأة يدها تحت رداء حميد لتتحسس شعر العانة عندما تصطدم يدها بعضوه فتطلق صيحة وهي في حالة ذهول . ويسمع الواعظ هذه الصيحة فيسر كثيراً ويتجه الى الحضور قائلاً : « يجب عليكم جميعاً أن تتعلموا أصول الاصفاء الى موعظة كما تفعل هذه السيدة ، فانكم ترون بأنفسكم كم مست شفاف قلبها . » وهنا تصبح المرأة مجيبة ومازالت الصدمة تهزها : « انه لم يمس شفف قلبى ايها الواعظ انما مست يدي . »

## الفصل الحادى والعشرون

أصفى هرغر لقصتى بلامح محايدة تماماً . ولم يضحك حتى ولم يبتسم . وبعد أن أنهيت حديثى سألتنى ببلاهة ظاهرة « ماذا تقصد بالواعظ ؟ » عندها أجبتة بأنه شمالي غبى لم يكن يعرف شيئاً عن مدى اتساع هذا الكون وهذا العالم . فضحك لتأنيبى هذا ضحكا شديداً بينما لم تضحكه ولا مرة واحدة قصتى الخيالية . وفي هذه اللحظة اطلق سكلد صيحة التفت بعدها كل محاربى

بيولف وأنا بينهم لينظروا باتجاه التلال فيما وراء طبقات الضباب .  
وهاكم مارايت : على ارتفاع كبير في الهواء رايت نقطة ضوء نارية  
متوهجة وكأنها نجمة متألقة وعلى بعد كبير منا . ولقد رآها المحاربون  
جميعا ، فحدث بينهم لفظ واستفراب وتعجب .

وسرعان ماظهرت نقطة اضاءة أخرى ثم ثانية ثم ثالثة عدت  
اكثر من عشرة ثم توقفت عن العد ، فقد بدت هذه النقاط المضيئة  
وكانها في نسق كانت تتلوى كالافعى او كجسد التنين المتلوى .

« تها الان » قال هرغر لى مضييفا القول الشمالى الماثور : « اتمنى  
لك حظا جيدا في المعركة القادمة . » رددت له أمنيته هذه بأفضل  
منها ثم ابتعد عنى .

كانت نقط النار المضيئة مازالت بعيدة ولكنها كانت تقترب شيئا  
فشيئا . في هذه اللحظة سمعت صوتا ظننته الرعد . كان هذا  
رنين دمدمة عميقة كانت تملأ الهواء العابق بالضباب كما تفعل كل  
الاصوات في الضباب . فمن المعلوم ان همسة انسان في الضباب  
يمكن سماعها على بعد مائة خطوة واضحة كما لو كان يهمس في اذنك .

رحت اراقب واصفى في حين شد مقاتلو بيولف قبضاتهم على  
أسلحتهم وراحوا يرقبون ويصفون بانتباه شديد ، بينما تنين  
الكورغن المضيء راح ينهال علينا متلفعا بالرعد واللهيب .

وشيئا فشيئا كانت كل نقطة مضيئة تتنامى وتكبر حمراء كالحجر  
تومض . اما جسد التنين فكان طويلا متلألئا ، وهو منظر  
مثير لاشد الرعب ، الا اننى مع ذلك لم اشعر بالخوف ، لاننى أدركت  
الان ان هؤلاء لم يكونوا سوى خيالة او فرسان يحملون المشاعل ،  
وقد ثبت لى ان ذلك كان صحيحا .

وهكذا فسرعان مابرز الخيالة من الضباب هياكل سوداء تحمل  
مشاعل مرفوعة فوق خيول سوداء تزفر وتنقض . واحتدمت  
المعركة . وسرعان ما امتلأ جو الليل باصوات صراخ مرعب وصيحات  
الموت لان اول موجة من هجوم الخيالة كانت قد اصطدمت بالخندق  
فانقلبت خيول كثيرة وسقطت لاطمة راكبيها بالارض بينما غرقت  
المشاعل بالماء . وقد حاولت خيول كثيرة ان تقفز فوق السياج  
ولكنها علقت بنهايات العصي المدبية . وانتشرت النيران في جزء من

هذا السياج . أما المحاربون فقد راحوا يتراكمون في كل اتجاه . .  
 رأيت أحد هؤلاء الخيالة يقفز بجوار ، فوق القسم الملهب من  
 السياج ، وقد تمكنت من رؤية هذا الوندول بوضوح تام ولأول مرة  
 في حياتي . ولقد رأيت مايلي : على ظهر جواد أسود كان يركب شكل  
 بشري ملفع بالسواد ، لكن رأسه كان رأس دب . وقد ذهلت لبعض  
 الوقت عند رؤية هذا المنظر المرعب حقاً وخشيت أن أموت من  
 الرعب وحدي لأنى لم أر كابوساً كهذا في حياتي حتى ولا في المنام .  
 ولكن في نفس تلك اللحظة كانت بلطة أكثف تنغرز عميقاً في ظهر  
 الفارس الذي انقلب وسقط وبسقوطه تدحرج رأس الدب عن جسده  
 فראيت عندها أنه كان له رأس إنسان تحت رأس الدب .  
 وبسرعة البرق قفز أكثف فوق المخلوق الساقط وطعنه طعنة  
 عميقة في صدره ثم قلب الجثة على قفاها واستعاد بلطته من ظهرها  
 وجرى لينضم الى المعركة ثانية . وانضمت أنا الى المعركة أيضاً ،  
 لأننى أصبت بلطمة جعلتنى ألف وأدور على قدمي . كانت لطمة من رمح  
 أصبح كثير من الخيالة الآن في قلب السياج ومشاعلم  
 متوهجة ، بعضهم كان له رعوس الدببة وبعضهم لم يكن له مثل  
 تلك الرعوس . وقد تحلقوا في حلقة وحاولوا أن يضرخوا النار في  
 الابنية وفي قاعة هاروت وقد حارب بيولف ورجاله ضد هذه  
 المحاولة بعنف شديد .

استقرت على قدمي في اللحظة التي انقض فيها أحد وحوش  
 الضباب على فوق حصانه المندفع . وقفت ثابتاً وقد رفعت رمحي  
 عالياً ، وقد اعتقدت لوهلة بأن شدة الضغط سوف تعصرنى ولكن  
 الرمح مر خلال جسد الفارس فصاح صيحة مرعبة لكنه لم يسقط  
 عن حصانه بل ظل راكباً . أما أنا فقد سقطت على الأرض وأنا ألث  
 من الألم الذي كان يقطع معدتي ولكنى لم أكن حتى ذلك الحين قد  
 جرحت جرحاً حقيقياً .

وخلال المعركة أطلق هرغر وسكلد سهامهم العديدة وامتلا الجو  
 بصفيرهم وأصابوا أهدافاً كثيرة أيضاً . ولقد رأيت أحد سهام سكلد  
 يخترق عنق أحد الفرسان ليستقر هناك ، ثم رأيت مرة ثانية سكلد  
 وهرغر يطمان معاً أحد الفرسان في صدره ثم يعودان بسرعة لسحب

سهامهم من غمدها واطلاقها على نفس هذا الفارس حتى استقرت  
اربعة منها في جسده ، بينما صراخه يملأ الجو رعبا وهو يعدو بعيدا  
بجواده .

ومع ذلك علمت بأن هذا العمل اعتبر قتالا هزيلا يمارسه هرغر  
وسكلد ، لان الشماليين يعتقدون أن لاشيء مقدس في الحيوانات ،  
وهكذا فبالنسبة اليهم كان الاستعمال الملائم للسهام ينحصر في قتل  
الخيول لايقاع الراكب . وهم يقولون في ذلك : « ان رجلا ساقطا  
عن حصانه هو نصف انسان ، وفرص قتله مضاعفة . » وهكذا  
يتقدمون دونما ابطاء او تردد(١) .

ثم اندفع احد الفرسان في قلب المعسكر وقد انحنى قدر المستطاع  
فوق فرسه الاسود المنطلق كالسهم ثم أمسك بجسد الوحش الذي  
كان اكثفوا قد قتله ووضع على عنق حصانه وجرى الحصان مبتعدا .  
فكما قلت سابقا ، لا يترك وحوش الضباب هؤلاء ايا من قتلهم  
ليكتشف في ضوء الصباح .

احتدمت المعركة مدة من الوقت طويلة وعلى ضوء النار المتأججة  
في قلب الضباب . وقد رايت هرغر مشتبكا في معركة حياة او موت  
مع احد هؤلاء الشياطين . فأخذت رمحا جديدا وغرزته في ظهر ذلك  
المخلوق ، فرفع هرغر يده الى شاكرا والدماء تقطر منه ثم عاد ليفرق  
في حمم المعركة . وهنا شعرت بفخر وزهو عظيمين .

حاولت مقلدا ان استعيد رمحي ولكني وبينما كنت أحاول ذلك  
اصبت بصدمة من خيال عابر أطاحت بي بعيدا ، وأقول الحقيقة  
اننى منذ تلك اللحظة لم أعد أتذكر الا القليل . رايت بيت احد  
نبلاء روثغار يحترق بالسنة اللهب المتدفقة ، ولكنى رايت أن قاعة  
هاروت النائمة كانت لاتزال سليمة لم يمسها سوء ، فشعرت بسرور  
عظيم كما لو كنت أنا شماليا ، وكانت هذه آخر افكار ولدتهسا  
مخيلتى .

(١) طبقا للقانون الدينى يعتقد المسلمون بأن « رسول الله قد حرم القسوة فى معاملة  
الحيوانات » . واخافة الى ذلك كان العرب يتمتعون بصورة خاصة بتربية وتدريب  
الخيول . أما الاسكندنافيين فليس لديهم أى شعور خاص تجاه الحيوانات وقد نوه كل  
المراقبين العرب تقريبا بانعدام الشعور تجاه الخيول عند الاسكندنافيين .

## الفصل الثانى والعشرون

ومع اطلالة الفجر ايقظنى مايشبه غسلا على صفحة وجهى ، وقد سرتنى اللمسة اللطيفة . وسرعان ما ادركت بعدها اننى كنت اتلقى عناية كلب لالعق ، وكم شعرت عندها بشعور الاحمق السكران ، ثم اصابنى رعب شديد لا اشك بانكم تستطيعون تصويره (١) . وجدت نفسى ملقى فى الخندق حيث كان الماء احمر كالدم . نهضت ومشيت عبر المعسكر العابق بالدخان وبما لا يوصف من الموت والدمار . رايت الارض نفسها مشبعة بالدماء كما تكون مشبعة بالامطار وقد تكونت فوقها برك من الدماء كثيرة . رايت اجساد النبلاء المقتولين ونساء واطفالا موتى ايضا . كما رايت ثلاثة أو أربعة اجساد وقد احترقت فى النيران حتى تفحمت . كانت كل هذه الاجساد منثورة فى كل مكان على الارض وكنت مجبرا على أن أبقي

(١) كان معظم المترجمين الاوائل لمخطوطة ابن فضلان من المسحيين الذين لم يكونوا يملكون اية معرفة بالثقافة العربية ، وكانت ترجمتهم لهذا المقطع غالبا ما تعكس جهلهم فى ترجمة مسترسلة يقول الايطالى لاسيلا ( ١٨٤٧ ) « فى الصباح استيقظت من غفوتى السكرانة وكائننى كلب مشرد ، وكم شعرت بالخجل لحالى هذه » . ويستنتج سكوف مانه فى تعليق له عام ١٩١٩ وبقوله انه « لا يستطيع اى انسان أن يضع ثقته او يصدق قصص ابن فضلان ، لانه كان سكرانا مخمورا اثناء المراك ، وهو يعترف بذلك » ، وبلطف اكثر قليلا من ذلك يقول دوشاتلييه وهو مختص موثوق به بتاريخ الفايكنج ، يقول فى تعليق له عام ١٩٠٨ : « وسرعان ما اكتسب العرب شهرة السكر من الممارك ، وهو جوهر روح البطولة الشمالية و النورسية » .

انا مدين لمسعود فرزان العالم الصوفى بتفسير الاشارة أو التلميح التى يقدمها ابن فضلان هنا . وهو فى الواقع يقارن نفسه هنا بشخصية احدى التكات العربية القديمة جدا : يسقط رجل مخمور فى بركة على جانب الطريق . يمر كلب ويبدو بلحس وجهه ، فيظن المخمور أن شخصا لطيفا ينظف له وجهه فيقول بامتنان ، « ليجمع الله اطفالك مطيعين لك » . عندها يرفع الكلب رجله الخلفية ويمسك على السكران ، الذى يقول ردا على ذلك « وليباركك الله يا اخى لانك اتيت بالماء الدافى لغسل وجهى » .

فى اللغة العربية تحيل هذه الثكثة مضامين مألوفة ضد السكر والتذكير الذكى بأن المشروب ما هو الا خمرة وقذارة كالبول تماما .

ربما كان ابن فضلان يتوقع من قارئه أن يدرك ليس انه كان مخمورا ابدا ولكن انه لحسن الحظ استطاع أن يتحاشى أن يبول عليه كلب كما استطاع فى وقت سابق أن يتحاشى الموت فى المعركة : انها بتعبير آخر اشارة الى نجاة اخرى من خطر داهم محقق .



نظري مثبتا على الارض ثلا ادوس على اى منهم فقد كان القتلى  
كثيرين ومنتشرين بغزارة في كل مكان .

اما عن منشآت الدفاع فقد احترق بنياح العواميد كله تقريبا .  
وفي اقسام اخرى منه كانت الخيول تتولى معلقة باردة ، والمشاعل  
منشورة هنا وهناك . لكننى لم ار ايا من مقاتلى بيولف .

لم تكن تاتى اية صيحات او نحيب من مملكة روثغار ، فاهل  
الشمال لا يندبون موتاهم ابدا ، ولكنهم على العكس كان يسود الجو  
هدوء غير عادى . سمعت صياح ديك ثم نباح كلب ولكننى لم اسمع  
اى صوت انسانى مع انبلاج الصبح .

ثم دخلت قاعة هاروت الكبرى ، فوجدت جسيدين ممددين على  
اغصان نبات السمار وقد وضعت خوذااتهم فوق صدورهم . كان  
هناك سكلد وهو احد نبلاء بيولف ، ثم هلثوين الذى كان قد جرح  
سابقا اما الان فكان باردا شاحبا . كان كلاهما ميتين ، ثم كان هناك  
رثل وهو اصغر المحاربين سنا ، وقد جلس منتصبا فى احدى  
الزوايا بينما كانت تعنى بجراحه عدد من الجوارى . كان رثل قد  
جرح سابقا ولكنه كان الان يعانى من جرح جديد فى معدته  
والدماء تنهمر منه بغزارة وكان واضحا ان ذلك كان يؤله الى حد  
كبير ومع ذلك لم يبد الا الابتسامة والحبور ، وكان يبتسم دائما  
ويعاكس الجوارى بقرصه اثناءهن وافخاذهن ، وكن غالبا مايوبخنه  
لانه كان يسبب لهن الالتواء وتشتت الدهن بينما كن يحساولن  
تضميد جراحه .

واليكم طريقة معالجة الجراح طبقا لعاداتهم وطباعهم . ان كان  
جرح المحارب بليفا سواء فى ساعده او فى ساقه فقد كانت تربط  
حول هذا الطرف او ذاك دعامة ، ثم توضع قطع من القماش المفلى  
بالماء فوق الجرح لتغطيته . كما قيل لى بان نسيج العنكبوت وقطعا  
من صوف الحمل قد توضع فى الجرح ليتخثر الدم ويتوقف تدفقه .  
ولكننى لم ار مثل هذا ابدا .

اما ان جرح المقاتل فى راسه او فى عنقه فكان الجرح يغسل  
حتى ينظف ثم تفحصه الجوارى . فان كان الجلد ممزقا ولكن العظم  
سليم يسمون مثل هذا الجرح ، « جرحا لا اهمية له . » ولكن ان

كانت العظام محطمة أو مكسورة بشكل أو بآخر فانهم يقولون ، « ان حياته تنطلق من جسده وسرعان ماستهرب . »

اما ان جرح المقاتل في صدره فانهم يتحسسون يديه وقدميه . فان كانت هذه دافئة قالوا عن مثل هذا الجرح . « انه لا اهمية له . » اما ان كان هذا المقاتل يسعل ويتقيأ دما ، قالوا « انه ينطق دماء » ، ويعتبرون ذلك خطيرا جدا . وقد يموت الرجل من مرض النطق بالدم ، وقد لا يموت حسب قدره .

اما ان جرح المحارب في بطنه ، فانهم يقدمون له حساء من البصل والاعشاب ، ثم تبدأ النساء بتشتم ماحول جرحه ، فان هن شمن رائحة البصل قلن « انه مصاب بمرض الحساء » ويعرفن عندها انه سيموت .

ولقد رايت النساء بأم عيني وهن يحضرن حساء البصل لرثل الذى شرب كمية منه ، ثم راحت الجوارى يتشمن جراحه ، وشمن رائحة البصل . عندها ضحك رثل وقام بالقاء نكتة مضحكة للغاية ثم طلب شراب الميد الذى احضر له . وطيلة ذلك الوقت لم يظهر اى اثر للخوف او المبالاة .

في هذه الاثناء كان القائد بيولف ومحاربوه يعقدون اجتماعا في مكان آخر من القاعة الكبرى . انضمت اليهم ولكنى لم اتلق اية تحية منهم . حتى هرغر الذى انقذت حياته لم يعرنى اى انتباه ، فقد كان المقاتلون جميعا في حديث جدى خطير . كنت قد تعلمت بعضا من لغة الشماليين ولكن هذا البعض لم يكن كافيا ليتمكنى من تتبع كلماتهم السريعة المنخفضة ، وهكذا سرت الى مكان آخر وشربت بعض الميد وتحسست آلام جسدى . ثم جاءت جارية لتفسل لى جراحى التى كانت عبارة عن قطع او جرح في أعلى فخذى وآخر في صدرى . هذه الجراح لم اكن اعى وجودها الى ان جاءت هذه الجارية تعرض خدماتها على .

يفسل الشماليون الجراح بماء المحيط لاعتقادهم بأن هذا الماء يحتوى على قوى شافية أكثر مما يحتويه الماء العذب . وغسل الجراح بماء البحر ليس ملائما للجراح . وفي الواقع رحت أئن وأتألم

من ذلك بينما رثل يضحك ويحدث الجبارية قائلا : « انه مازال عربيا . » وعندها شعرت بالخجل .

كما يفسل الشماليون الجراح ببول البقر المسخن ولقد رفضت هذا حين عرض على .

يعتقد الشماليون بأن بول البقر مادة رائحة وهم يخزنونها في أوعية خشبية وفي الظروف العادية يغلونها حتى تصبح كثيفة ومخرشة للأنوف ثم يستخدمون هذا السائل المقرف للفسيل وخاصة لفسل الثياب البيضاء (١) .

وقد أخبرت أيضا عدة مرات أن الشماليين قد يذهبون في رحلات بحرية طويلة دون أن يتوفر لهم الماء العذب الكافي . عندها يشرب كل إنسان بوله ، وبهذا الشكل يبقون على قيد الحياة حتى يصلوا شاطئ الأمان . هذا ما قيل لى ولكنى لم أره أبدا بحمد الله .

والآن اقترب هرغر منى بعد أن انتهى مؤتمر المحاربين . أما الجارية التى كانت تعتن بجروحي فقد جعلت هذه الجراح تحرقنى حتى طار لى . ومع ذلك فقد كنت مصمما على أن اتحدى بمظهر أهل الشمال من المرح والحبور . فقلت لهرغر « أية قضية تافهة ستكون مهمتنا فيما بعد ؟ » نظر هرغر الى جراحي وقال « أنت تجيد ركوب الخيل . » سألت والهلع يتملكنى عن الوجهة التى سأركب فيها الخيل وقد فقدت لبرهة من الزمن كل مرعى وحبورى لانى كنت مرهقا شديد التعب ولم أكن أملك من القوة شيئا الا مايكفى للراحة . فقال هرغر « هذا المساء سيعود التنين المضى للهجوم ثانية ولكننا الان منهكون مرهقون وقد أصبح عددنا قليلا جدا ، ودفاعاتنا محروقة مدمرة . سيقتلنا التنين المضى جميعا . »

قال لى هذه الكلمات بهدوء . ولقد رايت ذلك واضحا وقلت لهرغر : « الى أين اذن سنتجه بخيولنا ؟ » وكنت اعتقد انه بسبب خسائرهم الفادحة قد يحاول بيولف وجماعته أن يفادروا مملكة روثغار . لم يعترض على رأيى هذا .

قال لى هرغر : « ان ذئبا يحتوى دائما فى وكره لايمكن ان يحصل على اللحم ، كما أن رجلا نائما لايمكن ان يحصل على النصر . » هذا

(١) البول هو مصدر من مصادر الامونيا ( النشادر ) وهو مركب منظف ممتاز .

مثل شمالى ومنه أدركت الخطة المفارقة تماما : وهى أننا كنا سنغير على ظهور الخيل ونهاجم وحوش الضباب حيث يختبئون فى الجبال أو فى التلال . وبقلب يملؤه الخوف سألت هرغر عن الوقت الذى سنبدأ فيه هذه المهمة فأجاب بأننا سنبدأ عند ظهيرة ذلك اليوم .

فى هذه اللحظة رايت طفلا يدخل القاعة وهو يحمل بيديه شيئا من حجر . أخذه هرغر وفحصه بامعان وكان نحتا حجريا آخر بلا رأس لامرأة حبلى مشوه قبيح . أطلق هرغر صيحة غضب ثم أسقط الحجر من يديه المرتجفتين . ثم صاح بالجارية التى أخذت الحجر وألقت به فى النار التى جعلته حرارة لهيبها يتحطم ويتناثر قطعا صغيرة . هذه القطع الصغيرة حملت ورميت فيما بعد فى البحر . هذا ما أخبرنى به هرغر .

سألت عن معنى الحجر المنحوت فقال لى : « انها صورة أم آكلة الموتى وهى التى ترأسهم وتوجههم عند الأكل . » وهنا رايت أن بيولف الذى كان واقفا فى منتصف القاعة الكبرى كان ينظر الى ذراع أحد الشياطين التى كانت مازالت معلقة فى خشب السقف . ثم تحول ببصره الى جسدي رفيقه المقتولين ثم الى رثل الدابل ورايت كتفيه تهبطان بياس وذقنه تفرق فى صدره . ثم مشى مارا بجانبهما ورايته يرتدى درعه ويأخذ سيفه ويهين نفسه للمعركة من جديد .

## الفصل الثالث والعشرون

### صحراء الرعب

طلب بيولف سبعة من الخيول القوية ، وانطلقنا فى ضحى ذلك اليوم من قاعة روثغار الكبرى باتجاه السهول المنبسطة الفسيحة ومن هناك توجهنا الى التلال الجائمة خلفها . كان معنا أيضا أربعة من كلاب الصيد البيضاء الناصعة البياض وهى حيوانات عظيمة أمل لان تكون ذئابا من أن تكون كلابا ، وقد كانت ملامحها موحشة

مرعبة . وهذا ماشكل مجمل قواتنا المهاجمة ، وكنت انظر اليها على انها تعبير ضعيف امام خصم بهذه الرهبة ، ومع ذلك كان الشماليون يضعون املا كبيرا في عنصر المفاجأة وفي هجوم مباغت . وبحسابهم ايضا كانوا يعتبرون كل واحد منهم مساويا لثلاثة او اربعة مقاتلين دفعة واحدة .

لم اكن ميالا للانطلاق بمغامرة اخرى من مغامرات الحرب ، وكم كانت دهشتي عظيمة لان الشماليين لم يكونوا يعكسون مثل هذا الرأي ، لان راى هذا كان ينبع من ارهاق جسدى . وعن هذا قال لى هرغر : « ان الامر لكذلك دائما هنا والان وفي عالم الحياة الخالدة » وهو تعبير عن فكرتهم عن السماء والجنة . في هذه الجنة ، والتي هي بالنسبة اليهم قاعة كبيرة ، يتقاتل فيها المحاربون من الفجر حتى الفسق . وأولئك الذين يموتون يعودون فيحيون ليشاركوا جميعا في وليمة كبرى في المساء فيها مالا ينتهى من الطعام والشراب . وما ان يعود ضياء الصبح حتى يعودا للقتال ، والموتى يعودون فيحيون وتكون هناك وليمة وهكذا دواليك . هذه طبيعة الجنة في عالم الخلد عندهم (١) . وهكذا فانهم لايعتبرونه امرا غريبا ان يحتدموا في معارك متواصلة يوما بعد يوم وهم مازالوا على الارض .

تم تقرير وجهتنا بموجب ذل متواصل من الدمار تركه الخيالة المتقهقرون من الليلة السابقة . كانت الكلاب تقودنا وهي تعدو على طول هذا الاثر من النقاط الحمراء . ولم نتوقف الا مرة واحدة فوق السهل المنبسط وذلك لاستعادة سلاح سقط من احد الشياطين الهاربين . هاكم وصفا لهذا السلاح : كان عبارة عن بلطة لهامقبض من نوع من الخشب وشفرة مصنوعة من الحجر المصقول مربوطة الى المقبض بواسطة سير جلدية . اما حد هذا الفأس فكان حادا جدا ، وكانت الشفرة مصممة بمهارة خارقة كما لو كان هذا الحجر حجرا كريما يراد صقله ليرضى خيلاء سيدة غنية . كانت مهارة الصنع

(١) تشير بعض المراجع اللاهوتية الى ان الاسكندنافيين لم يكونوا مبدعى هذه الفكرة عن المعركة الابدية ، ولكن هذه الفكرة هي مفهوم كلتي اد سلتس . وبها كانت الحقيقة فمن المعقول والمنطقي جدا ان يكون رفاق ابن فضلان قد تبناوا هذا المفهوم ، لان الاسكندنافيين ، كانوا على صلة بالكلتيين لمدة تزيد عن مائة وخمسين عاما في ذلك الوقت .



بهذا الحد وكان السلاح مخيفاً بسبب حدة شفرته . لم أكن قد رأيت في حياتي شيئاً من هذا القبيل على سطح الأرض . وقد أخبرني هرغر أن الوندول يصنعون كل أدواتهم وأسلحتهم من هذا الحجر ، أو هذا ما كان يعتقد الشماليون .

ومع هذا أغزينا السير قدماً وبسرعة كبيرة تقودنا الكلاب النابحة التي كان نباحها يسعدني . وبعد وقت طويل وصلنا إلى التلال . وتعمقنا داخل التلال دون إبطاء ودون طقوس بينما كان كل محارب من محاربي بيولف عازماً على تحقيق قصده ، وكنا جميعاً مجموعة من الرجال الصامتة المكفهرة الوجوه . كانوا يحملون علائم الخوف على وجوههم ومع ذلك لم يتوقفوا ولم يترددوا بل أغزوا السير قدماً غير مباليين .

كان البرد شديداً فوق التلال وفي غابات الأشجار الخضراء الداكنة . وكانت ريح مثلجة تهب على ثيابنا وكنا نرى أنفاس الخيول الصافرة ودفقات النفس البيضاء المنبعثة من الكلاب الجارية ولكننا رغم كل هذا أغزينا السير غير مباليين . وبعد بعض الوقت من السفر والرحيل الذي استمر حتى الظهر وصلنا إلى منطقة جديدة . هنا رأينا ثلة أو رابية أو هضبة داكنة أو قل هي أرض قفر شديدة الشبه بالصحراء ، غير أنها ليست رملية وليست جافة ولكنها رطبة مستنقعية ، وفوق هذه الأرض كانت تففو طبقات رقيقة من الضباب . ويسمى الشماليون هذه المنطقة صحراء الرعب (١)

ولقد رأيت بأم عيني أن هذا الضباب كان يحل على الأرض على شكل جيوب أو تجمعات صغيرة وكأنه سحببات دقيقة قد وقعت على الأرض . كنت تحد الهواء ثقياً في منطقة ما ثم في منطقة أخرى

(١) هي حرفياً « صحراء خوف » في مقال ظهر عام ١٩٢٧ ، كتب جي دجي توم لنسون مبيناً أن نفس تلك الجملة تظهر في كتاب *Volsunga Saga* ولذلك فهو يناقش مطولاً أن هذا التعبير إنما يمثل تعبيراً أصيلاً يقصد به الأرض المحترقة . وواضح أن توم لنسون لم يكن مدركاً أن *Volsunga Saga* لم تكن شيئاً من هذا القبيل ، كما أن ترجمة وليم مورس التي ظهرت في القرن التاسع عشر تحتوي على السطر أو البيت الذي يقول : هناك صحراء رعب في أقصى أقاصي الدنيا . لكن هذا البيت كان من اختراع موريس نفسه ، وهو يظهر في واحد من العديد من المقاطع حيث يضيف ويزيد على هذه السيرة الجرمانية الأصلية .

كنت تجد فقاعات ضبابية صغيرة معلقة قريبا من الارض على ارتفاع ركة حصان . وفي مثل هذه الامكنة كنا نضيع اثر الكلاب التي كان يلغها الضباب . وبعد لحظة من الزمن كان الضباب يتبدد لنجد انفسنا مرة اخرى في فضاء رحب مكشوف . هكذا كانت معالم هذه الهضبة .

لقد أعجبني هذا المنظر كثيرا ولكنه لم يكن يعنى شيئا بالنسبة للشماليين . قالوا بان في الارض في هذه المناطق مستنقعات كثيرة مالحة كريهة كما كان فيها ينابيع حارة دائمة الغليان كثيرة الفقاعات تخرج من شقوق في الارض . في هذه الاماكن كان يتجمع ضباب قليل ويبقى هناك بطيلة الليل والنهار . وهم يسمون : هذا المكان بارض البحيرات البخارية .

والارض هنا صعبة على الخيول لذا أصبح تقدمنا بطيئا . كما ان تقدم الكلاب أصبح اكثر بطئا . ولاحظت ان نباحها أصبح اقل قوة . وسرعان ماغيرت جماعتنا سيرها من عدو على ظهور الجياد وكلاب قافزة امامها الى مشية بطيئة مع كلاب صامتة تود لو لم تكن في المقدمة . وبدلا من ذلك بدأت الكلاب تتراجع حتى صارت تحت حوافر الخيول مسببة لها صعوبة اضافية في السير . كان الهواء لايزال باردا جدا بل في الواقع اكثر برودة مما كان ، وكنت ترى هنا وهناك بقعا صغيرة من الثلج على الارض ، مع ان هذا الفصل كان حسب ادق تقديراتي جزءا من فصل الصيف .

وببطء شديد تقدمنا مسافة لا بأس بها وكنت اتساءل عن احتمال ان نضيع دون ان نجد طريق العودة عبر هذه الهضبة . وفجأة وفي مكان ما توقفت الكلاب . لم يكن هناك اى فرق في طبيعة الارض او اى شيء على الارض ، ومع ذلك توقفت الكلاب كما لو كانت قد وصلت الى سياج او حاجز لايمكن تجاوزه . توقفت جماعتنا في هذا المكان وراحت تنظر في هذا الاتجاه او ذاك . لم تكن هناك اى ريح او اية اصوات ولا حتى صوت طير او حيوان حتى بل كان هناك الصمت والصمت العميق .

قال بيولف « هنا تبدأ ارض الوندول » ، بينما راح المحاربون يربتون على أعناق خيولهم ليخففوا من قلقها لان الخيول نفسها

كانت مضطربة نائرة الاعصاب في هذه المنطقة . كذلك كان الخيالون ايضا . أبقي بيولف شفتيه مطبقتين بينما يدا اكنفو ترتجفان وهو يقبض على أعنة جواده . أما هرغر فقد كان شاحبا كالاموات وعيناه تقفزان بين هذا الاتجاه أو ذاك . وكان الآخرون يفعلون الشيء ذاته كل بطريقته .

يقول الشماليون « للخوف قم أبيض » وكنت الآن أستطيع أن أرى ذلك بوضوح تام ، فقد كانوا جميعا شاحبين حول الشفاه والفم . لكن لم يتحدث أى من الرجال عن خوفه أبدا .

والآن تركنا الكلاب خلفنا وتقدمنا بأرض كانت سماكة الجليد تزداد فيها شيئا فشيئا ولو أنها كانت في البدء رقيقة تتكسر تحت الاقدام كما كانت كثافة الضباب تتزايد . لم ينطق أى منا بحرف إلا حين كان يخاطب حصانه . وعند كل خطوة كنا نخطوها كانت هذه الحيوانات أكثر عنادا في التقدم ، وكان المقاتلون يجدون أنفسهم مضطرين لحضها على التقدم بكلمات ناعمة ورفسات حادة . بعد حين بدأنا نرى أشكالا كالظلال في الضباب أمامنا رحنا نتقدم منها بحذر . رأيت مايلي بام عيني : على جانبي الممر وفوق أعمدة قوية علقت جماجم حيوانات هائلة وافكاكها مفتوحة بوضع هجومى . استمرينا في السير وهنا رأيت أن هذه الجماجم كانت لدبية هائلة الحجم بعبدتها الوندول . وقد أخبرنى هرغر بأن جماجم الدبية تحمى حدود أرض الوندول .

ثم رأينا عائقا آخر أكبر بعيدا كبيرا . هنا كانت صخرة هائلة الحجم مائلة علو سرج حصان ومنحوتة على شكل امرأة حبلى ومعدتها مندلقة الى الامام وكذلك ثدياها ، دون أن يكون لها رأس أو ذراعان أو ساقان . كانت الصخرة مغطاة بدماء القرايين ، والحقيقة أنها كانت تقطر بسيول من الدم الأحمر وكانت رهيبة المنظر شنيعة .

## الفصل الرابع والعشرون

لم يتحدث أى من الرجال عما رأى . واستمرينا في التقدم راكبين، بينما استل المحاربون سيوفهم وأشرعوها متهئين للقتال . وبهذه

المناسبة هاكم أحد مزايا الشماليين : وهى انهم فى حين انهم كانوا يظهرون بعض الخوف فى السابق ولكنهم ما أن دخلوا الى ارض الوندول قريبا من منبع الخوف حتى اختفت كل مظاهر الخوف عندهم . وهكذا كانوا يبدوون وكأنهم يفعلون كل شئ بشكل معكوس وبأسلوب محير لانهم فى الواقع كانوا يبدوون الان مطمئنين . ولكن الخيول وحدها بدت أكثر عنادا فى التقدم الى الامام .

بدأت أشم الان رائحة الجثث المتعفنة التى كنت قد شممتها من قبل فى قاعة روثغار الكبرى ، والتى ما أن صدمت أنفى من جديد حتى كاد يقمى على وهبط قلبى . اقترب هرغر منى وقال بصوت خفيض « كيف حالك ؟ » . ولانى لم أكن قادرا على اخفاء عواطفى قلت له « اننى خائفا . »

اجاب هرغر « ماذلك الا لانك تفكر فيما سياتى وتتخيل اشياء مرعبة قد توقف الدم فى عروق أى انسان . فلا تفكر فى المستقبل وكن أكثر حبورا بأن تعرف انه ما من انسان يعيش ابد الدهر . » ولقد رايت مدى صدق كلماته فقلت مجيبا « فى مجتمعى نردد قولا مأثورا يقول : اشكروا الله لانه فى حكمته وضع الموت فى نهاية الحياة وليس فى بدايتها . » ابتسم هرغر لهذا وضحك ضحكة قصيرة ثم قال « فى حال الخوف حتى العربى يقول الحقيقة » ثم عدا بجواده قدما وهو يبتعد عنى لينقل كلماتى الى بيولف الذى ضحك بدوره . وكم سر محاربى بيولف ان يستمعوا الى نكتة فى هذه الظروف . بعدها وصلنا الى تلة ما أن وصلنا الى طرفها حتى توقفنا ورحنا ننظر الى معسكر الوندول تحتها . هاكم وصفا لامتداده أمامنا كما رايت بهيئته : كان هناك واد وكان فى الوادى دائرة من الاكواخ الحقيرة المصنوعة من القش والطين ، هزيلة البناء يستطيع طفل صغير ان يبنى أفضل منها . وفى مركز الدائرة كانت نار كبيرة تشتعل وقد بدأت تخمد . ومع ذلك لم تكن هناك أية خيول أو حيوانات أو أية حركة ، كما لم تكن أية بادرة حياة من أى نوع ولقد راينا كل ذلك من خلال رقائق الضباب المتحركة .

ترجل بيولف عن حصانه وفعل المقاتلون نفس الشئ وأنا بينهم . وفى الحقيقة كان قلبى يدق واخذت أنفاسى تتسارع بينما كنت أنظر الى المعسكر المتوحش لهؤلاء الشياطين . سألت هامسا « ولماذا ليس هناك أى نشاط ؟ » اجاب هرغر قائلا « ان الوندول هم من مخلوقات

الليل كالبوم والخفاش ، وهم ينامون طيلة ساعات النهار . ولهذا فهم نائمون الآن ، وسوف تنقض عليهم ونذبحهم وهم يحلمون . « قلت وأنا أنظر الى الاكواخ الكثيرة . التى كنت أراها فى الاسفل » ولكننا قليلون « فاجاب هرغر وهو يقدم لى كأسا من شراب الميد » عددنا كاف « فاخذت الشراب منه بامتنان حامدا لله على انه غير محرم ولا حتى مكروه (١) . وفى الحقيقة بدأت أحس بتدوق لسانى وترحيبه بهذه المادة التى كنت أظنها فى الماضى قدارة كريهة : وهكذا تتوقف الاشياء الغريبة عن أن تكون كذلك بفعل التكرار . وبنفس الطريقة لم أعد أهتم برائحة الوندول النتنة المخيفة لائنى كنت قد تعودت على استنشاقها لمدة طويلة ولم أعد أحس بمبقها .

وأهل الشمال غريبو الاطوار جدا فيما يتعلق بالشم . فهم كما قلت غير نظيفين ، وهم يأكلون كل أنواع الطعام والشراب السيئ ، ولكنها حقيقة أيضا أنهم يقدرون أنوفهم تقديرا ما بعده تقدير وفوق كل أجزاء الجسد الاخرى . ففقدان اذن فى المعركة لايعتبر أمرا عظيما ، كما أن فقدان أصبع يد أو أصبع قدم أو حتى فقدان اليد هو قضية أكثر خطورة ولكنها أيضا ليست ذات بال ، ولكنهم يعدون فقدان الانف مساويا للموت نفسه وحتى لو كان ذلك الفقدان خسارة أربعة الانف وحدها والتى قد تنظر اليها الشعوب الاخرى على أنها اصابة طفيفة جدا .

وكسر عظم من عظام الانف بسبب معركة أو لطمة ليس أمرا ذا بال، فالكثيرون منهم لهم أنوف محطمة لهذا السبب . ولكنى لا أدري سببا لهذا الخوف الكبير عندهم من قطع الانوف (٢) .

(١) ان تحريم الاسلام للكحول هو حرفيا تحريم لفاكهة العنب المخمر ، أى الخمرة . بينما مشروبات العسل المخمر فهي مباحة للمسلمين .  
(٢) ان التفسير النفسى المعتاد لمثل هذه المخاوف من فقد بعض أعضاء الجسم هي أنها تمثل القلق من التشوه ( قلق الخصى ) . فى دراسة أجريت عام ١٩٣٧ عن تشويهاات صورة الجسد فى المجتمعات البدائية يلاحظ انكلوهارت أن الكثير من الثقافات لها رأى واضح ومباشر فى هذه المعتقدات . فقبائل الناناماني فى البرازيل مثلا ، تعاقب الغاطئين جنسيا يقطع أذنهم اليسرى ، وهو عقاب يعتقد بأنه يضيف القوة الجنسية . بينما مجتمعات أخرى تعطى أهمية كبيرة لفقدان الاصابع وامابع الارجل أو كما هي الحال عند الشماليين ، لفقدان الانف . وهى خرافة شائعة فى كثير من المجتمعات تلك القائلة بأن حجم انف الرجل يعكس حجم قضيبه .

ويقول امرسون ان الأهمية الممطرة للانف فى المجتمعات البدائية تعكس قيمة وظيفية منذ الايام التى كان فيها الناس صيادين ويعتمدون الى حد كبير على حاسة الشم لايجاد الفرائس ولتحاشى الأعداء . ففى حياة مثل هذه كان فقدان حاسة الشم اذى خطيرا حقا .



ترك محاربو بيولف وقد أصابهم الرعب ، وأنا طبعاً بينهم ، تركوا خيولهم فوق التلال ، وبما أن هذه الحيوانات لا يمكن أن تترك وحدها لأنها كانت خائفة جزعة . فكان لابد أن يبقى أحد أفراد مجموعتنا معها ، وكنت آمل أن أكون أنا المختار لذلك المهمة ، إلا أنها كانت من نصيب هلتف ، إذ كان قد أصيب بجرح وكان ذا قائد محدود جداً . وهكذا رحنا نحن الآخرون نهبط التلة بتعب ظاهر مابين الشجيرات الضعيفة والاجمات الميتة عبر المنحدر باتجاه معسكر الوندول . كنا نتحرك خلسة ولم نسمع أى انذار بل سرعان ما كنا فى قلب قرية الشياطين .

لم ينطق بيولف بحرف بل كان يعطى كل أوامره وتوجيهاته بيديه ومنه أدركت أن علينا أن نتحرك ضمن مجموعات كل منها من مقاتلين وكل مجموعة تتحرك باتجاه مختلف . كان على أنا وهرغر أن نهاجم أقرب الاكواخ الطينية وكان على الآخرين أن يهاجموا الاكواخ الأخرى . وقد انتظر الجميع حتى استقرت المجموعات خارج الاكواخ ثم وبصيحة كانت إشارة رفع بيولف سيفه العظيم رندنج وقاد الهجوم . اندفعت مع هرغر داخل أحد الاكواخ والدم يغلى فى راسي وسيفي خفيف كريشة فى يدي . وكنت والله مستعداً لأعظم معركة فى حياتي . لكنى لم أر شيئاً فى الداخل إذ كان الكوخ مهجوراً عارياً أيضاً باستثناء بعض الفراش القش الحقر الذى كان قمىء المنظر الى حد كان يشبه معه أعشاش بعض الطيور .

فاندفعنا خارجين وهاجمنا الكوخ الطينى التالى . ومرة أخرى وجدناه خالياً . فى الحقيقة كانت جميع الاكواخ خالية وقد أصاب رجال بيولف غضب كان من الشدة بحيث راح الواحد منهم يحدق بالآخر وعلى وجوههم تعابير الدهشة والتعجب .

وبعد ذلك دعانا اكثفو فتجمعنا عند واحد من هذه الاكواخ كان أكبر من الاكواخ الباقية . وقد وجدته أيضاً مهجوراً ككل الاكواخ الباقية ، ولكن داخله لم يكن عارياً أجرباً ، فأرض الكوخ كانت مغطاة بمظام هشة راحت تتكسر تحت أقدامنا كعظام الطيور رقيقة هشة متكسرة . أصابتني من ذلك دهشة عظيمة فانحنيت لأتعرف على طبيعة هذه العظام . ويا للصدمة التى أصبت بها عندما رأيت الخطوط المنحنية لحجر عين هنا وبعض أسنان هناك .

فى الحقيقة كنا نقف على سجادة مظلم الوجوه البشرية ، وكبرهان  
اضافى على هذه الحقيقة الرهيبة كانت قد الصقت فوق أحد الجدران  
اجزاء من جماجم البشر وقد وضعت مقلوبة كما توضع كثير من  
قدور الفخار ولكنها كانت بيضاء متألقة البياض . شعرت بالغثيان  
وغادرت الكوخ لافرج معدتى . هنا أخبرنى هرغر ان الوندول ياكلون  
ضحاياهم كما ياكل الكائن البشرى البيض او الجبن . هذه هى  
عادتهم ورغم شناعة هذا الامر عندما نتأمله فانه مع ذلك حقيقة  
أكيدة .

فى هذه اللحظة نادانا محارب آخر لندخل كوفا آخر . وهنا  
رايت مايلى : كان الكوخ أجرد عاريا ما عدا كرسى كبير يشبه  
العرش محفور من قطعة هائلة الحجم من الخشب . وكان لهذا  
الكرسى ظهر عال يشبه المروحة ومحفور على شكل أفاعى وشياطين .  
وعند أسفل الكرسى كانت بقايا عظام الجماجم وعلى ذراعى الكرسى  
حيث يريح صاحب الكرسى يديه كان هناك دم وبقايا مادة جينية  
بيضاء كانت عادة مخ بشرى . أما رائحة هذه الغرفة فكانت لاتطاق  
أبدا .

وحول هذا الكرسى وفى كل اتجاه كانت هناك نحوت حجرية  
صغيرة تمثل امرأة حبلى كالتى وصفتها آنفا . وكانت هذه النحوت  
تشكل محيط دائرة حول الكرسى

قال هرغر « هذا هو عرشها حيث تحكم » وكان صوته خفيفا  
مرتعبا .

ولم اكن قادرا على ادراك مغزى ما قال وكنت اشعر بالغثيان فى  
قلبى وفى معدتى . وسرعان ما وجدت نفسى أفرغ معدتى على  
التراب . وحتى هرغر وبيولف والآخرين جميعا أصيبوا بامتعاض  
شديد . ولكن لم يفرغ أى منهم معدته ، ولكن بدلا من ذلك تناولوا  
جمرات متاججة من النار واضرموا النار بالاكواخ التى راحت تحترق  
ببطء لأنها كانت رطبة .

وهكذا صعدنا التلة . وامتطينا جيادنا تاركين أرض الوندول  
وغادرنا صحراء الرعب . كان الحزن والاسى يرتسم الان على وجوه  
بيولف ومحاربيه جميعا لان الوندول قد تجاوزوه فى الدهاء

والذكاء بتركهم أوكارهم توقعا لهذا الهجوم . أما حرق اكواخهم فان الوندول لن يعدوه خسارة كبيرة .

## الفصل الخامس والمثرون

### مؤتمر الاقزام

عدنا كما رأيتنا ، الا ان جياندا كانت تعدو بسرعة اكبر لانها الان كانت اكثر حماسا . واخيرا هبطنا من التلة ورأينا السهل المنبسط يمتد امامنا وعن بعد وراءه رأينا طرف المحيط والمستوطنة وقاعة روث غار الكبرى .

وفجأة استدار بيولف مبتعدا عن وجهتنا وقادنا باتجاه آخر نحو جرف صخري عال ، تتلاطمه رياح المحيط . عدوت بحصاني حتى وصلت الى هرغر وسألته عن سبب ذلك فأجاب بأن علينا ان نبحث عن اقزام تلك المنطقة .

أصبت بدهشة عظيمة لسماعى هذا الكلام لان اهل الشمال ليس بينهم او فى مجتمعهم اقزام على الاطلاق ، وهم لا يرون ابدا فى الشوارع وما رأيت احدا منهم يجلس عند اقدام الملوك ، ولن تجد ايا منهم يعد النقود او يدون الحسابات او يقوم باى من تلك الحسابات التى اعتدنا ان نرى الاقزام يفعلونها (١) . ولم يذكر امامى اى من اهل الشمال هؤلاء الاقزام قبلا وكنت افترض دائما ان شعبا من المردة كشعب الشمال لا يمكن ان ينتج اقزاما (٢) .

وصلنا الان الى منطقة ملأى بالكهوف تعصف فيها الرياح والاصداء . ترجل بيولف عن حصانه وفعل كل محاربته نفس الشيء وراحوا يتقدمون على الاقدام . سمعت صوت صفير ثم رأيت فقاعات

(١) فى منطقة البحر الابيض المتوسط ومنذ العصور الفرعونية كان ينظر الى الاقزام على انهم خارقو الذكاء واهل للثقة ، كما ان مهمات مسك دفاتر الحسابات والتعامل المال كانت توكل اليهم دائما .

(٢) من بين التسعين ميلا عظيما تقريبا التى يمكن ان تنسب وبثقة الى فترة الفايكنج باسكندنافيا فان الطول الوسطى للرجل هناك هو حوالى ١٧٠ سم .

من البخار تتصاعد من هذه الكهوف العديدة . دخلنا أحد هذه الكهوف وهناك التقينا بالاقزام .

كان مظهرهم كالتالى : الواحد منهم فى حجم القزم العادى ولكنه يتميز برأس هائل الحجم ، ويملامح يبدو عليها الهرم المفرط . كان هناك اقزام ذكور واثاث وكانوا جميعا يبدو عليهم السن المتقدمة . كان الذكور منهم ملتحين وقورين ، والنساء ايضا كان لهن بعض الشعر على وجوههن ولذا كن يحملن مظهر الرجال وكان كل قزم يرتدى معطفا من الفراء او جلد السمور ، كما كان يرتدى حزاما رقيقا من الجلد مزينا بقطع من الذهب المطروق .

عند وصولنا حيانا الاقزام بادب ودون اى خوف . قال لى هرغر بان هذه المخلوقات ذات قوة سحرية وهى لذلك لا تخاف اى انسان على سطح الارض . ولكنهم مع ذلك يخشون الخيول ، ولهذا السبب تركنا خيولنا خلفنا . واطاف هرغر ان قوى القزم الخارقة انما تكمن فى هذا الحزام الرقيق ، وان القزم على استعداد لان يفعل اى شىء لاستعادة حزامه اذا ما فقده .

كما اضاف هرغر قائلا ان مظاهر السن المتقدم على وجوه الاقزام هى امر صحيح ، لان القزم كان يعيش عمرا اطول من عمر اى انسان عادى . وقال لى ايضا ان هؤلاء الاقزام بالفون جنسيا منذ اول سنوات شبابهم ، وانهم يولدون وقد نبت لهم شعر العانة او ملتقى الفخذين كما ان الواحد منهم يملك عضوا ذكرا بحجم غير عادى . وفى الحقيقة فان الوالدين انما يميزان لاول وهلة فيما اذا كان طفلهما قزما بهذه الميزة كما يميزان بهذه الطريقة ان طفلهما مخلوق سحرى يجب ان يحمل الى التلال ليعيش مع الاخرين من جنسه ، فاذا ما تم هذا يتقدم الابوان شكرهما الى الالهة ويذبحان القرابين ، لان ولادة قزم تعتبر بنظرهم حظا عظيما عاليا للوالدين .

هذا هو ما يمتقده اهل الشمال كما حدثنى عنه هرغر ، ولكننى لست على علم بحقيقة الامر ، وانما اقص ما قيل لى .

قلت اذن اننى رايت ان الصغير والبخار كانا يتصاعدان من حلل عظيمة ( قدور ) هائلة الحجم كانت تغطس فيها شفرات من الفولاذ المصقول لتنقية معدنها ، فهؤلاء الاقزام يصنعون اسلحة عالية الجودة

ومفضلة عند أهل الشمال . ولقد رأيت محاربى بيولف يجيلون  
أبصارهم فى أركان الكهوف بشوق واهتمام كما لو كانوا نساء فى  
سوق تباع أعلى أنواع الحرير .

سأل بيولف هذه المخلوقات أسئلة كثيرة ، طلب إليه بعدها أن  
يتجه الى أعلى قمة الكهوف حيث كان يجلس قزم وحيد أكبر سنا  
من الآخرين له لحية وشعر شديد البياض صافيا ، وله وجه  
مجمع مفضن . هذا القزم كان يدعى « تن غول » ، أى قاضى الخير  
والشر كما تعنى أيضا العراف .

لابد أنه قد كان هذا العراف تلك القوى السحرية التى قال  
الجميع أنه يملكها ، لأنه حيا بيولف باسمه فورا ، ورجاه أن يجلس  
معه . جلس بيولف بينما تجمعنا واقفين على مسافة غير بعيدة  
منهما .

لم يقدم بيولف الى الـ « تن غول » أية هدايا ، كما أن رجال  
الشمال لم يقدموا أى مظهر من مظاهر الاحترام والانحناء لهؤلاء  
البشر الصغار : فهم يعتقدون أن أعطيات الاقزام يجب أن تقدم  
مجانا ، ومن الخطأ أن تستحث عطاءات الاقزام بالهدايا . وهكذا  
جلس بيولف وراح « التن غول » ينظر اليه بامعان ثم أطبق عينيه  
وبدا يتكلم وهو يهز جذعه الى الخلف والامام وهو جالس . كان  
التن غول يتحدث بصوت عال حاد النبرات كصوت طفل وقد نسر  
لى هرغر معانيه كما يلى :

« يا بيولف انت محارب عظيم ولكنك التقيت بمعركة حياتك  
وبندك فى وحوش الضباب ، أكلة الموتى . سيكون هذا صراعا حتى  
الموت ، وستكون بحاجة الى كل قوتك وحكمتك لتغلب على هذا  
التحدى » . واستمر يتحدث بهذا الشكل لبعض الوقت وهو يهتز الى  
الامام والى الخلف . وكان فحوى حديثه أن بيولف كان يواجه قدرا  
صعبا كنت أدركه كما كان يدركه بيولف نفسه بما فيه الكفاية . ومع  
ذلك حافظ بيولف على صبره وهدوئه .

كما لاحظت أيضا أن بيولف لم يظهر أى انزعاج حين راح القزم  
يسخن منه ، وهى السخرية التى كررها القزم عدة مرات . قال  
القزم : « لقد اتيت الى لانك هاجمت الوحوش فى المستنقع الاسن



المالغ ، دون أن يجديك ذلك شيئا . ولهذا جئت الى تطلب النصيحة والتحذير ، كما يطلب الطفل ذلك من والده تسألني ماذا على أن افعل لأن كل خطي قد أوقعت بي وفشلت . ثم ضحك العراف طويلا لهذا الحديث . عاد وجهه بعدها الى الجد والوقار مرة أخرى .

« أي بيولف » استأنف العراف حديثه قائلا : « انني أرى المستقبل ولكنني لا أستطيع أن أخبرك إلا بما تعرفه تماما . فانت وكل محاربك الشجعان قد استنفرتكم كل مهارتكم وشجاعتكم لتشنوا هجومكم على الوحوش في صحراء الرعب . بهذا خدعتم انفسكم لأن هذا لم يكن أبدا بطل حقيقي .

سمعت هذه الكلمات بكثير من الدهشة لأن ما جرى بدا لي بطوليا حقا وبما فيه الكفاية .

ثم أضاف « التن غول » قائلا « كلا كلا يا بيولف النبيل ! فقد انطلقت لتنجز مهمة كاذبة ، وكنت تدرك في أعماق قلبك البطل أنها لم تكن أهلا لذلك . وكذلك أيضا كانت معركتك مع « تنين الكورغن » المضيء لا تستحق النزال ، تلك المعركة التي كلفتك حياة محاربين كثيرين شجعان . فما القصد وما الهدف من كل خططك هذه ؟ » ولكن بيولف لم يحر جوابا ، بل جلس الى جانب القزم وانتظر .

استأنف القزم حديثه قائلا : « ان تحدى بطل عظيم انما هو في القلب وليس في الخصم . ماذا يهم اذا انقضضت على الوندول في أوكارهم وقتلت العديد منهم وهم نائمون ؟ قد تستطيع قتل الكثيرين إلا ان هذا لن ينهي الصراع أكثر مما يمكن لبترا الاصابع أن يقتل انسانا . فلكي تقتل انسانا عليك أن تفرز سيفك أو رمحك في الرأس أو في القلب ، وكذلك الامر مع الوندول . أنت تعرف كل هذا جيدا ولست بحاجة لاستشارتي أو لنصيحتي لتدركه . وبهذه الطريقة راح القزم وهو يهتز الى الامام والى الخلف يطهر نفس بيولف . ولقد تقبل بيولف توبيخاته وملامته برحابة صدر ، لأنه لم يجب ولكنه أطرق برأسه فقط .

ثم استأنف «التن غول» خطابه قائلا « لقد قتت بممل رجل ، مجرد رجل ، وليس ممل بطل حقيقي . فالبطل ينجز من الاعمال

ما لا يجزؤ رجل على القيام به . فلكي تقتل الوندول عليك أن تضرب في الرأس وفي القلب . عليك أن تقهر أمهم في كهوف الرعد » . لم أفهم معنى هذه الكلمات أبدا ، في حين استمر القزم يقول « أنت تعرف هذا وتعرف أن هذا كان الصحيح دائما ، خلال كل عصور الانسان . هل سيموت محاربوك الشجعان واحدا تلو الآخر ؟ أم أنك ستضرب أمهم في الكهوف ؟ أنا لا أقدم لك بهذا نبوءة إنما أقدم لك الخيار ما بين البطل والانسان » .

هنا تمت بيولف بإجابة ما ولكنه تحدث بصوت منخفض ضاعت كلماته على مع صفير الريح التي كانت تعصف بمدخل الكهف . إلا أنه مهما كان فحوى هذه الكلمات فقد استأنف القزم حديثه قائلا : « ذلك هو جواب البطل يا بيولف ولم أكن أتوقع أي جواب آخر منك ، ولهذا فسأدعم مسماك » . ثم دعا القزم بعض بني جنسه ليقربوا منه خارجين من زوايا ظلمة الكهف إلى النور . وعندما كشفهم الضوء كانوا يحملون بأيديهم أشياء كثيرة .

قال التن غول « هاك هذه الحبال المصنوعة من جلود الفقمة التي اصطدناها في أول ذوبان الجليد . ستساعدك هذه الحبال على أن تصل مدخل كهوف الرعد من ناحية البحر » . قال بيولف « أنا أشكرك على هذا » . بعدها أضاف « التن غول » يقول « وهاك أيضا سبعة خناجر طرقت بالبخار والسحر أقدمها لك ولمحاربيك . السيوف العظيمة لن تكون ذات فائدة أو جدوى في كهوف الرعد . فاحملوا هذه الأسلحة بشجاعة . وستنجزون مهمتكم وأمنيتكم » . أخذ بيولف الخناجر وشكر القزم عليها ، ثم وقف وهو يقول : « ومتى تقوم بهذه المهمة ؟ » .

أجاب « التن غول » قائلا « أمس أفضل من اليوم ، وغدا أفضل من اليوم الذي يليه . لذا أسرع ونفذ نياتك بقلب ثابت وساعد قوى » .

ويعود بيولف للسؤال قائلا : « وما الذي سيحدث إن نحن نجحنا ؟ » . ويجيب القزم على الفور « عندها سيجرح الوندول جرحهم المميت ، وسيقلب الوندول وأمهم الراي في أكثر من أمر وهي في نزع الموت الأخير وللمرة الأخيرة . وبعد هذا المصاب الأخير

سيحل السلام في هذه الأرض وسيعود نور الشمس خالدا فيها أبدا . أما اسمك فسيحل في أغاني المجد والخلود في تصور بلاد الشمال الى ابد الابد . »

هنا يتمم بيولف قائلا « هكذا تغنى أغاني الرجال الاموات » . ويحيب القزم وهو يضحك ثائبة وبقهقهة تشبه ضحك الاطفال أو البنات الصغار « ذلك صحيح . وتغنى كذلك أفعال الأبطال الذين يعيشون بهذا الشكل أيضا ، لكن أفعال الرجال العاديين لا تغنى أبدا ولا تصير أناشيد أبدا . أنت تعرف ذلك جيدا » . ويفادر بيولف الكهف بعد أن يقدم لكل منا خنجرا من خناجر الاقزام . ونهبط خارجين من تلك الشقوق الصخرية التي تعصف بها الرياح ونعود الى المملكة والى قاعة روث غار الكبرى بينما الليل يهبط بطيئا .

كل هذه الامور حدثت ورأيتها بأم عيني .

## الفصل السادس والعشرون

### أحداث الليلة السابقة للهجوم

لم يأت الضباب تلك الليلة فقد هبط من على التلال ولكنه توقف بين الأشجار ولم يزحف باتجاه السهل . في قاعة روث غار الكبرى أقيمت وليمة عظيمة شارك فيها بيولف ورجاله باحتفال عظيم . وقد ذبح كبشان عظيمًا والتهما بالكامل (١) . وقد شرب الجميع كميات هائلة من شراب الميد ، وضاجع بيولف لوحده أكثر من نصف دزينة من الفتيات الجوارى وربما أكثر من ذلك . ولكن رغم كل هذا المرح لم يكن لا هو ولا رجاله مسرورين حقا . فمن وقت لآخر كنت أراهم ينظرون الى حبال جلد الفقمة وخناجر الاقزام التي كانت قد كومت في إحدى زوايا القاعة .

وانضمت أنا الى صخب المحتفلين ، فقد صرت أشعر أنني واحد منهم ، أو هذا ما بدا لي على الأقل بعد أن قضيت كل هذا الوقت

(١) يقول دالمان ( عام ١٩٢٤ ) « انه في مناسبات الاحتفالات كان يؤكل لحم الكبش لزيادة الحيوية الجنسية لان الحيوان الذكر ذا القرون كان يعتبر متفوقا على الانثى » . ولكن في الواقع فان كلا الكبش والنسجة كان لهما قرون هذه الفترة .

فى صحبتهم . والحقيقة اننى فى تلك الليلة شعرت اننى قد ولدت شماليا .

أما هرغر وقد أخذت منه نشوة الخمر كل ماخذ فقد حدثنى بصراحة عن أم الوندول فقال : « أم الوندول هذه عجوز مفرقة فى الهرم وتعيش فى كهوف الرعد . وتقع كهوف الرعد هذه فى صخرة من صخور الجرف غير بعيدة من هنا . ولهذا الكهوف فتحتان واحدة عن طريق البر والثانية من البحر ، ولكن المدخل البرى عليه حراسة مشددة يقوم بها الوندول الذين يحمون أهم العجوز ، ولهذا فنحن لانستطيع أن نهاجمهم من ناحية البر لاننا بهذه الطريقة سنقتل جميعا . لهذا سنهاجم من البحر . »

سألته : « وما هى طبيعة أم الوندول هذه ؟ » فأجاب هرغر قائلا انه ما من شمالى يعرف ذلك معرفة صحيحة ، ولكن يحكى أنها عجوز هرمة ، أكبر سنا من الحيزبون الشمطاء التى يدعوها ملاك الموت ، وأنها أيضا كانت مخيفة المنظر ، وأنها كانت ترتدى الافاعى فوق رأسها وكأنها أكاليل الفار ، وأنها أيضا قوية فوق كل تصور . وأضاف أخيرا أن الوندول كانوا يلجأون إليها لترشدهم فى كل مناحى حياتهم (١) . ثم أشاخ هرغر بوجهه عنى وغاب فى سبات عميق .

(١) قال جوزيف كاترول ان « هناك نزعته فى الاسطورة الجرمانية والنورسية للنظر الى النساء على أن لهن قوى خاصة ومزايا سحرية ولهذا تجب خشيتهن وعدم الثقة بهن . كل الالهة الرئيسية من الرجال ، ولكن الفالكاريز **Valkyries** والذى يعنى حرفيا « مختارى القتل » ، هن نساء ينقلن المحاربين الاموات الى الجنة . وكان يعتقد أن هناك ثلاثة أقدار تخلق مع ولادة كل انسان وتقرر مصير حياته . هذه الاقدار تدعى أوث أى الماضى ، فيرتهاندى أى الحاضر وسكلد أى المستقبل . هذه الاقدار « تحيك قدر الانسان » ، والحيابة هى عمل النساء . وفى التصويرات الشعبية كانت هذه الاقدار والآلهة تصور على أنها صبايا شابات . أما وورد **wyrd** وهو الاله الانجلو سكسونى الذى كان يتحكم بالقدر فقد كان أيضا الها ويفغوض أن الربط ما بين النساء وقدر الرجل كان استمرارية لمفاهيم سابقة عن النساء باعتبارهن رموز الخصب فألهات الخصب كن يتحكمن بنمو وازهار المحاصيل وكل الاشياء الحية على الارض .

ويلاحظ كاترول أيضا ان « فى الواقع العمل ندرك أن العرافة والقاء التعاويذ وطقوسا عرافية أخرى إنما كانت توكل للنساء المسنات فى المجتمع النورسى أو الشمالى . وإضافة الى ذلك فان الافكار الشعبية أو العامة عن النساء كانت تتضمن عنصرا قويا من الشك . فطبقا **Havamal** لا يجوز لاحد أن يثق بكلمات فتاة أو امرأة متزوجة ، لان قلوبهن قد صنعت على شكل دولاب دوار . إضافة الى انهن غير ثابتات على أمر بطبيعتهن » .

يقول بتديكسن « كان يوجد بين أوائل الاسكندنافيين نوع من تقسيم القوة حسب الجنس : فالرجال كانوا يتحكمون بالقضايا الطبيعية والمادية فى حين أن النساء يتحكمن بالقضايا النفسية » .

والآن حدثت هذه الحادثة ، في أعماق الهزيع الأخير من الليل ، وبينما كانت الاحتفالات تقترب من نهايتها والمحاربون على وشك النوم طلب بيولف الى أن اذهب اليه . جلس بجانبى وراح يشرب الميد من قرن تحول الى كأس . لم يكن مخمورا ، كما رايت ، وكان يتحدث ببطء بلغته الشمالية بحيث أفهم مقصده . قال لى أولا : « هل أدركت معنى كلمات القزم الشبه غول ؟ » فأجبت بأننى فهمت ما قال بمساعدة هرغر الذى كان يشخر الان قربنا . قال لى بيولف : « اذن فانت تعلم اننى ساموت . » قال هذا بعينين مضيئتين وبمنظرة ثابتة . لم ادر بم أجيب أو أى استجابة أبدىها الا اننى فى آخر الامر قلت له على الطريقة الشمالية « لا تصدقن أى نبوءة حتى تثمر (١) » . قال لى بيولف ايضا : « لقد رايت وتعرفت على كثير من عاداتنا . قل لى الحقيقة . هل ترسم الاصوات ؟ » فأجبت بان نعم . « اذن فكن حريصا على سلامتك ، ولا تبالي فى جراتك وشجاعتك . انت الان تلبس وتتحدث كشمالى وليس كأجنبى . فاعمل جهدك لان تبقى حيا . »

وضعت يدي على كتفه كما رايت رفاقه المحاربين يفعلون عندما يحيون فابتسم عندها وقال « انى لا أخاف شيئا ولست بحاجة الى الترويح عنى . انى اطلب اليك أن تعمل من اجل سلامتك ولمصلحتك أنت . اما الان فأفضل شئ نفعله هو أن ننام . »

قال هذا وأشاح بوجهه عنى مكرسا كل انتباهه الى إحدى الجوارى التى راح يضاجعها على مسافة لاتزيد عن بضعة خطوات منى . فادرت وجهى بعيدا وأنا أسمع أنات وضحكات تلك المرأة ، غير أنى سرعان مارحت فى سبات عميق .

(١) هذه صياغة معدلة شائعة بين الشماليين وهى بصيغتها الكاملة على الشكل التالى : « لا تمتدحن النهار حتى يأتى المساء ، ولا المرأة حتى تحرق ، ولا السيف حتى يجرب ولا الصبية العذراء حتى تتزوج . ولا الجليد حتى يتبدد ، ولا تمتدحن شرابا حتى يشرب » . هذه النظرة الحكيمة الواقعية والساخرة الى حد ما الى الطبيعة البشرية الى العالم انما هى أمر يشاطر العرب الاسكندنافيين الايمان به . فالاسكندنافيين تماما غالبا ما يعبر العرب عن هذا بالفاظ ساذجة أو ساخرة . وهناك قصة صوفية عن رجل سأل حكيما : « لفترض اننى كنت مسافرا فى الريف وكان على أن اتوضأ فى نهر . فالى أى جهة على أن أول وجهى وأنا اتوضأ ؟ » ويجيب الحكيم قائلا « اتجه باتجاه ثيابك حتى لا تسرق » .



## الفصل السابع والعشرون

### كهوف الرعد

قبل أن تضيء أولى خيوط الفجر السماء ، كان بيولف ورجاله وأنا بينهم نشطلق على ظهور الجياد تاركين مملكة روثغار شاقين طريقنا على حافة الجرف المطل على البحر . لم اكن اشعر بانى على مايرام فى ذلك اليوم فقد كان راسى يؤلمنى ، كما كانت معدتى تؤلمنى من آثار احتفالات الليلة السابقة . ومن المؤكد ان كل محاربى بيولف الاخرين كانوا فى حالة مشابهة ، ومع ذلك لم يبد أى من هؤلاء الرجال أى علامة من علامات الضيق . عدت خيولنا بقوة وهى تلتف على اطراف الجروف التى كانت على طول ذلك الساحل عالية مخيفة وسحيقة ، والتى كانت تتهاوى على شكل صفيحة من الحجر الاغبر باتجاه البحر المزيد الهائج تحتها . وفى بعض المناطق على هذا الشريط الساحلى كنت ترى بعض الشيطان الصخرية ، الا أن الارض الخضراء والبحر غالبا ماكانا يلتقيان مباشرة والامواج تتحطم كالرعد على الصخور . هكذا كان الوضع فى معظم اجزاء الساحل .

رايت هرغر وهو يحمل فوق حصانه جبال جلد الفقمسة التى اخذناها من الاقزام فأسرعت خطى جوادى لالحق به . سألته من هدفنا فى ذلك اليوم ، ولو انى فى الحقيقة لم اكن مهتما كثيرا بهذا الهدف فقد كان راسى يؤلمنى ومعدتى تحترق احتراقا اليما .

قال هرغر « فى هذا الصباح سنهاجم ام الوندول فى كهوف الرعد . وسنقوم بهذا الهجوم من البحر كما قلت لك بالامس » .

وبينما كنت راكبا نظرت من فوق جوادى الى البحر فى الاسفل الذى كانت امواجه تتحطم فوق الجروف الصخرية ، وسألت « هل سنهاجم بواسطة السفن ؟ » اجاب هرغر وهو يضرب بيده على جبال جلد الفقمسة « كلا » . عندها أدركت قصده فى أننا سيكون علينا أن نتدلى من فوق الجروف بواسطة الجبال ثم بطريقة ما او بأخرى سندخل تلك الكهوف . كان خوفى لايوصف لمجرد هذا التصور فلم

أكن أحب أبدا أن أكون معرضا للسقوط من الأماكن العالية . حتى  
البنائات العالية في مدينة السلام كنت أتحاشاها . عندما عبرت عن  
أحاسيسي هذا لهرغر قال لي « اعترف بالجميل فانك محظوظ » .

سألت عن مصدر حظي فأجاب هرغر قائلا « إن كنت تخاف الأماكن  
العالية فانك اليوم ستتغلب على هذا الخوف وهكذا ستكون قد  
تغلبت على تحد عظيم وستعد بين الأبطال » . فقلت له « أنا لا أريد  
أن أكون بطلا » . وما أن سمع هذا حتى ضحك وقال انني انما أعبر  
عن مثل هذه الآراء لأنني عربي وحسب . ثم أضاف أنني متحجر  
الراس وهو تعبير كان الشماليون يعنون به حالة مابعد الشرب أو  
السكر . وكان ذلك صحيحا كما سبق وبيئت .

وكان صحيحا أيضا أنني كنت شديد الحزن والقلق لمجرد التفكير  
بأن على هبوط الجرف بتلك الطريقة ، وفي الحقيقة كان شصوري  
كما يلي : كنت على استعداد أن أضاجع امرأة في الحيض ، بل كنت  
على استعداد أن أشرب من كأس ذهبية أو أكل روث خنزير ، وأن  
أقتلع عيني حتى وأن أموت أو أن أفعل كل هذه الأشياء مجتمعة  
على أنحدر من على ذلك الجرف الملعون . وإضافة لذلك كنت أعاني  
من مزاج متعكر . قلت لهرغر « قد تكون أنت ويولف وكل جماعتكم  
أبطالا كما قد يروق لمزاجكم ولكن لا علاقة لي أنا بكل هذا الأمر ولا  
أريد أن أكون واحدا منكم » . ضحك هرغر لكلماتي ثم نادى بيولف  
وحدثه بسرعة . أجابه بيولف وهو ينظر من فوق كتفه وكأنما  
يقمز بي . وهنا قال لي هرغر : « بيولف يقول إن عليك أن تفعل كما  
نفعل . » وفي الحقيقة أحسست الآن بأنني أغرق في حالة يأس فقلت  
لهرغر ، « أنا لا أستطيع أن أفعل ذلك . وإن أنتم أجبرتموني على أن  
أفعله فسأموت حتما . » سال هرغر « كيف ستموت ؟ » أجبت  
« أنني سأفعل قبضتي عن الحبال . » هذا الجواب جعل هرغر  
يضحك من أعماقه مرة أخرى وراح يعيد كلماتي على مسمع من جميع  
الشماليين فضحكوا جميعا لما قلت . بعد ذلك تحدث بيولف بكلمات  
قليلة . قال لي هرغر « إن بيولف يقول أنك ستحل قبضتك إذا  
أرخيت الحبال من يديك ، ولن يفعل ذلك إلا أحمق مجنون . ويولف  
يقول أنك عربي ولكنك لست مجنونا . » وهاكم وصفا حقيقيا لطبيعة

الرجال : قال بيولف اننى كنت أستطيع الهبوط على الحبل ، وانه نتيجة كلامه صرت اعتقد به وأصدقته قدر ما يصدق هو وشعرت بالسعادة تدخل قلبى ولو بقدر قليل . وقد لاحظ هرغر ذلك فقال : « كل انسان يحمل فى طياته نوعا من الخوف خاصا به ومقصورا عليه . وهكذا تجد رجلا يخاف الأماكن المظلمة وآخر يخاف الفرق ، بينما كل منهما يضحك على الآخر ويدعوه غيبا . وهكذا فان الخوف ليس الا مجرد هواية مفضلة يجب ان تعتبر من نوع تفضيل امرأة على أخرى أو لحم الضأن على لحم الخنزير أو الملقوف على البصل وما الى ذلك . نحن نقول الخوف هو الخوف »

لم اكن فى مزاج يسمح لى بتأمل فلسفاته ، وقد أخبرته بذلك وفى الحقيقة صرت أحس باننى أكثر قربا الى الفضب منى الى الخوف . ومرة أخرى ضحك هرغر فى وجهى وقال هذه الكلمات : « الحمد لله الذى وضع الموت فى نهاية الحياة وليس فى بدايتها » .

قلت مجيبا باقتضاب اننى لم اكن أرى فائدة فى استمجال النهاية ، فأجاب هرغر قائلا « فى الواقع لا أحد يرى ذلك » ، ثم أضاف « انظر الى بيولف . لاحظ كيف يجلس منتصبا وكيف يهمل حصانه متقدما مع انه يعرف بما لا يقبل الشك بأنه سيموت عما قريب . » أجبت « أنا لا أعلم انه سيموت . » ويجيب هرغر قائلا « نعم ولكن بيولف لن يعرف ذلك » ثم امتنع هرغر عن اضافة أى شىء آخر وانطلقنا على ظهر خيولنا لبعض الوقت حتى استقرت الشمس ساطعة مشرقة فى كبد السماء . وأخيرا أعطى بيولف اشارته آمرا بالتوقف فترجل كل الرجال وبدءوا بالاستعداد لدخول كهوف الرعد .

كنت أعلم حق العلم أن هؤلاء الشماليين كانوا شجعانا الى حد التهور ، ولكنى حينما نظرت الى انحدار الجرف تحتتنا شعرت بقلب يلتوى وينقلب رأسا على عقب داخل صدرى ، وظننت لوهلة اننى سأفرغ معدتى فى أية لحظة . وفى الحقيقة كان الجرف سحيقا بلا حدود ليس فيه أى مقبض ليد أو قدم ، وكان ينحدر لمسافة ربما تصل الى اربعمائة خطوة . وفى الحقيقة كانت الامواج المتلاطمة بعيدة سحيقة تحتنا الى درجة بدت معها وكأنها صور أمواج مصفرة ، دقيقة رقيقة كأنهم رسوم فنان . ومع ذلك كنت أدرك انها كبيرة

كبر كل الامواج على الارض وأن الانسان سيدرك ذلك حالما يهبط الى مستواها في الاسفل .

كان الانحدار على هذه الجروف بالنسبة لى جنونا مابعده جنون من كلب مزبد . ولكن الشماليين كانوا مازالوا يندفعون قدما بطريقة طبيعية تماما . وأمر بيولف بفرز عصي خشبية قوية فى الارض ، وحول هذه الاوتاد ربطت حبال جلد الفقمة بينما راحت النهايات الحرة تتطاير على جانب الجروف .

وفى الحقيقة لم تكن الحبال طويلة بما فيه الكفاية لمثل هذه المسافة ، فكان لابد من استعادتها ثانية ووصل حبلين الواحد بالآخر لصنع حبل واحد كاف للوصول الى الامواج عند السفح . وفى الوقت المحدد كان لدينا حبلان طويلان كانا يتدليان على جانب الجرف . تحدث بيولف للجمع فقال : « سأهبط أنا أولا ، وحينما أصل الى القاع ستعلمون جميعا أن الحبال قوية وأن الرحلة يمكن انجازها . ساكون بانتظاركم عند نهاية الحبل وعلى الحافة الضيقة التى ترونها فى الاسفل » .

ونظرت بدورى الى الحافة الضيقة . أن تسميها ضيقة يعنى أن تسمى الجمل لطيفا . كانت فى الواقع أضيق شريط من الصخر المسطح تلطمها امواج البحر وتفصلها باستمرار . ثم استمر بيولف قائلا « عندما تكون جميعا قد وصلنا القاع سيكون بإمكاننا أن نهاجم أم الوندول فى كهوف الرعد . » قال هذا بصوت ذات نبرة طبيعية كتلك التى يأمر بها عبدا بأن يهبط له أى حناء منزلى أو أى عمل عادى . ودونما اضافة راح يهبط جانب الجرف .

والان اليكم وصفا لطريقة الهبوط والتى وجدتها رائعة مثيرة للاعجاب رغم أن الشماليين لم يكونوا يجدون فيها أمرا عجبا . فقد قال لى هرغر بأنهم يستعملون هذا الاسلوب لجمع بيوض طيور البحر فى فترات معينة من السنة ، حين تبني طيور البحر أعشاشها على سطح الجرف . ويتم الامر بالطريقة التالية : توضع انشودة حول وسط الرجل الهابط بينما يجتهد كل زملائه لانزاله من على الجرف . فى هذه الاثناء يقوم هذا الرجل من أجل تدعيم وضعه بالتمسك بحبل ثان يتدلى على سطح الجرف . وبعد ذلك يحمل الرجل

الهابط عصا قوية من خشب البلوط مثبتة من احدى نهايتها بسير جلدى حول وسطه ، يستعملها كعصا ليدفع نفسه هنا وهناك بينما يهبط السطح الصخري (١) .

## الفصل الثامن والعشرون

بينما كان بيولف يهبط ويتضاءل حجمه في عيني لاحظت انه كان يناور بالانشوطة والحبل وبالعصا بمهارة فائقة ، ولكنى لم اخذع نفسى ابدا بالاعتقاد بان هذه كانت قضية تافهة ، فلقد رايت وادركت انها كانت عملية صعبة وتتطلب مرانا طويلا . وبعد طول عناء وصل بيولف السفح سالما ووقف على الحافة الضيقة بينما الموج يتلاطم ويتحطم فوقه . وفي الحقيقة كان قد بلغ من الضالة والصفر بحيث صار من الصعوبة بمكان بالنسبة اليها ان تراه يلوح بيده وهي الاشارة التى كانت تعنى انه وصل بسلام . والان استميدت الانشوطة ومعهما العصا البلوطية . ثم التفت الى هرغر قائلا « الان جاء دورك » قلت اننى اشعر بالوهن واننى اتمنى ان ارى شخصا آخر يهبط قبلى لكى اجيد دراسة طريقة الهبوط . اجاب هرغر « ان الامر يصبح اكثر صعوبة مع كل هبوط لان عدد الذين يبقون هنا فى الاعلى يصبح اقل كلما هبط رجل الى الاسفل . والرجل الاخير عليه ان يهبط بدون المقدمة بالمرّة ، وسيكون ذلك الرجل اكثر انكسافا لان ساعديه كالحديد واننا نعبّر عن محبتنا لك بالسماح لك بان تكون الرجل الثانى فى الهبوط . هيا واهبط الان » .

ولقد رايت فى عيني انه لم يكن هناك امل فى التأخير ، وهكذا ادخل وسطى فى العقدة وقبضت على العصا القليظة بيدي اللتين كانتا ايزجتين بسبب العرق ، كما كان كل جسمى ايضا لزجا زلقا بسبب العرق ، وكنت ارتجف فى مهب الريح حين انزلت على جانب الجرف ورايت لآخر مرة الرجال الشماليين الخمسة وهم يجهدون فى شد الحبل ثم غابوا عن ناظرى وبدأت اهبط .

(١) فى جزر الفارد فى الدانمرك مازالوا يمارسون اسلوبا شبيها فى تسلق الجروف لبيض بيوض الطيور ، هذه البيوض التى تشكل مصدر غذاء اساسى لاهالى تلك الجزر .



كنت قد قررت بينى وبين نفسى أن ابتهل الى الله بصلوات كثيرة  
وأن أسجل أيضا في عين فكرى وفي ذاكرة روحى ، تلك المغامرات  
والتجارب العديدة التى يمر بها الانسان وهو يتدلى من حبال فوق  
هذا الجرف الصخرى الذى تمزقه الرياح . ولكن ما ان غبت عن ناظر  
الاصدقاء الشماليين فوقى حتى نسيت كل نياتى وهمست « حمدا  
لله » وأعدتها مرات ومرات كشخص فقد عقله أو كمن توقف عقله  
من العمل أو كطفل أو مجنون .

وفي الحقيقة لم أعد أتذكر الان الا القليل مما جرى . فلا زلت أذكر  
أن الريح تقذف بالانسان جيئة وذهابا عبر الصخرة بسرعة لا تستطيع  
مهما العين أن تثبت النظر على السطح الذى كان رماديا مزيفا للنظر ،  
واننى كثيرا ما كنت أسطدم بالصخر فأهشم عظامى وأجرح جلدى .  
وقد ارتطم رأسى مرة فخيّل الى اننى أرى بقعا بيضاء ناصعة كأنها  
النجوم أمام عينى ، وظننت لوهلة اننى سأفقد الوعى الا أن ذلك لم  
يحصل . وفي الوقت المحدد والذى بدا لى فى الواقع أنه كان يعادل  
طيلة حياتى بل وأكثر وصلت السفح وأمسك بيولف بى من كفى  
وقال انى هبطت هبوطا جيدا .

وعادت المقدمة فارتفعت ثانية بينما كانت الامواج تتحطم فوقى  
وفوق بيولف بجانبى . وكنت أحاول جاهدا أن احتفظ بتوازنى على  
هذه الحافة الزلقة ، وقد شغل هذا ذهنى وانتباهى الى حد لم أراقب  
فيه الآخرين وهم يهبطون الجرف . فقد كانت رغبتى الوحيدة  
هى فى أن أمنع الامواج من أن تقذف بى فى البحر . وفي الحقيقة  
رايت بعينى أن الامواج كانت أعلى من ثلاثة رجال يقف الواحد منهم  
فوق الآخر ، وحين كانت تلطم الموجة الصخر كنت احس للحظة  
بفقدان الوعى وكأنى فى دوامة من الماء البارد وقوته تقذف بى بحلقة  
دائرية . وكثيرا ما قذفتنى هذه الامواج وأخلت توازنى وكنت أنضج  
بالماء من كل جوانب جسدى وأرتجف الى حد كانت أسناني معه  
تصطك كما تفعل الخيول العادية . ولم أستطع أن أنطق بكلمة واحدة  
بسبب أسناني المضطكة .

هبط جميع محاربى بيولف بسلام ، وكان اكثفوا آخر من هبط  
بقوة عضلات مساعديه وحسب . وعندما لامست قدماه حافة الجرف

آخرها كانت ساقاه ترتجفان دون أن يستطيع التحكم بهما كما  
منتفض الانسان الذى يصارع نزع الموت . وكان علينا أن ننتظر بعض  
الوقت حتى تما لك نفسه ثانية .

بعد ذلك تحدث بيولف : « سننزل فى الماء ثم نسبح حتى الكهف .  
وسأكون أول السابحين . احملاوا خناجركم بين أسنانكم ، بحيث  
تكون ذراعا كل منكم طليقة فى مصارعة التيارات والأمواج » .

نزلت على كلمات الجنون الجديد هذه كالصاعقة فى وقت لم أعد  
أستطيع فيه تحمل أى جهد آخر . فقد بدت خطة بيولف لعينى  
حماقة مابعدا حماقة . ولقد رأيت الأمواج تتحطم وتتفجر فوق  
الصخور المتداخلة ، كما رأيت الأمواج تنسحب بقوة مارد جبار  
لكى تستعيد قوتها ثانية وتعود الى اللطم من جديد . وفى الحقيقة  
اعتقدت وأنا أراقب كل هذه أنه ما من انسان يستطيع أن يسبح  
فى تلك المياه وأنه لابد وأن يتناثر الى شظايا عظام فى رمشة عين .

ولكنى لم أحتج ولم أغضب فقد تجاوزت حدود كل خوف .  
أعتقد أننى كنت قريبا بما فيه الكفاية من الموت الى حد لم يعد يهمنى  
معه ان أنا اقتربت أكثر فأكثر . وهكذا أخذت خنجرى الذى وضعته  
فى جزامى لان أسناني كانت ماتزال تصطك ببعضها عاجزة عن أن  
تمسك بالخنجر فى فمى . أما عن الشماليين الآخرين فلم تبد عليهم  
أية آثار للبرد أو للتعب ، بل كانوا يحيون كل موجة وكأنها منشأة  
جديد . وكما كانوا يتسمون بسعادة انتظار المعركة القادمة ، وق  
كرهتهم لهذا الشعور الأخير .

كان بيولف يراقب حركة الأمواج ليختار الفرصة المناسبة ، ثم  
قذف بنفسه فى الموج المتلاطم . أبطأت ثم دفعنى أحدهم الذى كنت  
دائما أعتقد أنه هرغر . فسقطت فى البحر الهائج الدوار ذى البر  
المخدر . وفى الحقيقة شمعت برأسى يدور وينقلب رأسا على عقب  
وأموج الى هذا الجانب أو ذاك ، ولم أكن أستطيع رؤية أى شئ سور  
المياه الخضراء . ثم رأيت بيولف وهو يرفس الأمواج فى أعماق  
البحر فتبعته بينما راح يسبح فيما يشبه الممر بين الصخور . و  
تصرف فى كل شئ كما كان يفعل وذلك على النحو التالى :

فى لحظة ما كان تلاطم الأمواج يندفع خلفه يحاول أن يقتلعه ويد

به الى المحيط الهائل وكذلك الامر ممي . وفي تلك اللحظات كان نرلف يتمسك بالصخور بيديه ليقاوم التيار ، وكذلك فعلت . تمسكت بالصخور بقوة بينما رتئاي تكادان تتفجران . وبلحظة اخرى كانت الامواج المتلاطمة تقفز بالاتجاه الاخر فادفع بسرعة هائلة نحو الامام ، واقفز فوق الصخور والعقبات . ومرة اخرى كانت الامواج تغير اتجاهها وتنحسر الى الخلف كما فعلت في السابق فاضطر لان احدى حذو بيولف واتعلق بالصخور . وفي الحقيقة كانت رتئاي تحترقان كما لو ان نارا مشتعلة كانت تلتهب فيهما ، وكنت أعرف في اعماق اعماقي اننى لم اكن أستطيع الاستمرار فترة اطول في هذا البحر الجليدى . ثم هادت الامواج الهادرة تندفع الى الامام فقذفتنى في ذلك الاتجاه وانا الطم هنا واضرب هناك . وفجأة وجدت نفسى واقفا اتنفس الهواء . وفي الحقيقة حدث هذا كله بسرعة شعرت معها بدهشة لم افكر معها بالشعور بالارتياح والذي كان هو الشعور المنطقي في تلك اللحظة ، كما لم يخطر على بالي ان احمد الله لحظى الجيد في البقاء حيا . رحت استنشق الهواء بلهفة بينما رفع كل محاربى بيولف حولى رءوسهم فوق سطح الماء وراحوا يستنشقون الهواء مثلى .

والآن اليكم ما رايت : كنا فيما يشبه البركة او البحيرة داخل كهف له قبة صخرية ناعمة ومدخل من ناحية البحر كنا قد اخترقناه لتونا . وامامنا مباشرة كان هناك فراغ صخري مسطح . وقد رايت ثلاثة او اربعة اشكال سمراء تجلس القرفصاء حول نار مشتعلة ، وكانت هذه المخلوقات ترتل بأصوات عالية . وفهمت الان سبب تسمية هذا الكهف بكهف الرعد لانه مع كل تحطم للامواج المتلاطمة كان الصوت يتجاوب داخل الكهف بقوة كانت تؤلم الاذان ، حتى ان الهواء نفسه بدا وكأنه يهتز ويضغط بقوة :

في هذا الكهف ، قام بيولف ومحاربوه بهجومهم وقد انضمت انا اليهم . وبخناجرنا القصيرة قتلنا اربعة شياطين في الكهف . وقد تمكنت من رؤيتهم بوضوح ولاول مرة على ضوء النار المتأججة التي كانت السنة لهيبها تتراقص وتقفز بجنون مع كل لطمة من لطمات الامواج المرعدة . اما منظر هذه الشياطين فكان كالتالى : كانوا يبدون كالشجر في كل مجال ولكن في نفس الوقت لم يكونوا كاي انسان على

سطح الارض . كانوا مخلوقات قصيرة ، عراض الاكتاف يجلسون القرقصاء ، وكان الشعر كثيفا على كل جزء من اجزاء جسداهم باستثناء راحة اليد وكعب القدم والوجه . كانت وجوههم كبيرة جدا لها فم وقكان كبيران بارزان وكانت ملامحهم قبيحة . كما ان رءوسهم كانت اكبر من رءوس البشر العاديين ، اما عيونهم فكانت غائرة بعمق في رءوسهم ، وحواجبهم كثة ضخمة ليس بسبب الحواجب المليئة بالشعر ولكن بسبب العظام البارزة . وكانت اسنانهم ايضا كبيرة حادة مع انه صحيح ايضا ان اسنان الكثيرين منهم كان مبرية مهترئة ومنبسطة .

### الفصل التاسع والعشرون

وفي مجالات اخرى من معالم اجسامهم ، وفيما يتعلق بالاعضاء التناسلية والفتحات العديدة فان الوندول يشبهون البشر ايضا في هذا المجال . كان احد هذه المخلوقات يموت ببطء وكان يحاول ان يرسم بعض الاصوات بلسانه بدت لازني وكأنها نوع من انواع الكلام ، ولكنني لم استطع ان اتأكد من هذا وانا أعيد قص الحادثة دون التزام بهذا الموضوع .

القي بيولف نظرة فاحصة على هذه المخلوقات الاربعة الميتة ، بفرائهم السميك ، ثم سمعنا ترتيلا رهيبا تتردد أصداؤه وكان صوت يرتفع ثم ينخفض على ترانيم رعد تلاطم الامواج ، وكان الصوت ينبعث من أعماق الكهف الحالكة . عندما قادنا بيولف الى تلك الاعماق .

وهناك وقفنا على ثلاثة مخلوقات اخرى كانوا منبطحين على الارض ووجوههم متجهة الى الارض وايديهم مرفوعة تضربا باتجاه مخلوق عجوز مختبئ في الظلال . هذه التضمرات كانت تشبه التراتيل وكان المتضرعون غارقين بتراتيلهم الى حد لم يلاحظوا معه وصولنا . لكن المخلوق العجوز رآنا وصرخ صرخة مرعبة حين اقتربنا منه . وقد اخذت ذلك المخلوق على انه ام الوندول ولكنها ان كانت انشي لم اري اثرا لذلك لانها كانت على درجة من الهرم أصبحت معها لا جنس لها . انقض بيولف وحيدا على المتضرعين وقتلهم جميعا بينما المخلوقة الام راحت تتراجع في الظلام وتصرخ صراخا مرعبا . لم استطع

رؤيتها بوضوح ولكن ما سارويه الان حقيقى رأيتة بعينى : كانت محاطة بالافاعى التى التفت حول قدميها على يديها وحول عنقها . وكانت هذه الافاعى تفع وتلعق بالسنتها . ولان هذه الافاعى كانت فى كل مكان حولها وعلى جسدها وعلى الارض أيضا فلم يجرؤ أى محاربى بيولف على الاقتراب منها .

ثم هاجمها بيولف فاطلقت صرخة خوف وهيبة عندما غرز خنجره عميقا فى صدرها دون أن يعير الافاعى أى انتباه . طعن ام الوندول عدة طعنات بخنجره ولكنها لم تنهار ولم تسقط بل بقيت واقفة رغم الدم الذى كان ينسكب منها كما لو كان يتدفق من ينبوع ، ومن الجراح العديدة التى اوقعها بها بيولف . وبقيت طيلة تلك الفترة تصرخ بصوت يثير اشد الرعب .

واخيرا تهاوت وسقطت ميتة فاستدار بيولف ليواجه محاربيه . عندها رأينا أن هذه المرأة ، أم اكلة الموتى ، قد جرحته . كان دبوس فضى شبيه بدبابيس الشعر قد دفن فى أمعائه . وكان هذا الدبوس يهتز عند كل نبضة قلب . انتزعته بيولف من مكانه انتزاعا فانسكبت وراءه دفقة من الدم ، لكنه لم يركع على ركبتيه رغم جرحه القاتل ، بل بدلا من ذلك وقف واعطى أوامره بمفادرة الكهف .

نفذنا الامر منطلقين من الباب الثانى المنفتح على الياسة . هذا المدخل كان محروسا لكن كل الحرس الوندول كانوا قد فروا عند سماعهم صرخات امهم المحتضرة . غادرنا المكان دون أى انزعاج حيث قادنا بيولف خارج الكهف ومن هناك عدنا الى خيولنا . وعند ذلك نقت انهار بيولف وسقط على الارض .

امر اكثغو بوجه حزين غير مألوف ابدا بين الشماليين يطفى عليه امر بصناعة مايشبه النقالة حملنا بيولف عليها عبر الحقول الى مملكة روث غار . وطيلة ذلك الوقت كان بيولف مرحا جبورا ومنطلقا . لم افهم الكثير مما قال ، ولكن سمعته مرة يقول : « لن يكون روث غار سعيد لرؤيتنا ، اذ عليه أن يقيم وليمة أخرى وقد أصبح الان مضيقا مستنزفا الى ابعد الحدود » . ضحك المقاتلون لهذا كما ضحكوا لكلمات اخرى أطلقها بيولف ، وقد لاحظت أن ضحكهم كان آمينا مخلصا .



وصلنا الى مملكة روث غار حيث استقبلنا بالهتافات والسعادة الفامرة ولم يكن هناك اى اثر للحزن ، رغم ان بيولف كان جريحا يعانى الموت وقد تحول لحمه الى اللون الرمادى وراح جسده يهتز بينما كان يضيء عينيه شعاع من روح مريضة مرتعشة بالحمى . هذه علامات كنت أعرفها جيدا ، وكان يعرفها أيضا اهل الشمال .

أحضر لبيولف وعاء من حساء البصل ، ولكنه رفضه قائلا ، « أنا مصاب بمرض الحساء ، فلا تزعجوا انفسكم من أجلى » . ثم طلب إقامة احتفال وأصر على أن يترأسه هو شخصيا ، جلس خلاله منتصباً على مقعد حجري الى جانب الملك روث غار وشرب شراب الميد وفرح ومرح كثيراً . كنت بجسائه حين قال للملك روث غار فى وسط الاحتفالات ، « ليس لى عبيد » . اجاب روث غار « كل عبيدى هم عبيدك » . فقال بيولف « ليس عندى خيول » . ويجيب روث غار ثانية « كل خيولى هى خيولك . لا تشغل بالك بهذه الامور » . وكان بيولف وقد ضمدت جراحه سعيدا وراح يتسم وقد عاد اللون الى خديه ذلك المساء ، وكان يبدو وكأنه يزداد قوة مع مرور كل لحظة من ذلك المساء . ومع انى لم اكن لاصدق بان هذا ممكن ، فقد راح يضاجع فتاة جارية ، قال لى بعدها مازحا « الرجل الميت ليس ذا فائدة لاي انسان » .

ثم غاب بيولف فى سبات عميق ، بينما ازداد لونه شحوبا وتنفسه بطئا . وكنت أخشى الا يستيقظ من نومه هذا . ربما فكر هو أيضا بنفس الطريقة ، لانه حين نام أمسك بسيفه وقبض عليه بشدة بيده .

## الفصل الثلاثون

### الوندول ونزع العون الاخير

رحت أنا أيضا فى سبات عميق . لكن هرغر أيقظنى بهذه الكلمات : « عليك ان تاتى بسرعة » . وبعدها سمعت صوت رعد بعيد . نظرت

الى النافذة الجلدية(١) فأدركت أن الفجر لم يبرغ بعد ، لكتى استللت سيفى رغم أنى فى الواقع كنت قد غفوت وأنا مرتد درعى دون أن أهتم بخلمه . ثم أسرعت الخطى خارجا ، حيث كانت الساعة قبيل الفجر والهواء ضيبيا ثقيلًا يملؤه هدير حوافر بعيدة .

قال هرغر « انهم الوندول ياتون الينا . انهم على علم بجراح بيولف القتالة ، وهم يطلبون الثار الاخير لمقتل أمهم » .

اتخذ كل من محاربى بيولف ، وأنا بينهم ، مكانا على امتداد التحصينات التى كنا قد أقمناها لمقاومة الوندول . وقد كانت دفاعات ضعيفة جدا ، ولكن لم يكن هناك بديل عنها . رحنا نحقق فى الضباب محاولين استشفاف رؤية الخيالة العادين على خيولهم باتجاهنا . ولقد كنت أتوقع خوفا عظيما وهلما ، الا أنى لم أشعر بشيء من هذا ، اذ كنت قد رأيت ملامح الوندول ، وكنت أعرف انهم مخلوقات ككل المخلوقات ، وان لم يكونوا بشرا كما القرودة أيضا تشبه البشر . ولكنى كنت أعرف انهم قانون وانهم يموتون .

ولهذا لم يكن لدى أى خوف ما عدا توقع هذه المعركة الاخيرة . وكنت فى هذه الحال وحيدا ، لانى وجدت أن محاربى بيولف بدأ يمتريهم ويظهر عليهم الخوف الشديد رغم محاولاتهم الجاهدة لاختفاء هذا الخوف . وفى الحقيقة بما أننا كنا قد قتلنا أم الوندول التى كانت قائدهم أيضا فانا فقدنا بيولف أيضا الذى كان قائدا ، ولم يكن هناك أى مظهر من مظاهر الفرح بينما كنا ننتظر ونصفى الى تقدم الرعد واقترابه منا .

ثم سمعت حركة ورأى وحين التفت رأيت ما يلى : كان بيولف وقد شحب لونه حتى أصبح كلون الضباب نفسه وقد تلفع بالبياض حول جراحه ، كان واقفا منتصبا على أرض مملكة روث غار وعلى كتفيه كان يجلس غرابان أسودان واحد على كل كتف . ما أن رأى

(١) التعبير الحرفى هو نافذة الخنزير ، فقد كان الشاليون يستعملون الجلود المملوطة بدلا من الزجاج ليفتوا توافنهم الضيقة . هذه الاغشية أو الجلود كانت شفافة لكن لم يكن بإمكان المرء أن يرى الكثير من خلالها ، الا ان الفسياء كان يخرقها الى داخل البيوت .

الشماليون هذا المنظر حتى صرخوا ذعرا من قدومه ثم رفعوا أسلحتهم في الهواء وصاحوا صيحة الحرب (١) .

لم ينطق بيولف بكلمة واحدة كما لم يلتفت الى أية جهة أبدا ولم تصدر عنه أية إشارة توحى بأنه كان يميز أيا منا ، ولكنه صار بخطوات متزنة الى الامام مجتازا خط التحصينات ، وهناك راح ينتظر هجوم الوندول . وفجأة طار القرابان فقبض على سيفه وندفع واستعد لمواجهة الهجوم .

ما من كلمات تستطيع أن تصف الهجوم النهائي للوندول في ذلك الفجر الضبابي . وما من كلمات ستكون قادرة على وصف حجم الدماء التي أهرقت ولا الصيحات التي ملأت الجو الثقيل ولا الخيول ولا الفرسان الذين ماتوا في هذه الملهمة المخيفة . وبأم عيني رأيت اكشفو بدراعيه الفولاذيتين : رأيت والده وقد قطع رأسه دفعة واحدة سيف من سيوف الوندول فسقط الرأس على الأرض وراح ينط ويقفز كدمية طفل بينما اللسان كان لا يزال يتحرك في فمه . ولقد رأيت ويث أيضا يتلقى رمحا في صدره ألصقه بالأرض وسمره هناك حيث راح يتلوى كسمكة أخرجت لتوها من البحر . ورأيت فتاة طفلة داستها حوافر الخيول فتحطم جسدها وسوى بالأرض بينما كان الدم يتصبب من أذنها . ولقد رأيت امرأة كانت إحدى جوارى الملك روث غار : كان جسدها قد شطر شطرين بينما كانت تركض هاربة من أحد الخيالة : كما رأيت أطفالا آخرين كثيرين قتلوا بنفس

(١) هذا المقطع من المخطوطة تم تجميعه من مخطوطة الرازي الذي كان اهتمامه الاول ينصب على التقنية العسكرية . وسواء عرف ابن فضلان أم لم يعرف أو سجل أم لم يسجل فإن مغزى ظهور بيولف ثانية غير معروف ومن المؤكد أن الرازي لم يصفها من عنده رغم أن المغزى واضح بما فيه الكفاية . ففي الاساطير الشمالية يظهر أودن عادة وهو يحمل غرابا على كل كتف من كتفيه . هذان الطيران يأتيانه بكل اخبار العالم . وأودن هذا كان الاله الرئيسى في هبكل الالهة الشمالية وكان يعتبر الاب الكسوف . وكان يحكم خاصة في أمور الحرب ، كما كان يعتقد أنه من وقت لآخر يظهر بين الناس ولكن نادرا : بشكله الالهى لانه كان يفضل أن يتخذ مظهر المسافر العادى البسيط . ولقد قيل أن العدو كان يفزع ويفر من مجرد حضوره .

ومن المفيد أن نعرف أن هناك قصة تروى عن أودن أنه يقتل ثم يبعث بعد تسعة أيام . ويعتقد معظم المطلعين أن هذه الفكرة سابقة لاي تأثير مسيحي . وعلى كل حال فإن أودن المبعوث حيا يبقى لغائبا وكان يعتقد أنه لا يهد وأن يموت أخيرا في يوم الايام .

الطريقة . ولقد رأيت خيولا تتراجع ثم تهوى ليهوى عنها قوساتها  
فيهوى عليهم بدورهم الرجال والنساء ويلدبحونهم ذبح النماج وهم  
ما زالوا مستلقين على ظهورهم مدهولين . ورأيت وغلف ، ابن روث  
غار يهرب من وسط المعركة ويختبئ طالباً أمان الجبان . أما المنادي  
فلم أره ذلك اليوم .

ولقد قتلت أنا بنفسها ثلاثة من الوندول ، كما أصبت برمح في  
كتفى الذي كان الله يشبه ألم الوقوع في النار . فقد كان دمي يفلّ  
على طول درامي وحتى داخل صدري . وكنت أظن أنني سأنهار ولكنني  
استمررت في القتال .

بدأت الآن الشمس تتراعى شيئاً فشيئاً من خلال الضباب وسرعان  
ما بسط الفجر نوره علينا وبدأ الضباب بالانسحاب كما اختفى  
الخيالة أيضاً . وفي ضوء النهار الساطع رأيت الجثث منشورة في كل  
مكان بما فيها الكثير الكثير من جثث الوندول لأنهم لم يجمعوا  
موتاهم هذه المرة . وكانت هذه شارة نهايتهم الأبدية ، فقد أصبحوا  
في فوضى واضطراب عظيمين ولن يستطيعوا أن يهاجموا روث غار  
ثانية وأدرك كل سكان المملكة مغزى ذلك وفرحوا لذلك فرحاً  
عظيماً .

فمسك هرغر لي جراحى وكان مرحاً مسروراً حتى أدخل جسد  
بيولف إلى قاعة روث غار الكبرى . كان بيولف قد مات فوق موته  
الأول ميتات كثيرة : فقد كانت جثته محفورة بسيوف عشرة خصوم  
على الأقل ، وكان وجهه وجسده غارقين في دمه الذي كان ما زال  
دافئاً . ما أن رأى هرغر هذا المنظر حتى تفجرت الدموع في عينيه  
وراح يحاول إخفاء وجهه عني ولكنه لم يكن بحاجة إلى ذلك فقد  
أجست بدموعي أنا الآخر تنشر الضباب في عيني .

مدد جسد بيولف أمام الملك روث غار الذي كان من واجبه الآن  
أن يلقي خطاباً . لكن الملك المجوز لم يكن قادراً أن يفعل شيئاً كهذا  
ولكنه ردد هذه الكلمات فحسب : « هذا محارب وبطل أهل لان يكون  
ألفاً . ادفنوه كما يدفن عظماء الملوك » . ثم غادر القاعة . واعتقد أن  
كان يشمر بالخجل والمار لأنه لم يشترك شخصياً بالمعركة ، كما أن  
أبنة وغلف . حرب كجبان وعديد وقد رآه الكثيرون يفصل ذلك  
بسموه تم . وقد يكون هذا مما زاد غار الأب وخجله ،

أو قد يكون هناك سبب آخر لم أدركه . وفى الحقيقة كان رجلا فى غاية الهرم .

وحدث الآن أن همس وغلف بصوت خفيض قائلا للمنادى : « لقد قدم لنا بيولف هذا خدمة عظيمة ، وما يزيد عظمة هو موته فى نهاية هذه الخدمة . قال هدا بعد أن غادر أبوه الملك القاعة » .

سمع هرغر هذه الكلمات كما سمعتها أنا أيضا ، وكنت أول من استل سيفه . فخاطبني هرغر قائلا « لا تنازل هذا الرجل فهو ثعلب مكار ، وأنت مجروح » . قلت له « ومن يهتم بالجراح ؟ » واندفعت متحديا وغلف الابن وفى القساعة نفسها . استل وغلف سيفه فى اللحظة التى لطمنى بها هرغر لكمة قوية من الخلف جاءتني على غفلة فسقطت وأنا الف وأدور ثم التحم هرغر فى معركة رهيبة مع وغلف . واستل المنادى سيفه أيضا وتحرك خلسة بهدف الوقوف خلف هرغر وطعنه فى الخلف . هذا المنادى قتلته بنفسى بقرز سيفى عميقا فى بطنه ، فصرخ المنادى صرخة خرجت معها روحه . سمع وغلف صيحته ، ورغم أنه كان يقاتل بشراسة من قبل فانه أبدى الآن الكثير من الخوف فى صراعه مع هرغر .

وحدث الآن أن الملك روث غار سمع قعقة السيوف فماد ثانيا الى القاعة الكبرى ورجا إيقاف القتال ولكن عيضا ، فقد كان هرغر مصرا عنيدا فى مطلبه . ولقد رأيته يقف منتصبا بجانب جسد بيولف ثم يطلق سيفه صوب وغلف فيطعنه ويسقط وغلف على طاولة روث غار ثم يتناول كأس الملك ويسحبها صوب شفثيه . لكن الحقيقة هى انه مات دون أن يشرب . وهكذا انتهت القضية .

اما رفاق بيولف والذين كان عددهم ثلاثة عشر ، فلم يبق منهم الا أربعة وأنا منهم . وضعنا جثة بيولف تحت سقف خشبي وتركنا جسده مع كأس من شراب الميد فى يديه ثم خاطب هرغر الناس المتجمعين قائلا : « من سيموت مع هذا الرجل العظيم ؟ » عندها تقدمت امرأة كانت جارية من جوارى الملك روث غار وقالت انها ستموت مع بيولف ، فبدأت اقامة الاستعدادات المعتادة عند اهل الشمال لعملية الدفن ( هنا رغم أن اين فضلا لا يحدد مرور فترة



زمنية معينة فلا بد أن تكون قد مضت بضعة أيام قبل حفل الدفن الرسمي .

جهزت سفينة على الشاطئ تحت قاعة روث غار وأقيمت فيها كنوز الذهب والفضة كما أقيمت فيها جثتا حصانين أيضا . وبُنيت فيها خيمة وضع فيها بيولف الذي كان الموت قد حجب جسده الآن . كان جسده قد اتخذ لون الموت الأسود في ذلك المناخ البارد . ثم أخذت الجارية إلى كل من مقاتلي بيولف ثم جرى بها إلى مضاجعتها . وهي تقول لي « أن سيدى يشكرك » وكانت تعابير وجهها وتصرفاتها في أروع حالات المرح والسرور وبحال أكثر تعبيراً من حالات السرور المعتادة والتي يبديها الشماليون في مثل هذه الظروف . وبينما كانت ترتدى ثيابها ثانية ، تلك الثياب التي كانت تحتوى العديد من قطع الذهب والفضة قلت لها بأنها كانت ممتعة غاية الامتاع مسرورة غاية السرور .

وقد كان رأيي بها أنها كانت صبية جميلة فاتنة فتية غضة ومع ذلك كانت ستموت بعد قليل ، وهو ما كانت تعرفه كما أعرفه أنا . قالت لي : « اننى مسرورة فرحة لاننى سألتقى بسيدى عما قريب » . ولكنها لم تكن قد شربت شيئاً من شراب الميد أبداً ، وكانت تحكى عواطفها بصدق . كانت ملامح وجهها تشع مشرقة كملامح طفل سعيد أو كملامح بعض النساء حين يحضن طفلاً . هكذا كانت طبيعة الأشياء .

قلت لها : « أخبرى سيدك عندما تلتقين به بأننى عشت وسأعيش لاكتب » . لا أدري أن كانت قد فهمت هذه الكلمات . قلت لها مضيفا « لقد كانت تلك رغبة سيدك » .

« اذن سأخبره بهذا » . وبهذه الجملة تركتنى بفيض من السرور وانتقلت إلى محارب آخر من محاربي بيولف . لا أدري أن كانت قد فهمت مفزأى وقصدي لان الشكل الوحيد من الكتابة الذى يعرفه هؤلاء الشماليون هو الحفر على الخشب أو على الحجر ، والذي لا يفعلونه الا نادرا . ثم ان حديثي بلسان أهل الشمال لم يكن واضحا . لكنها رغم ذلك كانت مريحة سعيدة واستمرت كذلك .

في المساء وبينما كانت الشمس تفرق نفسها في مياه البحر ، كانت

سفينة بيولف قد أصبحت جاهزة على الشاطئ فأخذت الصبية  
الفضة الى داخل السفينة . وهناك قامت الحيزبون المعجوز المسماة  
بملاك الموت بوضع الخنجر بين أضلاعها بينما قمت أنا وهرقر بشد  
الحبل الذي خنقها وأطلقا أنفاسها ، ثم اجلسناها بجانب بيولف  
وغادرتا السفينة .

لم أتناول طعاما أو شربا طيلة اليوم ، لأننى كنت أعلم اننى  
سأشارك فى هذه الامور ، ولم أكن أرغب فى معاناة حرج افراغ  
معدتى فى هذه الظروف . ولكن الغريب اننى لم أشعر بأى مقت  
أو غضاضة فى أى من أفعال ذلك اليوم ، كما لم يغم على ولم أشعر  
بدوار فى رأسى وأحسست بالفخر بينى وبين نفسى . والحقيقة ان  
تلك الصبية المسدبة ابتسمت لحظة موتها وبقيت تلك الابتسامة  
متحجرة على وجهها بعد خنقها بحيث جلست بجانب يديها والبسمة  
عالقة على وجهها الشاحب أما وجه بيولف فكان أسود وعيناه مغمضتين  
لكن تعابيرها كانت هادئة وديمة . هكذا كانت آخر رؤية لى لهذين  
الشمالين .

واشرفت النار فى سفينة بيولف ثم دفعت الى عرض البحر ، بينما  
وقف الشماليون على الشاطئ والصخري ورفعوا ابتهالات كثيرة الى  
آلهتهم . وبأم عيني رأيت السفينة تحملها التيارات كطوافة تحترق  
ثم غابت عن أبصارنا وهبط ظلام الليل مرة أخرى على أرض  
الشمال .

## الفصل الحادى والثلاثون

### العودة من بلاد الشمال

قضيت بضعة أسابيع أخرى برفقة محاربى ونبلاء روث غار .  
كان ذلك وقتا ممتعا ، لان الجميع كانوا ودودين كرماء ، وقد اعتنوا  
عناية عظيمة بجراحى التى شفيت تماما والحمد لله . ولكنى أصبحت  
أشعر بالرغبة فى العودة الى بلادى . ولقد أعلمت الملك روث غار بأننى

كنت مندوب خليفة بغداد وانه يجب على ان اتم مهمتي التي ارسلني لانجزها والا استحققت غضبه .

لكن هذا لم يكن ليثير اهتمام روث غار الذي قال انني محارب نبيل وانه كان يرغب في ان ابقى في مملكته لاحيا حياة محارب مكرم . وقال انني كنت صديقه الابدى واني استطيع ان احصل على اى شيء ارغبه ويستطيع هو ان يقدمه لى . الا انه كان مترددا في السماح لى بمغادرة مملكته واخترع كل انواع الاعداد واسباب التأخير التي قد تخطر على بال . في البدء قال روث غار انه على ان اعتنى بجراحى مع انه كان واضحا ان هذه الجراح قد شفيت تماما . ثم عاد وقال انه يجب على ان استعيد قوتى مع انه كان واضحا ان قوتى قد عادت الى . وأخيرا قال انه يجب على ان انتظر اعداد سفينة ، وهو امر لم يكن سهلا . وحين سألت عن الوقت الذي يستغرقه اعداد سفينة كهذه اعطاني الملك جوابا غامضا ، كما لو ان هذا الامر لم يكن يهمه كثيرا . وفي اللحظات التي كنت فيها الح بالمطالبة في الرحيل كان يفضب ويتساءل عما اذا كنت غير مكثف او راض عن كرمه . وجوابا على ذلك كنت مضطرا ان امتدح سماحته وكرمه واردد كل تعابير الرضى والقناعة . وسرعان ما ادركت بان الملك العجوز كان اقل حماقة مما كنت اظن من قبل .

عدت الى هرغر لاحدثه عن مأساتى ، وقلت له : « ان هذا الملك ليس بالاحمق الذي كنت اظن » . قال هرغر مجيبا « انت مخطيء لانه في الواقع احمق مجنون ولا يتصرف تصرف العاقلين » ثم اضاف بأنه سيرتب امر رحيلى مع الملك .

وكان الاسلوب الذي اتبعه كالتالى . طلب هرغر مقابلة الملك في خلوة ثم قال له انه ملك عظيم حكيم كان شعبه يحبه ويحترمه وما ذلك الا للطريقة التي كان يعتنى بها بقضايا مملكته وشعبه . ويبدو ان هذه اللحظة بالذات قال له هرغر انه من بين ابناء الملك الخمسة لم يبق الا واحد منهم ، وكان ذلك وولف غار الذي كان قد ذهب ليقوم بدور الرسول عند بيولف ، وبقي بعيدا . ثم اضاف هرغر بأنه لابد من استدعاء وولف غار للعودة الى الوطن وانه يجب اعداد جماعة

تقوم بهذه المهمة ، لانه لم يعد هناك من وريث آخر للمملكة سوى وولف غار .

حدث الملك بكل هذه الامور ، واعتقد بأنه قال شيئا كهذا وعلى انفراد للملكة وليو التي كان لها تأثير كبير على زوجها الملك .

ثم حدث في احدى الولايم المسائية ان دعا الملك روث غار الى تجهيز سفينة وبحارتها لتذهب في رحلة لاعادة وولف غار الى المملكة . طلبت ان انضم الى طاقم البحارة ، وهو ما لم يستطع الملك العبوز ان يرفضه . وقد استغرق اعداد السفينة بضعة ايام ، قضيت معظمها برفقة هرغر الذي اختار الان ان يبقى في المملكة .

في احد تلك الايام وقفنا معا على الجرف ننظر من عل الى السفينة الراسية على الشاطئ وقد تم اعدادها للرحلة وزودت بكل المؤن الضرورية . قال لي هرغر : « انت على وشك الانطلاق في رحلة طويلة . وسنصلي جميعا من اجل وصولك بالسلامة » .

وعندما سألته لمن سيصلي من اجلي اجاب قائلا « سنصلي للاله اوردن وفريه وثور وورد والعديد من آلهتنا الاخرين الذين قد يكون لهم اثر في سلامة رحلتك » . كانت هذه طبعاً اسماء آلهة الشماليين .

اجبت قائلا : « انى اؤمن باله واحد هو الله الرحمن الرحيم » . قال هرغر « انى اعلم هذا ربما كان اله واحد في بلادكم كافيا ، ولكن ليس هنا . فهنا . آلهة كثيرة وكل له اهميته ، وسنصلي لهم جميعا من اجلك ومن اجل سلامتك » . عندها شكرته لان صلاة الكافرين جيدة قدر ما هي مخلصه صادقة ، وما شككت لحظة في اخلاص هرغر .

كان هرغر يعلم منذ وقت طويل اننى كنت على عقيدة مختلفة من عقيدته ولكن ما ان اقترب وقت رحيلى حتى راح يسأل مرارا وتكرارا عن معتقداتى ثم ، وفي لحظات مفاجئة يحاول ان يضبطنى متلبسا ليتعلم الحقيقة . وكنت انظر الى أسئلته العديدة على أنها شكل من اشكال الامتحان كما امتحن بيولف مرة معرفتى بالكتابة . ولكنى كنت دائما اجيبه بنفس الطريقة مما كان يزيد فى حيرته .

وفي أحد الايام قال لي غير محاول الادعاء بأنه لم يسألني سابقا :  
« وما هي طبيعة الهك الله ؟ » .

قلت له « الله هو الواحد الاحد الذي يحكم كل الاشياء ويرى كل  
الاشياء ويعلم كل الاشياء ويتصرف بكل الاشياء » . كانت هذه كلمات  
اعدتها على مسامعه مرات ومرات في الماضي .

وبعد وقت قصير سألني هرغر « الا تفضب الهك الله هذا أبدا ؟ »  
قلت « طبعا انى افضبه ولكنه غفور رحيم » وسأل هرغر « اهو  
غفور رحيم عندما يرى ذلك ؟ » اجبت بان هذا الواقع فراح هرغر  
يتأمل اجابتي بامعان . واخيرا قال لي وهو يهز رأسه ياسا : « ان  
المخاطرة كبيرة جدا . . فالانسان لا يستطيع ان يحل كل ثقته وایمانه  
في شيء واحد ، سواء اكان ذلك الشيء امرأة او حصانا او سلاحا او  
ای شيء مفرد . » قلت له « ومع ذلك فانا اضع كل ثقتي في هذا  
الواحد الاحد » . اجاب هرغر قائلا « ماتراه هو الافضل ، ولكن هناك  
الكثير الكثير مما لا يدركه الانسان . وان ما لا يعلمه الانسان هو عالم  
الالهة . »

من هذا أدركت انه لا يمكن اقناعه باعتناق معتقداتي ولا انا باعتناق  
معتقداته ، وهكذا افترقنا . وفي الحقيقة كانت ساعة فراق حزين  
جدا وكان قلبي يتفطر لما لائني كنت ابتعد عن هرغر وعن بقية  
المحاربين . وقد شعر هرغر بنفس الشيء . أمسكت به من كتفيه  
وامسك هو من كتفي ثم انطلقت الى السفينة السوداء التي حملتني  
الى بلاد الواز . وبينما كانت هذه السفينة بطاقمها القوى تنساب  
مبتعدة عن شواطئ فندان وقع بصرى على أعلى السطوح المتوهجة  
المتألقة لقاعة هاروت الكبرى وعندما التفت الى الجانب الاخر وقع  
بصرى على المحيط المديد امامنا . والان حدث ان .

( وهنا تنتهى المخطوطة فجأة عند هذه النقطة ، والتي هي نهاية  
صفحة مخطوطية باليد تنهى الكلمات الموجزة التالية Munc Flt  
ومع انه واضح ان للمخطوطة تمة فانه لم تكتشف أى مقاطع أخرى .  
هذه بالطبع هي الحادثة التاريخية بكل صفاتها الا ان كل مترجم قد



علق على هذه المنطقية الشاذة لهذه النهاية المفاجئة ، والتي تشير احتمال  
بداية مغامرة جديدة ، أو منظر جديد غريب قد نكرم علينا معرفته  
لاكثر الاسباب مرضية معرفتها السنوات الالف الماضية .

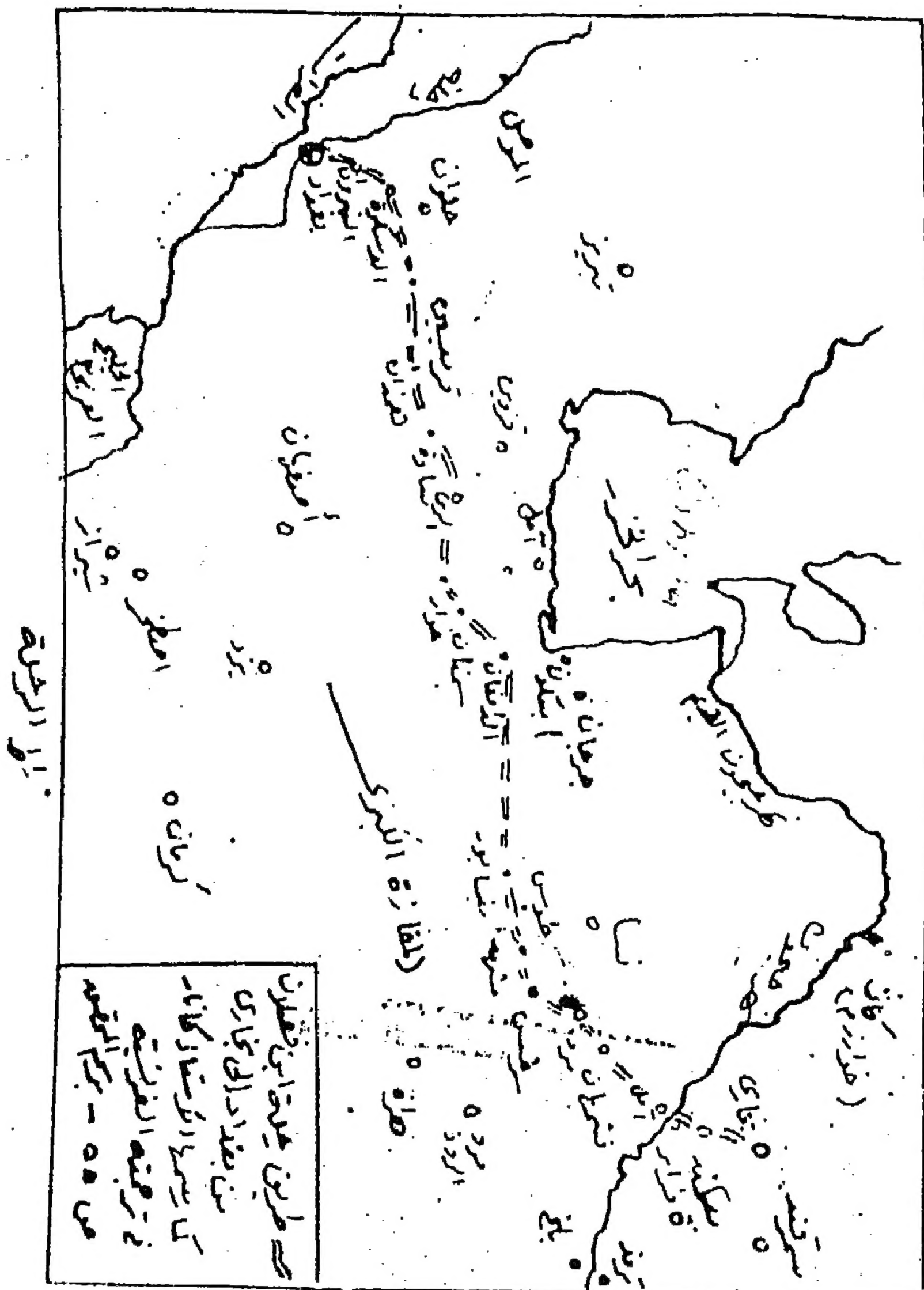
تمت

رقم الايداع : ١٧٣٧٨ / ١٩٩٩

I. S. B. N

٩٧٧-٠٧-٠٦٩١-٤

  
BIBLIOTHECA ALEXANDRINA  
مكتبة الإسكندرية



طريق الميرة  
من طهران الى بندر  
بندر - بندر - بندر

مجلة

# الهلال

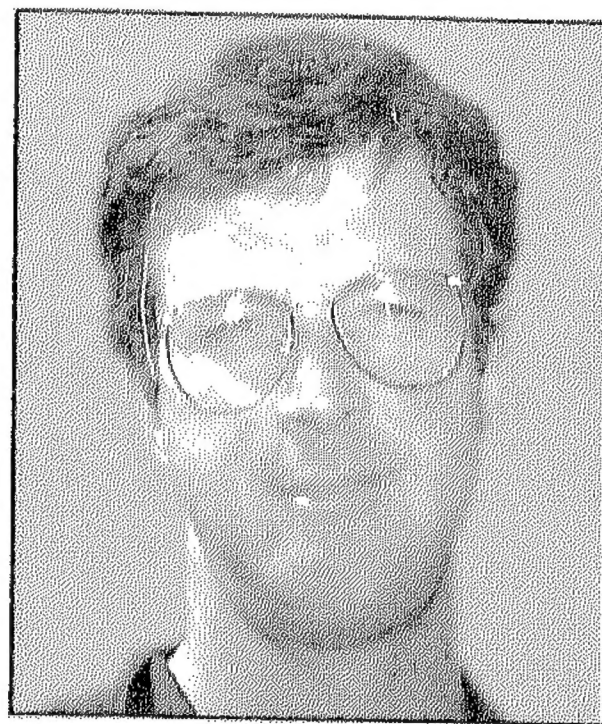
مهد الأبداع الثقافي  
واشعاع الفكر المعاصر

# الهلال

تصدر أول كل شهر

رئيس التحرير: مصطفى نبيل





هذه الرواية نشرناها عام ١٩٨٥ ونفدت في أسابيع قليلة  
واليوم في نهاية عام ١٩٩٩، هي حديث الناس في كل أنحاء  
العالم، بعد أن، تحولت إلى فيلم عالمي باسم «المحارب رقم ١٣»،  
إخراج جون ماكترنييات، وبطولة انطونيو بانديراس وعمر الشريف،  
وأجمعت كل الاقلام أن الغرب بدأ يغير من صورته عن العربي، فهو  
هنا رحالة مغامر عاشق للعلم، والمعرفة، مؤمن بالله، ولماح وشديد  
الذكاء.

مؤلف هذه الرواية هو مايكل كرايتون واحد من أغلى الأدباء  
المعاصرين، وهو الذي قام بإنتاج الفيلم بنفسه، وهو صاحب  
مشهورة منها «حديقة الديناصورات»، و«عالم الغرب» كما أنا  
من أكثر خبراء الكمبيوتر مهارة.

إنها رواية عن العرب القدامى، برؤية معاصرة، تناسب أمة

٢٠٠٠.

الثن

Library Alexandria



0334350